

مطبعة المرسلين اللبنانيين — جونيه

١٩٥٤

ولهم نسبة اليــك شهــيرة
افرزتهم من الشعوب الكثيرة
انهـــا عندهم دواما خطيرة
كل فرد منهم بذاك فخورُ
لا تخف ...

. . .

ايهـــا الشعب صن بغير توانِ
كل آن وديعة الايمـــانِ
فهي ارث بل مصدر الاحسانِ
عن أبيك القديس فيـه السرور
لا تخف ...



اللازمة للجوق وللشعب



(١) لحن هذا النشيد حضرة العالم المفضال المونسنيور بولس رزق النائب البطريركي سابقاً في ابرشية مصر المارونية .

قبل مارون كان في القورشية

هيكل للضـــلال والوثنيَّة

أَمَّ اطـــلاله بنفسٍ تقيـــة

فعليها من فضـــلهِ ذرَّ نور

لا تخف ايها القطيعُ الصغيرُ

. . .

وغدا مثلَ ارز لبنانَ ينمو

في سما الفضل والبرارة يسمو

فبدا في الورى مذاعاً له اسمُ

جلَّ شأناً وباركته العصورُ

لا تخف ...

. . .

مجد لبنان كله لك أُعطي

ومن الفضلِ حزتَ أفخم قسطِ

كيف يخشى بنوك ضربات سخطِ

ولهم انتَ حـارس ونصـــيرُ

لا تخف ...

. . .

مطبعة المرسلين اللبنانيين
جونيه — لبنان

نشيد القديس مارون[1]



الموضوع في كتابنا هذا ، ولا حاجة بنا الى التكرار . « فاين ورد يا ترى أن الموارنة كانوا يصلّبون بالاصبع الواحدة ! ! فاننا نرى نصوصاً بعكس ما قال رحمه الله ، وهي ان الموارنة قبل القرن الـ ١٦ وما فوق كانوا يصلّبون بالاصبعين دليلا على وجود طبيعتي السيد المسيح ومشيئتيه » .

وقد اتى بالدليل القاطع على فساد رأي الخصوم رئيس تحرير مجلة المنارة عامئذٍ في عددها ١٢ (١٩٣٥) ص ٨٥٤ – ٨٥٦ في معرض انتقاده لهذا الكتاب حيث قال :

« فقد ورد في احدى نسخ سنكسار قديم كان مستعملا في كنائس جبل لبنان قبل الجيل السادس عشر بزمان طويل وقد طبع في رومية سنة ١٦٢٢ على صورته الاصلية ما نصه : « اليعقوبية واتباعهم يرسمون اشارة الصليب بالاصبع الواحدة اشارة الى اعتقادهم بالطبيعة الواحدة اما المارونية فمن قديم الزمن يرسمون تلك الاشارة باصبعين لاعتقادهم طبيعتي المسيح ومشيئتيه كما يعرف ذلك من صور رؤسائهم في الهياكل القديمة » (راجع كتاب رد التهم للبطريرك اسطفان الدويهي المطبوع في بيروت في ذيل تاريخه سنة ١٨٩٠ في مطبعة الاباء اليسوعيين صفحة ٣٣٧ في الحاشية الاولى) . وهذا السنكسار يذكر اسماء القديسين الذين ناضلوا ضد القائلين بالمشيئة الواحدة كصفرونيوس بطريرك بيت المقدس . ومرتينوس بابا رومية ومكسيموس المعترف . ويذكر ايضاً المجمع السادس الذي عقد في القسطنطينية في ايام الملك قسطنطين اللحياني ضد القائلين بالمشيئة الواحدة . فلو كان حضرته طالع قبل ان كتب عبارته هذه تاريخ الكنيسة المارونية الذي وضعه في اللغة الفرنساوية حضرة الكاتب المدقق المنسنيور (وحالياً المطران) بطرس ديب استاذ الحق القانوني في جامعة ستراسبورغ لكان تجنب بلا ريب ايراد زعمه هذا الخالي من كل مستند والذي أكل عليه الدهر وشرب وكان كفانا مؤونة الرد على كلام ليس من ورائه الا اثارة الاحن . »



منذ ظهور بدعتهم المنوفيزية في اواسط القرن الخامس . وقد استمروا على ذلك بعد هجرتهم الى لبنان . فنزول مهاجريهم في القرن الثامن بين اليعاقبة قول غير معقول . ولما جاء بعض اليعاقبة في اواخر القرن الخامس عشر الى جبة بشري ، تحت حماية مقدميها ، قام عليهم الموارنة وطردوهم . فحكاية انتشار اليعاقبة عهدئذٍ بين الموارنة في انحاء لبنان ، وانضمامهم اليهم مخالفة للعقل والتاريخ :

١ — **العداء في سوريا** — حالما ظهرت في سوريا بدعة المنوفيزيين ، الذين دعوا بعدئذٍ يعاقبة ، نهض رهبان مار مارون لمقاومتها . فكافأهم الملك مرقيان بان وسَّع دير مار مارون على العاصي في السنة ٤٥٢، اي بعد انعقاد المجمع الخلقيدوني بسنة واحدة . كما يشهد ابو الفداء صاحب حمص في كتابه « تقويم البلدان » [١] . والمشادة بين الفريقين لم تتوقف عند المجادلات ، التي حفظت لنا الايام بعض نصوصها [٢] ، بل تعدتها الى التنكيل والتدمير وسفك الدماء . . .

٢ — **العداء في لبنان** — ولم نعد نسمع عن اتصال الموارنة باليعاقبة الا في اواخر القرن الخامس عشر ، حين اقبل بعضهم من صدد والقدس ونابلس واقاموا في جبة بشرى تحت حماية مقدميها . وقد صبر عليهم الموارنة لما اتصفوا به من حسن الضيافة وطيب العنصر . على انهم ، لما احسوا بهم يستثمرون هذه الضيافة لترويج ضلالهم وبث بذور الشقاق بين بني طائفتهم والتآمر عليهم مع الاعداء ، لم يعبأوا

---

(١) لباب البراهين ص ٣٣ .

(٢) راجع الرسالتين اللتين تبادلها رهبان الموارنة واليعاقبة ، ونشرهما بالسريانية الاب نو Nau في مجموعته Opuscules maronites نقلاً عن مخطوط لندره رقم ١٢١٥٥ من الملحق . راجع عنها أيضاً تاريخ الموارنة للمطران يوسف الدبس ص ٢٦ و ٢٧ .

بتهديد المقدم عبدالمنعم المتشيع لهم ، بل صارحوهم العـداء وطردوهم ومحوا معالم قرية بقوفا مقر مطرانهم . وقد اقر حضرة الفيكنت عندما ذكر هذا الحادث[١] بان الموارنة ظلوا حتى ذلك العهد يتخذون اليعاقبة خصوماً لهم . . . « وقد استفاض العلامة قراعلي بالبحث عن هــذا الموضوع ، فمن اراد الاستزادة فيه ، فعليه بمراجعة المصدر المشار اليه » .

***

وختاماً نشير الى ما جاء تلميحاً في كتاب « الصليب في الاسلام » لمؤلفهِ المرحوم حبيب زيات ، فنقول : نشر الكاتب المنقَّب زيات عام ١٩٣٥ في مطبعة القديس بولس في حريصا كتاباً اسماه الصليب في الاسلام ، اتي فيه على ذكر الصليب عند المسلمين وفي مؤلفاتهم العديدة مما اقتضى منه وقتاً طويلاً وجهوداً كبيرة يشكر عليها المؤلف .

انما لاغراض وغايات لا تخفى على احد اشار المؤلف الى نقطة تتعلق بمعتقد الموارنة في الاجيال الخوالي وقد كان في غنى عن الغمز اليها ، وهي قوله ص ٢٩ : « وكان الموارنة قديماً يصلـِّبون بالسبابة ولما بدأوا يقلّدون اللاتين في كثير من مصطلحات الطقس الغربي انتحلوا عادتهم في الارتسام بالاصابع الخمس . ولا شك ان المرسلين حسَّنوا لهم هذه الطريقة لِما في الاصبع الواحدة من مظنة الدلالة على المشيئة الواحدة . . . »

فان كان الكاتب المنقّب يقصد من كلامه هذا الاشارة الى ما ينسبه الى الموارنة زوراً خصومهم من انهم هم اصحاب الشيعة القائلة بالمشيئة الواحدة في السيد المسيح ، « فاننا ننكر عليه ادعاءه كل الانكار لانه خالٍ من كل مستند تاريخي . ، وقد اسهبنا بالكلام عن هذا

---

(١) ص ١٦١ .

١٣٩٢ [1] ويحتوي على رسالة عنوانها « كتاب الايمان » ܟܬܒܐ ܕܗܝܡܢܘܬܐ وجَّهها مار يوحنا مارون الى اهالي لبنان من دير مار مارون الكبير على نهر العاصي في حماة قبل الهجرة المارونية . جاء في صدرها ما خلاصته « كتاب الامانة الذي كتبه يوحنا المكنى مارون . فانه لما أُقيم بطريركاً على انطاكية وشاهد استفحال شأن البدع المبلبلة لطبيعة السيد المسيح فضَّل ان يبدل كرسيه من ان يبدل امانته . فهرب الى دير مار مارون على العاصي في حدود حماة حيث كان ثمانمائة راهب من السريان الصالحين والمستقيمي الرأي . وهناك كتب هذه الرسالة ووجهها الى اهالي لبنان » . فلو لم يكن له في لبنان رعايا من بني مذهبه لما وجه اليهم هذه الرسالة .

فاقامة مار يوحنا مارون استقفاً على ابرشية البترون قبل الهجرة ، ثم انتقاله مع رعاياه اليها ، ونصبه كرسيه في كفرحي من اعمالها ، دلائل على انها كانت مأهولة بالموارنة قبل هذا التاريخ . ثم اقامة خلفائه فيها وانتقالهم الى يانوح فميفوق ، في اعالي جبيل ، وبعدئذٍ الى قنوبين ، في قلب جبة بشري ، دلائل اخر على ان المقاطعات كانت مارونية . ناهيك عن شهادة مؤرخي الصليبيين .

بقي ان يثبت لنا حضرة الفيكنت : **اولاً** ان الفينيقيين فرع من السريان . **وثانياً** ان القسم الجنوبي من جبال لبنان ، اي كسروان والمتن والشوف ، كان آهلاً باليعاقبة قبل الهجرة المارونية . لأن كل ما اتى به من المراجع خاص بالقسم الشمالي من لبنان . وقد بيَّنا ان سكانه كانوا موارنة وملكية . واكبر الظن ان اليعاقبة لم يقطنوا في لبنان البتة قبل الهجرة المارونية ، او كانوا فيه اقلية ضعيفة لا شأن لها فيه . ومهما كان الامر فسكان لبنان الاصليون لم يكونوا يعاقبة .

---

[1] تحت الرقم ١٤٦ من مخطوطاتها السريانية .

وخلاصة القول ان لبنان كان مأهولاً منذ بدء النصرانية بسريان، خاضعين لبطريرك انطاكية . وفي اوائل القرن الخامس ظهرت بدعة المنوفيزيتيين ، اي اليعاقبة القائلين بالطبيعة الواحدة في السيد المسيح ، فحرمهم مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ . وقد حضر هذا المجمع جميع اساقفة لبنان، ووافقوا على قراراته وخضعوا لها هم ورعاياهم . فدعوا خلقيدونيين تمييزاً لهم عن الهراطقة المذكورين . . .

فامتزاج الموارنة الكاثوليك باليعاقبة الهراطقة « امتزاج الماء بالراح » مع شدة الخصومة بينهم حكاية وهمية لا تجوز على عقل انسان . لان اعجوبة تحويل الماء الى خمر لم يجترحها سوى السيد المسيح . اما حضرة الڤيكنت فلم يأتِ بها الا من مخيلته . ولا يعقل ان يرتمي الموارنة النازحون الى لبنان بين احضان اليعاقبة اعدائهم الالداء . وقد تركوا سوريا وخيراتها ومقتنياتهم فيها هرباً منهم . ولا يعقل ايضاً ان يصاهروهم لاسيما وان الزواج بين الكاثوليك والهراطقة محرم منذ القديم . اما يعاقبة طرابلس وجونيه فاكبر الظن انهم قدموا الى لبنان مع الصليبيين وخرجوا من لبنان بعيد خروجهم منه . لان لائحة اساقفتهم في هاتين المدينتين تقتصر تقريباً على هذه الحقبة (١٠٩٨ — ١٢٨٩) . والذين قدموا منهم الى لبنان في اواخر القرن الخامس عشر لم يحتملهم الموارنة طويلاً بل طردوهم منه . فلم يندمجوا بالموارنة ولم يملأوا لبنان من نسلهم كما ادعي حضرة الڤيكنت . فموارنة لبنان إذاً يمثلون القسم الاكبر من الخلقيدونيين السريان سكانه الاصليين . فهم اذن اصليون في لبنان وليسوا دخلاء كما زعم حضرة الڤيكنت . وقد انضم اليهم المهاجرون من موارنة سوريا فاصبحوا فيه الاغلبية الساحقة حتى اليوم .

هجرة موارنة سوريا الى لبنان : ناصب الموارنةُ اليعاقبةَ العداء

وقبرس يردف بقوله « وكثيرون من فلسطين وفونيقي » . مما يشهد على ان اكثرية اللبنانيين كانوا يقولون بالطبيعتين ، مضادين بهذا القول اليعاقبة . فاغلبية سكان لبنان الاصليين كانوا اذن في اواسط القرن السابع ، اي قبل الهجرة المارونية اليه ، من الخلقيدونيين . اما اليعاقبة فكانوا فيه اقلية لا يعتد بها . ولعلهم لم يكونوا قط من سكانه الاصليين .

سادساً : وحضرة الفيكنت نفسه يعترف بان اللبنانيين الاصليين انقسموا في القرن الخامس الى فرقتين يعقوبية وخلقيدونية . فاليعاقبة لم يعودوا بعد ذلك سكان لبنان الوحيدين كما يدعي . واليك كلامه[١] . « في العصور النصرانية الاولى لم يكن من المسيحيين في اعالي لبنان ووسوطه سوى السريان سكانه . وقد اصبح اولئك السريان اللبنانيون منذ القرن الخامس فرقتين : فرقة خلقيدونية قائلة بطبيعتين في السيد المسيح وفرقة منوفيزيتية قائلة بطبيعة واحـــدة . ولم يتبدل موقف المسيحيين في لبنان الا بدخول الموارنة اليه » .

هذا اقرار صريح بان شطراً من اهالي لبنان كان ، قبل دخول الموارنة اليه ، تابعاً العقيدة الخلقيدونية المضادة للبدعة اليعقوبية . وحضرته يعرف حق المعرفة ان الموارنة كانوا خلقيدونيين صميمين . فهل يعقل ان يترك المهاجرون الموارنة الى لبنان بني مذهبهم جانباً ليرتموا في حضن اليعاقبة اعدائهم ، وقد هجروا سوريا هرباً منهم ؟ ! ولما كان الموارنة قد اقاموا في بادىء الامر في مقاطعات البترون وجبيل وجبة بشري فهذه المقاطعات كانت اذن مأهولة بسكان من بني مذهبهم . وهكذا تسقط حجة حضرته بان الموارنة نزلوا عند هجرتهم بين اليعاقبة وانهم امتزجوا بهم وصاهروهم . ثم استولوا على الاديار والكنائس والاوقاف التي كانت جميعها ملكاً لاجدادهم .

---

(١) ص ٦٠ و ٦١

سابعاً : لدينا وثيقة يعقوبية تثبت بان مار يوحنا مارون كان متولياً على ابرشية البترون قبل الهجرة المارونية . فاليعاقبة انفسهم يشهدون في كتاب معتقدهم ان الكردينال الذي اوفده الحبر الاعظم الى انطاكية لدعوة المنشقين الى الايمان المستقيم اقام مار يوحنا مارون اسقفاً على البترون سنة ٦٧٦ ليحفظ اللبنانيين على الايمان الكاثوليكي . وان مار يوحنا مارون قد صرح عند ترشيحه الى هذه الاسقفية بقوله « نخاف على جبل لبنان من ان تدوّره طائفة الملكيه الى امانتهم واما امانة يعقوب فلا اذكرها [١] » . فاذا كانت هذه الوثيقة اصيلة انفسح امامنا المجال لعدة اسئلة : فخوف مار يوحنا مارون على لبنان من الدعاية الملكية لا اليعقوبية يدل **اولاً** على ان الانفصال بين الملكيين والموارنة في لبنان بدأ عهدئذٍ . **ثانياً** ان اليعاقبة لم يكن لهم في لبنان مشايعون ، او كانوا اقلية ضعيفة لا خوف منها . على الاقل في لبنان الشمالي ، حيث نزل المهاجرون الموارنة . لاسيما ان تعهده بان لا يأتي على ذكر امانة يعقوب يدل على ان هذه البدعة لم تكن معروفة لدى العامة في لبنان . ثم ان « خوفه على لبنان من ان تدوّره الملكية الى رأيها » يستنتج منه ان اللبنانيين كانوا اغلبهم ثابتين على رأيه الماروني قبل الهجرة المارونية . ولما كان غير معقول ان ينزل الموارنة بين الملكيين اخصامهم ، فاكبر الظن ان مقاطعات البترون وجبيل وجبة بشري ، التي نزل فيها الموارنة في اول هجرتهم ، كانت مأهولة بسكان اصليين من الموارنة ، وان سكان الكورة قبل الهجرة المارونية كانوا ملكيين . فيتحصل مما سبق ان اغلبية لبنان الشمالي كانت على المذهب الماروني قبل ان يهاجر اليه الموارنة .

ثامناً : وفي المكتبة الفاتيكانيــــة مخطوط قديم يرتقي الى السنة

---

(١) الدويهي ص ٦٢ .

٣ - **سكان لبنان قبل الهجرة المارونية** - فالموارنة الذين هاجروا الى لبنان في اواخر القرن السابع وفي غضون الثامن ، حلوا بلا ريب بين بني مذهبهم من سكانه الاصليين ، لا بين اليعاقبة او الملكيين اعدائهم . ونحن نقيم الدليل على قولنا : **اولاً** = من وجود سريان اصليين في لبنان كانوا على المذهب الماروني قبل هذه الهجرة . **ثانياً** = من العداء الذي كان مستحكماً بين الموارنة واليعاقبة من جهة ، وبينهم وبين الملكيين من جهة اخرى ، مما يجعل نزول هؤلاء المهاجرين بين اعدائهم مستحيلاً :

نستدل اولاً على وجود سريان اصليين في لبنان كانوا على المذهب الماروني قبل الهجرة من البراهين الثابتة الآتية :

اولاً : من حضور جميع اساقفة لبنان المجمع الخلقيدوني ، المنعقد سنة ٤٥١ ضد اليعاقبة . فقد ذكر التلمحري ، في لائحة الحاضرين ، اسماء اساقفة عكا وصور وصيدا وبيروت وطبرجه وجبيل وانفه والبترون وطرابلس وعرقا وبعلبك ، مما يدل على ان اللبنانيين كانوا اغلبهم معادين لليعاقبة ولم يكن بينهم مشايعاً لاوطيخي سوى انسطاتيوس اسقف بيروت . بيد انه تاب عن ذنبه واستغفر نادماً بحضرة اباء المجمع الخلقيدوني ورذل شيعة الاوطاخيين [١] . ولو ناصر غيره البدعة اليعقوبية لكان من مصلحة التلمحري اليعقوبي ان يذكره ، ولكان المجمع حرمه مع من حرم من القائلين بهذه البدعة .

ثانياً : مما ذكر عن الملك انسطاس المناصر لليعقوبية ، انه طرد

---

(١) راجع مقالة الاب شارون في مجلة المشرق ٨ : ١٩٥ .

سنة ٥١١ م من القسطنطينية عدداً غفيراً من الراهبات لرفضهن اعتناق هذه البدعة . فقصدن الى لبنان واستوطنّ فيه ؛ وهذا يدل على ان سكانه كانوا خلقيدونيين اخصام اليعاقبة[١] .

ثالثاً : ان تاودوسيوس اسقف جبيل واسطفان مطران البترون وقعا اعمال المجمع المسكوني الخامس المنعقد سنة ٥٥٣ م ضد اليعاقبة . فهاتان الابرشيتان كانتا في ذلك العهد خلقيدونيتين[٢] .

رابعاً : من كلام التلمحري عن الاضطهاد الذي اعلنه على اليعاقبة الملك هرقل سنة ٦٢٨ . فهو يقول « ان الرهبان الموارنة واهل منبج وحمص ، والبلدان الجنوبية[٣] قد اظهروا قساوتهم نحونا ، وهدموا كثيراً من معابدنا واديارنا ، واستولوا على اهمها » . وهي اشارة الى ان سكان لبنان الشمالي ، وكانت حمص عاصمته الكبرى ، قد اصبحوا منذ ذلك العهد اخصاماً لليعاقبة ، اي انهم كانوا خلقيدونيين .

خامساً : من كلام يشوعياب الثالث بطريرك النساطرة المتوفى سنة ٦٦٠ مسيحية . وقد اورد العلامة يوسف السمعاني في « المكتبة الشرقية[٤] فقرة من كلامه عدّد فيها البلاد التي « تعترف بتثنية الاقانيم والخواص والافعال في السيد المسيح » اي الطبيعتين ، ظناً منه ان الذي يقر بطبيعتين في السيد المسيح يقر ايضاً باقنومين ، لان كل اقنوم لا بد له من طبيعة خاصة به . فبعد ان يذكر يشوعياب روميه العظمى وكامل البلاد الاوروبية واليونان وافريقيا واورشليم

---

(١) لامنس ١ : ١١٩ .

(٢) المشرق ١٠ : ٤٠٢ .

(٣) ܐܬܪܘܬܐ ܬܝܡܢܝܬܐ

(٤) ٣ : ١٦١ .

ص ٢٢٢) ، المأسوف على علومه التاريخية الواسعة المرحوم الخوراسقف بولس قراعلي ، رداً على ما جاء في تاريخ حضرة الفيكنت دي طرازي السرياني الكاثوليكي : « أصدق ما كان عن تاريخ لبنان ، وصفحة من اخبار السريان » . فقد قال العلامة قراعلي ، رحمه الله ، في القسم الاول من ردّه المذكور : « الموارنة في لبنان » ، تحت هذا العنوان « سكان لبنان الاصليون » ما يدعم قضيتنا دعماً قوياً ، ويزيدها اثباتاً وتأكيداً ، وهذا نص كلامه في هذا الباب ننقله للقراء ليتثبّتوا مما قلناه ، قال رحمات الله عليه تترى:

١ — **النصرانية في لبنان** — اما ادعاؤه (اي الفيكنت دي طرازي) بان « النصرانية انتشرت في لبنان في القرن الخامس ، على يد مار سمعان العامودي وتلاميذه ، فيدحضه التاريخ الذي اثبت ان النصرانية دخلت لبنان على ايدي رسل السيد المسيح ، وان بطرس رئيس الرسل اقام على جبيل اسقفاً من تلاميذه اسمه حنا مرقس ، وعلى طرابلس اسقفاً آخر يدعى مارون [١] ، مما يدل على ان هاتين المقاطعتين اصبحتا منذ فجر النصرانية ، ابرشيتين منظمتين ، غاصتين بالنصارى . ويروي التاريخ ايضاً ان الملك قسطنطين الكبير في اوائل القرن الرابع وخلفه تاودوسيوس ، قد حوّلا جميع الهياكل الوثنية في لبنان الى معابد مسيحية [٢] . ويدعي حضرة الفيكنت نفسه ، بان الملكة هيلانه ، والدة قسطنطين الكبير ، قد شيدت في لبنان عدة كنائس لمواطنيها السريان ، لانها كانت رهاوية [٣] . وقد صرح الاب

---

(١) راجع « تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار » للاب هنري لامنس اليسوعي ١ : ١٠١ و ١٠٣ حيث تجد المراجع الاصلية .

(٢) لامنس ١ . ١١٢ و ١١٣

(٣) لامنس ٢٠٢ — ٢٠٤ .

لامنس اليسوعي ، الذي درس دخول النصرانية الى لبنان ، بقوله[١] « مما لا شبهة فيه ان الدين النصراني فاز بالسهم المعلى في الساحل الفينيقي في اواسط القرن الرابع مع ما تخلف فيه من بقايا الوثنية » . وذكر التلمحري في كلامه عن المجمع الخلقيدوني ، المنعقد سنة ٤٥١ لشجب اليعاقبة ، اسماء اثني عشر اسقفاً لبنانياً حضروا هذا المجمع ، مما يدل على انتشار النصرانية في لبنان قبل هذا العهد بكثير ، حتى اصبح لها هذا العدد من الابرشيات المنظمة . فجميع هذه الوثائق وغيرها ، مما لا يسعنا ايراده ، تدل دلالة واضحة على ان النصرانية قد انتشرت في لبنان قبل عهد ماز سمعان العمودي ، المتوفى سنة ٤٦٠ . ومهما كان الامر فهذا القديس لم يكن يعقوبياً . والوثنية التي ذكرها حضرة الفيكنت ، تشير ، على الارجح ، الى وثنيي جبال النصيرية ، التي كانت عهدئذٍ تابعة لمقاطعة فونيقي[٢] .

٢ — **السريان اربع طوائف** — ونحن نسلم مع حضرته بان الموارنة حين نزوحهم الى لبنان في اواخر القرن السابع وجدوه مأهولاً بالسريان . غير ان هؤلاء السريان ، الذين نزلوا بينهم ، لم يكونوا يعاقبة . فسكان سوريا والجزيرة ولبنان كانوا ، كما يعلم حضرته حق العلم ، امة واحدة خاضعة لبطريركية انطاكية . ثم تفشت البدع في سوريا فانقسموا الى اربع طوائف : نساطرة ويعاقبة وموارنة وملكيين ... وجميع هؤلاء كلهم سريان . فلماذا يخصص حضرته هذا الاسم بملته ويدّعي انها سبقت جميع الطوائف الى سكنى لبنان حين كانوا كلهم قبل الانشقاق امة واحدة متحدة خاضعة لبطريركية انطاكية ؟

---

(١) لامنس ١ : ١٠٨ .

(٢) لامنس ١ : ١١٦ .

pour base, avec en note les variantes de trois autres manuscrits ; il tient compte aussi des variantes fournies par le Nomocanon d'Ibn-al-'Assâl (devenu le Fetha Nagast des Ethiopiens) qui a emprunté plusieurs chapitres à notre Kitâb.

Le but de l'éditeur est d'offrir aux spécialistes, à défaut d'une photographie impossible en l'espèce, la vue la plus complète et la plus objective du Kitâb. Aussi s'est-il à peine permis, outre quelques signes de ponctuation, quelques corrections entre parenthèses, insérées à même le texte. A part cela, il a tout respecté : les lacunes, les corruptions, les répétitions, les barbarismes, solécismes, idiotismes, en particulier syriacismes... Le lecteur tirera certains secours des nombreuses variantes de détail, mais les manuscrits subsidiaires, invoqués en note, sont presque toujours inférieurs à celui du texte. Et par surcoît les fautes d'impression ne sont pas rares : aux sept pages de corrigenda terminant l'ouvrage il serait possible d'en ajouter autres. A total la lecture est ingrate, malgré le caractère large et net de l'Imprimerie Maronite ; sans doute le style misérable et l'ennui du sujet y sont aussi pour quelque chose.

M. Fahed, dont nous ne saurions trop louer l'énorme travail mis au service de l'histoire des rites et de la théologie, nous promet dans sa préface en arabe, elle-même résumée en français, une version latine ou française du Kitâb. Nous croyons que c'est seulement par là que son œuvre atteindra son plein rendement, même chez les Orientaux, à condition de ne pas reculer devant certaines simplifications d'appareil et de forme ; mais ce ne sera pas chose aisée.

Le Kitâb pose certains problémes. M. Fahed, dès le titre même, se prononce sur certains d'entre eux con-

cernant l'origine du livre et s'en explique dans sa préface. A l'encontre des opinions bien étranges de R. Duval et de M. A. Baumstark, il faut admettre que l'évèque David n'est pas l'auteur mais qu'il a simplement traduit ou plutôt, comme le contenu doit l'apprendre, adapté en arabe une œuvre syriaque d'origine officielle mais anonyme. Attaqué récemment d'une façon assez sommaire par le P. Samrâni, M. Fahed s'étend davantage sur ce point et sur quelques autres dans une intéressente brochure de polémique en arabe qu'il a jointe à son volume.

Aux questions soulevées et résolues déjà s'en ajouteraient certaines autres portant sur le fond, notamment sur l'influence juive et certainement musulmane dans l'organisation des rites et leur motivation doctrinale. Il y a des affinités avec le droit et certaines traditions islamiques. Outre leur signification historique et théorique, elles intéressent aussi la formation littéraire du recueil. M. Fahed, n'en doutons pas, s'en occupera quelque jour avec succès. (1)

A. Regnier.

✲✲✲

ذيل آخر

وتأكيداً لِما قرّرناه في تضاعيف هذا الكتاب ولاسيما في العدد العاشر منه (ص ١٩٢ — ٢٠٩) عن معتقد اجدادنا الموارنة القدامى ، ذلك المعتقد الكاثوليكي الصحيح ، نثبت هنا ما فاتنا نشره قبلاً مما كتبه ، في مجلة المنارة سنة ١٩٤٩ ، (في عدديها الخامس والسادس ،

---

(١) وهناك مجلات وجرائد عديدة قد وضعت مقالات قيّمة عن كتابنا هذا، أشرنا الى بعضها بحاشية في المقدمة ، فنحيل القارئ اليها للوقوف عليها في مصادرها .

« ولا شك ان مواد هذا الاثر العزيزة هي بمثابة كنز فياض للمغرمين بالاطلاع على نفائس الاجيال الغابرة ، لانه يتضمن الشروحات الوافية عن العقائد الكاثوليكية والاسرار والتقادم والشعور والاصوام ، وعن قوانين البطاركة والملوك والاساقفة والكهنة والرهبان والراهبات والعوام مع قوانين بعض المجامع مثل الخلقيدوني والنيقاوي وغيرهما ، وعن مراسيم الملوك كقسطنطين وتودوسيوس ولاون الخ .

« واصبح في امكان كل باحث مدقق ان يعرف ، بنشر هذا الاثر النفيس ، نصوص كل مخطوطاته ، لان الناشر قد درس جميعها بامعان وروية وعارضها باعتناء كلي بالنسخة الواتيكانية رقم ١٣٣ من القسم السرياني التي وضعها في المتن نظراً لقدمها وحسن الحالة التي حفظت بها ، واشار بالحاشية الى كل فروقها عن باقي المخطوطات .

« وتسهيلاً للمطالع الكريم قد وضع الناشر لهذه المجموعة النفيسة مقدمتين كبيرتين : الواحدة في الفرنسية والاخرى في العربية ، واسهب فيهما الكلام عن مؤلف الهدى ومترجمه ، وتاريخ تأليفه وترجمته ، وعن عدد المخطوطات واحوال كل منها وعن بعض آراء واعتراضات استنبطها بعض الالمان والفرنسيس مثل بومسترك وديفال دون ان يستندوا الى براهين البتة مما يجعلنا ان نشك بانهم كتبوا لغاية في النفس او بدافع مبادىء تشربوها سابقاً ، وقد رد الناشر على هذين الاخيرين ببراهين سديدة وادلة ساطعة من النص نفسه ومن مصنفات العلماء الذين خاضوا في هذا المضمار .

« وقد ذكر ايضاً في مقدمتيه المومأ اليهما عدة مخطوطات لمجموعة القواعد لابن العسال القبطي الذي عاش في الجيل الثالث عشر ، لان هذا العالم قد نقل عن كتاب الهدى ثمانية فصول وعدة فقرات قد عينها الناشر في المقدمتين .

« وخلاصة القول ان هذا السفر النفيس يعد خدمـة جلى للتاريخ والعلوم القانونية خاصة في هذه الايام التي نرى فيها الكنيسة الرومانية وكل الكنائس الشرقية دائبةً على العمل لتنظيم دستور عام للطوائف الكاثوليكية في المشرق . »

ا . ف . ع .

***

وهذه كلمة الاستاذ رينيه باللغة الفرنسية ننقلها عن مجلة الميزيون البلجيكية في عددها الـ ٤٩ (سنة ١٩٣٦) ليطلّع عليها القاريء الكريم :

Kitâb al-Hudâ ou Livre de la Direction, Code Maronite du haut moyen-âge, traduction du syriaque en arabe par l'évèque maronite Davide l'an 1059, publiée pour la première fois du ms. Vat. Syr. 133 avec indication des variantes des autres manuscrits par Pierre Fahed, Alep, Imprimerie Maronite, 1935. In-4°, 410 p.

Tout récemment, à l'occasion du 80e anniversaire de S. S. le Pape Pie XI, un mandement de S. B. le Patriarche Maronite rappelait entre autre l'initiative pontificale pour la codification du droit canonique oriental. Or voici que, par une heureuse coïncidence, nous parvient l'édition d'un texte capital sur ce domaine : l'ancien code de la nation maronite, comprenant des chapitres doctrinaux et rituels sur le dogme, les sacrements, le jeûne, les prières, des statuts relatifs aux prêtres, riligieux et religieuses, des constitutions patriarcales ou épiscopales, des versions orientales de plusieurs conciles, des édits impériaux. A la vérité, le texte originale syriaque étant perdu, nous n'avons qu'une traduction en écriture karshuni mais en langue arabe. M. Pierre Fahed, élève du collège alépin maronite de Rome, nous la présente, transcrite en arabe ordinaire, d'après le ms. Vat. Syr. 133 qu'il prend

« ثم كتب في الصوم (ص ١٤٨) ما نصه : « فقالت الروم اذا كان سيدنا ومتولي خلاصنا صام اربعين يوماً واربعين ليلة لم يفصل صوم النهار على صوم الليل ... » واستتلى (ص ١٥٠) « فثبتت الروم ومن والاهم ورأى رايهم من الجرجان والابكار (والبلغار) وغيرهم على الرأي الذي رأوه . . . وثبت باقية النصارى على الرأي الصحيح الذي اسَّسته اوائلهم ولم يغيروا منه شيئاً الى يومنا هذا » .

« هذا بعض ما لفت نظرنا حين مطالعتنا هـذا الاثر النفيس . وهو ليس بنقدٍ كافٍ للكتاب لان هذا العمل يتطلَّب بحثاً طويلاً . على اننا نكتفي بالاشارة الى ظهوره بالطبع مثنين اطيب الثناء على على ما تكلف من العناء حضرة ناشره الهمام ، الراهب بطرس فهد ، الورع ، العامل على تخليد آثار السلف . »

ا . ا .

* * *

وهناك ثالثاً ما نشرته جريدة « البلاد » في عددها ١٣٦ ، من سنة ١٩٣٦ عن كتاب الهدى ، وكان يشرف على تحريرها وقتئذٍ المأسوف على علمه وسعة معارفه الشيخ يوسف الخازن[1] :

---

(١) كان المرحوم الشيخ يوسف الخازن بين اعاظم رجالات لبنـان ممن شهد له الخاص والعام بالتفوق في كل ما خاضه من مضامير الادب والصحافة والسياسة . وقد قال فيه زميله في النيابة ، وشريكه في اصدار جريدة « البلاد » ، ورفيقه في جهاده الوطني والسياسي ، المرحوم معالي الاستاذ موسى نمور احد الوزراء والنواب السابقين ، راثياً اياه ما نصه : نعاه البرق الى لبنان بأسره ، لا الى ابناء عشيرته ، فأكبر فيه المصاب ، ومرّت في مخيلته ذكرى مواقفه الجريئة في الدفاع عنه ، وقوة عارضته ، وسرعة خاطره ، وملاحة حديثه ، ودعابة نكتته ، فبكى به وطنياً مخلصاً ملءْ برديه الاباء والشمم ، وكاتباً نحريرًا رفع شأن لبنان حيثما حلَّ وارتحل ، ونائباً قوي الحجة شديد البرهان ، ذرب

كتاب الهدى

وهو دستور الطائفة المارونية بالاجيال الوسطى عني بنشره لاول مرة عن مخطوط الفاتيكان رقم ١٣٣ حضرة الاخ بطرس فهد تلميذ المدرسة الرهبانية الحلبية اللبنانية في رومية . « اما عدد صفحاته فينيف عن ٤٥٥ صفحة من القطع ٨ الكبير ، مطبعة حلب المارونية .

« انه لمن دواعي السرور ان نعلن بعد الانتظار الطويل ظهور مجموعة قوانين الطائفة المارونية التي عربها عن السريانية المطران داود الماروني سنة ١٠٥٩ مسيحية .

« فلقد مرت نحو عشرة قرون على هذا الاثر الحميد وهو مع خطورة شأنه وعظم اهميته متروك تحت ستار الاهمال لا يستطيع الباحثون اليه سبيلاً لوجوده في مخطوطات قليلة في باريس ورومية فقط ، حيث بعد المكان وتجشم النفقات يحولان دون الفوز به والاستفادة منه.

« اما الان وقد ظهر الى عالم المطبوعات فيتسنى لكل دارس محب للبحث والتفتيش ان يطالعه ويفحص عن محتوياته الغاليات ويقف على عادات الاجداد الحسان ومختبئات فكرهم السامي في الشؤون البيعية والمدنية .

اللسان ، ان خطب هزّ المنابر ، وان قرّر جاء بالمعجزات . وبكت فيه الصحافة صحافياً لبقاً انيق الديباجة ، منتقي الالفاظ ، طلي الاسلوب ، حاضر البديهة ، يغرف من بحر ، وينحت في صخر ، ان حمل اوجع ، وان مدح رفع . . . وبكت فيه المجالس محدّثاً لا يملّ حديثه ، وفكهاً مرحاً تستطاب فكاهته ، وجليساً وادعاً تأنس النفوس الى عشرته . . .

بدوام ايامه » . فيستفاد من ذلك ان هذا الاب القديس كان في قيد الحياة عندما ترجم داود كتابه هذا المدعوّ كتاب « الكمال » . ولكن مَن هو هذا الاب القديس ؟ وما هو هذا كتاب « الكمال » ؟ ذلك سرّ يجهله الى يومنا الباحثون ، والمؤرخون المدققون ، والمتعمّقون في درس آثار الكنيسة الشرقية واخبار ادبائها . على ان نصّ كتاب « الكمال » يشتمل على مواضيع (ص ١٣ – ١٤) لم يثبتها داود المطران في هذا الكتاب (الهدى) كقوله مثلاً : « قوانين المعاملات والتجارات وجميع المعايش واسباب الودائع والاجارات والعارية الخ » .

« ٣ً قال داود المطران (ص ١٤ – ١٥) : « ثم نقلت الجميع منه من لسان السرياني الى لسان العربي . . . ليكون هذا الكتاب موجود باللغتين السريانية والعربية ووسمته باللغة السريانية « ܗܕܘܝܐ » وباللغة العربية « بالمرشد » « فيتضح من قوله هذا ان عنوان الكتاب هو ܡܕܒܪܢܐ اي الهادي او المرشد وليس « الهدى » . وقد اطلق عليه الناسخ (ص ٤٠٦) عنواناً آخر فسماه « كتاب الناموس » .

« ٤ً لسنا نرى ان « داود المطران » مترجم الكتاب كان مطراناً والا لقال صريحاً « المطران داود » واثبت اسم ابرشيته كمألوف العادة البيعية المشهورة ، خصوصاً عند السريان ، كقولهم مثلاً ܕܘܝܕ ܕܕܪܡܣܘܩ داود مطران دمشق الخ .

« ٥ً نرجّح ان كتاب « الهدى » يخصّ الطائفتين المارونية والملكية معاً . وقد اثبت هذه الحقيقة المترجم عينه ؛ فانه بعد ما عدّد فرق الاريوسية والنسطورية واليعقوبية الخ . قال (ص ٣٨) : « على ان الفرقتين الملكية والمارونية التي [اللتين] ذكرناهما انما هما فرقة واحدة » . ثم قال (ص ٤٤) : « فاما فرقة الملكية والمارونية فادّعت (بالمفرد لا بالمثنى) بان المسيح بعد الاتحاد يوصف بانه جوهران »

فقوله فرقة يدلّ به على ان الطائفتين طائفة واحدة ، في نظره ، وقد كانت كنائس الفرقة الملكية والمارونية في حلب ومنبج والرها وغيرها كنيسة واحدة حتى القرن الثامن ، كما اثبت المؤرخون المعاصرون .

« وممّا يعزّز برهاننا هذا ان المترجم ذكر الروم مراراً شتى وصرّح بانهم مخالفون له في بعض العادات . فقال مثلاً (ص ٥٦) : الى ان صار اكثر النصارى وهم كافة الروم والارمن ، . واستتلى (ص ٥٨) : ، فاما الروم ومن يجري مجراهم من الارمن ومن الافرنج وغيرهم ، . وقال (ص ٦٧) : على رأي كافة النصارى ما خلا الروم ومن كان على رأيهم من الملكية » . فأيد بقوله هذا ان الملكية لم يكونوا باجمعهم ، تابعين مقالة الروم والارمن .

« ثم قال (ص ٩١) : « اختلفت اراء النصارى في اخذ القربان . فرأت الروم ان تقريبه في كل يوم واجب ... فاما الارمن فانهم لا يرون تقريبه بالجملة الا في اوقات مخصوصة مثل الخميس الكبير . . . فاما اكثر السريان وهم اهل مذهبنا ... فرأيهم ان المواظبة على اخذه في جميع الاوقات اولى من تركه حتى ان اهل مذهبنا رأوا انه ان امكن الانسان الا يذهب يوم واحد الا ويأخذ فيه الجسد كيفما قدر عليه وحيثما قدر عليه كان اولى واحرى » . واستتلى (ص ٩٩) : « فيجب بذلك ان نواظب على اخذه ونجتهد فيه ولا نقطع انفسنا من الدنو اليه والقرب منه . لننال بذلك ما نؤمله ويجوز به ما نرجوه من الخلود في ملكوت السماء التي لا فناء لها ولا زوال » .

« ونضيف الى رأينا بان المارونية والملكية كانتا امة واحدة ان صاحب كتاب « الهادي » اثبت (ص ١١٠) كيفية العماد على نوعين اعني بصبّ الماء على رأس الطفل ثلاث مرات كما هو جارٍ عند السريان ، او بتغطيسه ثلاث غطسات كما هو جارٍ عند الملكيين .

وقفوا على برهانه ، واعملوا الروية فيه ، وردوا عليه بطرق متنوعة ؛ وتبسطوا في هذا الموضوع كثيراً مما يجعلنا الآن في غنىً عن الخوض في هذا المضمار ؛ بل لوجد بان له اسلافاً بنسبة التأليف الى داود ، والترجمة الى الكفرطابي ، وانه لم يزد شيئاً على هؤلاء الاسلاف ، بل عبروا عما عـبّر عنه حضرته باكثر اسهاب وايضاح .

« واخيراً نسدي للناقد واجب الشكر على انه خصّص لنشرنا كتاب الهدى مقالةً افتتاحية ضافية الذيول ؛ ونشكره ايضـــاً على فكرة توجيهه النصح الينا في ختامها اذ قال (ص ٨٠١) : « نودُّ لو انه انتظر حتى تكثر لديه الشواهد التاريخية في تبيان هذا الكتاب وايضاحه حق الايضاح !! » ونحن بدورنا لا يسعنا الا ان نبدي له رغبتنا بانه لو انتظر ، لا الى ان تكثر لديه الشواهد التاريخية ، بل الى ان يستوفي المطالعة ، ويستوعب الموضوع من كل وجوهه فيأتينا بنقدٍ تجنى منه فائدة ، والسلام . » **الاخ بطرس فهد**

رومية في ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٦

* * *

وهاك ثانياً ما جاء في مجلة « المشرق » في عددها كانون الثاني — آذار (١٩٣٥) ، ص ٦٢٩ — ٦٣٢ ، عن كتاب الهدى حيث قال :

الهدى

نشره عن مخطوط الواتيكان رقم **١٣٣** المنسوخ سنة **١٧١٣** للاسكندر (**١٤٠٢ م**)

الاخ بطرس تامر فهد العشقوتي

٢٠٩ ص ، المطبعة المارونية ، حلب ، **١٩٣٥**

« برز السفر الجليل الذي كان يتوق الى الوقوف عليه جمهور الادباء والكتبة شرقيين ومستشرقين . وهو يُحصى من اقدم الآثار وأثمن

المصاحف التي ابقتها يد الزمان لما تضمَّنه من القواعد الدينيَّة ، والدساتير الرسولية ، وقوانين المجامع الاقليمية والمسكونية ، وسُنن قسطنطين ، وتاودوسيوس ، ولاون ، ملوك قسطنطينيَّة ، منذ اوائل النصرانية حتى القرن السابع . وقد قابله الناشر الهمام على أربعة مخطوطات ، غير المخطوطة الفاتيكانية القديمة ، وأشار الى الفروق في الهوامش .

« وكان جامع هذه الدساتير او مؤلفها قد اثبتها برمّتها بلغته السريانية في عهد لا يعرف تاريخه ، حتى جاء داود المطران ، فنقلها الى العربية عام ١٣٧٠ للاسكندر اليوناني ، الموافق للعام ١٠٥٩ المسيحي .

« وقد رأينا ان نثبت كلمة عن هذا الدستور القيِّم ، في ما خصّ انتسابه الى الطائفة السريانية المارونية الجليلة ، نقتطفها ملخَّصةً مما جاء في الكتاب نفسه :

« ١ً افتتح المترجم كتابه بقوله : « نبتدىء بعون الله ونكتب الرسالة التي وصلت من الاخ المبارك الخيِّر مار يوسف الراهب الى داود المطران في سنة ١٣٧٠ للاسكندر اليوناني » . فانت ترى انّ هذا العنوان الصريح لا يبرهن ، بل ولا يشير الى ان الراهب يوسف وداود المطران هما سريانيان مارونيَّان(١).

« ٢ً كتب داود المطران الى يوسف الراهب الجواب بقوله (ص٦) : « سألتَ . . . ان انقل لك الكتاب المرسوم بكتاب « الكمال » المنسوب الى الاب القديس من اللغة السريانية الى اللغة العربية . . . فاجبتك الى ذلك » . وكتب (ص ١) : « انما ذكرتُ هذا الكلام لسيدنا الاب القديس جمَّل الله المذهب ببقائه وزيّن الشريعة والعالم

---

(١) راجع ما قلناه بهذا الشأن في الجزء الاول من هذا الكتاب؛ وانظر « الارث الماروني » لحضرة العالمين الاخوين آصاف ، الذي صدر حديثاً ، ص ٢٢٢ – ٢٣٠ ، حيث يستفيضان باثبات « مارونية » الهدى .

ويشفع هذا التصريح بعباراتٍ مسهبة يقول فيها انه تردّد كثيراً قبل الاقدام على الترجمة ، وانه لم تصح عزيمته على الشروع بها الا بعد الاتكال على قدرة الله وشفاعة القديسين وصلوات الرهبان الخ ، مما يبرهن على انه اعار الترجمة اهميةً كبرى ، وعلى انه كان باراً في وعده ، صادقاً في قوله للاب يوسف انه قد شرع بها . واذا صح ذلك ، فاي قيام يبقي لرأي الناقد القائل بان الكتاب انما ترجمه الكفرطابي بعد سنة ١١٢٠ ! ! (ص ٧٩٥) .

« أو هل يعتقد حضرته ان الكفرطابي هو صاحب الجواب على رسالة الاب يوسف ، والكفرطابي ترجم حسب زعمه بعد سنة ١١٢٠ ، بينا ان الرسالة المذكورة كتبت بلا ريب وباعتقاد الجميع حتى ناقدنا الفاضل قبل سنة ١٠٥٨ ؟ ! ولكننا سنعود الى صدد هذا الموضوع .

« فلا عجب اذاً والحالة هذه اذا اجمع على ذلك علماؤنا المشاهير ومؤرخونا المدققون الذين طبقوا الخافقين بسعة علومهم ، وقوة مداركهم ، وكثرة بحثهم العميق الغور ، وقد كانوا ولا يزالون مرجعاً اكيداً لجميع علماء التاريخ ، ونوراً ساطعاً لعلماء الغرب .

٣ً — « ولنتخطَ الآن الى تفنيد زعم حضرة الناقد بنسبة ترجمة الكتاب الى توما الكفرطابي بما يلي ، فنقول :

« قال حضرته (ص ٧٩٣) : « ان الترجمة العربية لم يقم بها المطران داود المذكور (سنة ١٠٥٨) بل مطران آخر هو اسقف كفرطاب (وذلك بعد سنة ١١٢٠) . » وبرهانه لاثبات ذلك هو **اولاً** وجود هذه الفقرة في كتاب الهدى (ص ٣٨) : « ثم المارونية . . . وقد ذكرت خبرها بين الفرقتين الملكية والمارونية وشرحت بيان حالها شرحاً شافياً في الرسالة التي كتبتها الى الاب القديس ارسانيوس

اسقف عين قرة ورسمت برسالة العدل . » **وثانياً** ذكر الخلاف في امر المشيئة والمشيئتين بين الملكية والمارونية الى ان قال (ص ٤٦) : « واحتجت كل طائفة منها فيما ادعته بعدة حجج وقد ذكرناها عن آخرها في الرسالة التي تقدم ذكرها ، الا اني آثرت ان اذكر هنا بعض احتجاجها » .

« اما نحن فانّا لنندهلنّ متعجبين كيف استخرج حضرة ناقدنا النبيه ، من وجود هاتين الفقرتين ، ان الكتاب انما ترجمه الكفرطابي ، بدون ان يعود ، ولو بالتلميح ، الى ذكر ما كتبه في هذا الصدد علماءٌ جهابذة قد اشبعوا هذا الموضوع درساً وتدقيقاً ، وبحثاً وتنقيباً ، وسبروا غوره ، وبلغوا في البحث عنه شوطاً بعيداً جداً .

« اجل ، انّا نستغرب الاستغراب كله من حضرة ناقدنا الحصيف كيف انه لم يطلع على مقالات وكتب هؤلاء الاعلام القيّمة العديدة ، مع انها معروفةٌ لدى القاصي والداني ، وتتداولها الايدي في كل بيئة ؛ فكأنه والحالة هذه لا يقرأ الا بكتابٍ واحد كما اشار علينا ان نعمل . وهكذا جاء يسرد برهانه كأنه اول من استنبطه ، ولم يسبقه اليه احدٌ غيره ، ولا ردّ عليه احدٌ قبل اليوم . ولسنا نعزي اليه عدم التعمق بالموضوع بلا سبب ولا علة ، فهو ذاته قد اقرّ بذلك اذ اتهم علماء الموارنة بانهم قد نقلوا الواحد عن الآخر ، ولم يبلغوا شأوه ولا تروّوا بالموضوع كما فكر وتروّى هو نفسه ! ! !

« أفلم يقرأ حضرته ابن القلاعي ، والحاقلاني ، ونيرون الباني ، والدويهي ، والسمعاني ، والبطريرك بولس مسعد ، والدبس ، ودريان ، والاب بولس قراعلي ، والخوري اسقف منش ، وغيرهم كثيرين ؟ ! فلو قرأ ما كتب وصنف هؤلاء المشاهير الافذاذ لوجد أنهم قد

« أفهذه هي اذاً كل قوة هذا البرهان الذي بواسطته اعتقد السمراني بانه هزم مشاهير الكتبة الذين ارتأوا ان المؤلف هو غير المطران داود ؟ فيا ليته طالع وامعن النظر في تلك الفقرة من كتاب داود الى يوسف التي بها يستصغر نفسه امام عمل الترجمة الخطير ويعتبر ذاته غير كفوءٍ لها ، وما اقدم عليها إلا بعد الثقة بالله ومعونة قديسيه . اجل لو انه طالعها ملياً لما تجرأ على زعم ما قد زعمه ، واستخراج ما استخرجه مما لا ينطبق على الحقيقة في شيءٍ ، ولا راح يرجمنا بما قد رجم .

« ولنا **براهين اخرى كثيرة قاطعة** تصرح بان الكتاب لم يكن من تأليف المطران داود ، كما يدعي الناقد ، بل من وضع الاب القديس الذي هو ، كما يقدّر بصواب ، احد روساء تلك الكنيسة التي كتب لها المصنف الشهير او احد ابنائها الافاضل الاتقياء .

« **من هذه البراهين او الادلة ما ياتي ، اولاً** : ان القس يوسف قد كتب الى المطران داود يسأله ترجمة الكتاب بقوله (ص ٣) : « اني قد سألت الاب الطاهر ايده الله عدة مرارٍ ان يفسر لي الكتاب المنسوب في الاب القديس وينقله من اللغة السريانية الى اللغة العربية ويشرحه لي شرحاً مبيناً شافياً ويبين ما فيه من التحريم والتحليل والنهي عنه والمندوب اليه ... وليس يجوز في الديانة ان يمنع الطالب لمثل هذا الحال ... » ولقد اجاب المطران داود على هذه الفقرة من رسالة الاب يوسف اذ قال (ص ٤) : « وصلتني رسالتك ايها الاخ الروحاني اسبغ الله نعمته على نفسك ... وفهمت غرضك المقصود في منفعة الاخوة المباركين وقبلتها بفرحة عظيمة .. سألت ارشدك الله وايانا الى طاعته والهمنا واياك العمل الجيد بمرضاته ان انقـــل لك الكتاب المرسوم بكتاب الكمال المنسوب الى الاب القديس من اللغة السريانية الى اللغة العربيه (وان) اشرح جميع ما فيه من الفصول

والعلل ... فاجبتك الى ذلك وابتدي باسم الله عز وجل ... » الى ان قال ايضاً (ص ١٣) : « فتأملت الكتب المرسومة بكتاب «الكمال» المنسوب الى الاب القديس ... المشتمل على عامة علوم الدين ... ثم نقلت الجميع منه من لسان السرياني الى لسان العربي ... »

« واذا صح أَنَّ رسالة القس يوسف موجهة الى المطران داود ، وانَّ الجواب الذي يليها في كتاب الهدى هو جواب هذا المطران عليها ، (ولا نخال ذلك إلا صحيحاً كما حققناه سابقاً) ، فقد ثبت اذاً ثبوتاً لا مردّ له من هذه الفقرات الثلاث ان المترجم هو المطران داود لا غيره ، وسقط لذا ادعاء الاب السمراني الذى سمّى رأينا هذا ادعاءً لم يبق له قيام (ص ٧٩٥) . »

« **ثانياً** : ان المطران داود قد اعتذر عن تأخير الجواب بقوله (ص ٥) : « والذي دعاني الى تأخير الجواب عنك الى وقتنا هذا هو اني قد نظرت الى انحطاط منزلتي ، وصغر قدر نفسي عندي ، وفساد ذاتي ، فخرجت على ان اتناول صناعة لست انا لها باهلٍ ، وخشيت ان ينحط قدر جوهر الكلام الالهي اللذيذ الذي سألت في نظمه من سوء صناعة فكري فاكون بمنزلة من تعرّض لخدمة الملك العظيم القدرة وهو ذميم حقير . . . » فيتضح من هذا الكلام ان الاسقف داود لم يكن مؤلف الكتاب بل مترجمه ، لانه لو كان من وضعه لما قال عن الترجمة انها صناعة ليس هو اهلًا لها ، ولا خاف ان ينحط قدر جوهر كلام الكتاب اذا نظمه من سوء صناعة فكره ، ولا راح يستصعبها ويستصغر نفسه امامها الخ .

« ثم اننا نلفت نظر القارىء الكريم الى ان المجيب اي المطران داود كما اثبتنا ، يصرح جلياً بانه قد ابتدأ بترجمة كتاب الهدى ،

« ولكن حضرة ناقدنا يقول : « ان جواب الرسالة التي بعث بها الاب يوسف الى الاسقف داود خالٍ من الامضاء ، وبالتالي فقد تكون له وقد تكون لسواه (ص ٧٩٥) » .

« فنردّ عليه قائلين : الحقيقة هي ان كتاب الهدى في كل مخطوطاته يبتدىء بهذه العبارة المذكورة آنفاً وهي : « نبتدي بعون الله ونكتب الرسالة التي وصلت من الاخ الخير مـــار يوسف الراهب الى داود المطران سنة ١٠٥٨ مسيحية » . ثم تأتي رسالة القس يوسف هذا الى المطران داود ، بدون توقيع ، وبعدها ترى هذا العنوان الموما اليه : « ردّ جواب الرسالة » ، وتحته الجواب على رسالة القس يوسف بتفصيل واسهاب ، اذ فيه يذكر كاتبه هذا كل ما ورد في هذه الرسالة ، ويجيب عليه بنداً بنداً ، بتفصيل واستفاضة ، وهذا الجواب بلا امضاء ايضاً كالرسالة . غير ان العبارة التي في بدء كتاب الهدى المذكورة ، والعنوان المصدر به الجواب على رسالة القس يوسف ، يدلان كفاية على ان كاتب الجواب هو نفس الشخص الذي وجِّهت اليه رسالة القس يوسف اي المطران داود . ومن البديهي ان المجيب هو المطران داود ، خلافاً لرأي الاب السمراني ، لان الجميع يسلمون ، حتى ناقدنا الفاضل ، بأن رسالة الاب يوسف موجهة اليه ، فلا يعقل والحالة هذه ان يجيب عليها غيره .

« فمما ذكرنا يبان جلياً لكل من كان منزهاً عن الاغراض والمآرب الشخصية ان القس يوسف قد سمى المطران داود **اولاً** في رسالته اليه « الاب القديس » (ص ١) ؛ وذلك لان الاقدمين كانوا يلقّبون كل اسقف تقيٍ او كاهنٍ ورع فاضلٍ « بالاب القديس » . وقد جاء مصداقاً على ذلك ما ورد في كتاب الهدى نفسه (ص ٣٨) اذ كتب صاحب رسالة العدل الى اسقف العاقوره ولقبه « بالاب القديس »

بقوله : « قد ذكرت خبرها وشرحت بيان حالها في الرسالة التي كتبتها الى « الاب القديس » ارسانيوس اسقف عين قرة او العاقوره . » غير ان الاب يوسف المذكور قد عاد **ثانياً** (ص ٣) فسمى المطران داود « بالاب الطاهر » مميزاً اياه عن الاب القديس مؤلف الكتاب تمييزاً صريحاً ؛ لانه في العبارة المتقدم ذكرها : « اني قد سألت « الاب الطاهر » ان يفسر لي الكتاب المنسوب الى « الاب القديس ... » : قد نسب الكتاب الى « الاب القديس » الذي هو شخص آخر غير « الاب الطاهر » ونسب الترجمة الى « الاب الطاهر » اعني المطران داود .

« وقد راجع المطران داود ، في الجواب على رسالة الاب يوسف، العبارة ذاتها ، اذ قال (ص ١٣) : سألت ارشدك الله الى ان انقل لك الكتاب ... المنسوب الى الاب القديس » ؛ فلا يعقل والحالة هذه ان يقول المطران داود هذا الكلام عن نفسه ؛ بل ان هذا القول : « الاب القديس » يعني اسقفاً آخر تقياً فاضلاً او رئيساً ورعاً جليلاً كما يعتقد جميع علمائنا الافذاذ ؛ وقد استغنى عن ذكر اسمه بوصفه « بالاب القديس » لزيادة شهرته وتقاه ، وغزارة علمه ومداركه الواسعة، كما يثبت سيادة الدبس ودريان في مصنفاتهما المشهورة ، (راجع المقدمة ص ج) . فكيف اذاً يقيم الاب السمراني من هذا اللقب برهاناً على ان داود هو المؤلف ؟ !

« اما كون القس يوسف قد التجأ الى المطران داود والحّ عليه بترجمة « الكتاب » بدون تعيين اسمه لافتراضه اياه معروفاً لديه ، فذلك لانه كان قد سأله ترجمة الكتاب المنسوب الى الاب القديس مراراً كثيرة ، كما يقول هو عن نفسه (ص ٣) : « وسبب هذه المخاطبة اني قد سألت الاب الطاهر ايده الله عدة مرار ان يفسر لي الكتاب المنسوب في الاب القديس وينقله ... » فمن ثم كان الكتاب معروفاً لدى المطران داود حق المعرفة ، وكان الكاتب في غنى عن ذكر اسمه له .

هناك من رؤساءٍ وآباءٍ فضلاء وعلماءٍ معروفين ومجلات مشهورة ، قد اطنبوا بمدح ناشر الكتاب واثنوا على جهوده واعماله التي أتاها خدمة للعلم والتاريخ ، واحياءً لذكر مآثر طائفتنا المارونية العزيزة ، واني اضرب صفحاً عن نشر رسالاتهم الجليلة في هذا الصدد ومقالاتهم القيمة ، واكتفي بالاشارة اليهم فقط دفعاً لكل مديح وثناء .

« وهنا لا يسعني السكوت عما ابداه حضرة ناقدنا الفاضل اذ قال (ص ٨٠١) : « نودّ لو انه انتظر في نسخ هذا الكتاب حتى تكثر لديه الشواهد التاريخية . . . » فهل نسي حضرته ما كتبه في مجلته اول السنة الماضية (ص ٤) حيث قال : « وسنعمد الى نشر الآثار المارونية ككتاب الهدى الماروني ووو ؟ . »

« اننا يا حضرة الناقد لم نقصد من نشر الهدى إلا خدمة العلم والتاريخ ، واحياءَ الآثار المارونية الشريفة كما اسلفنا . وعليه لما كنت حضرتك قد كتبت كلمتك هذه (المشهورة) في بدء السنة الماضية كنا نحن حينذاك قد انجزنا طبع الكتاب وعمدنا الى توزيعه ، ولذا لم نعد نستطيع تركه ، وإلا لكنا احجمنا عن عملنا هذا وصرفنا جهودنا الى امرٍ آخر ، تاركين ما كنا قد ضحَّينا به من الوقت في البحث والتنقيب ، وما كنا تكبدناه من النفقات الباهظة . ولكن كيف يليق بك ان تشير علينا بالتريث والانتظار ، وتتمنى لو تأخرنا بعد ما كنت اعلنت في المنارة عزمك على نشر كتاب الهدى ؟ !

٢ً — « والآن بعدما اسهبتُ الشرح في محتويات المقدمة رداً على قول ناقدنا النزيه ، استطرد الى تفنيد رأيه الخاص **اولاً** في مؤلف الكتاب **وثانياً** في مترجمه ، فنقول :

« قال الناقد (ص ٧٩٢) : « ان مؤلف كتاب الهدى هو المطران

داود ؛ وبرهانه على ذلك هو اولاً ان الاب يوسف التجأ الى المطران داود والحّ عليه بترجمة « الكتاب » المنسوب الى الاب القديس من السريانية الى العربية بدون ان يعين له اسم هذا الكتاب بل يفترضه معروفاً عنده . فلو لم يكن الكتاب من تأليف المطران داود لما امكنه ان يعرف اي كتاب يطلب القس يوسف ترجمته ؛ وثانياً ان الاب يوسف يلقب المطران داود « بالاب القديس » والمترجم (ص١٣) يلقب المؤلف « بالاب القديس » ، ومن ثم يستنتج ان المؤلف هو المطران داود » .

« فنجيبه بما يأتي : ان كتاب الهدى مصدَّر برسالتين كما هو معلوم : الواحدة من القس يوسف الى المطران داود وهذا عنوانها : « نكتب الرسالة التي وصلت من الاخ الخيّر مـــار يوسف القس الى داود المطران سنة ١٠٥٨ » ؛ والثانية جوابها ، وهذا عنوانه : « ردّ جواب الرسالة » . ففي الرسالة الاولى يقول القس يوسف مخاطباً المطران داود (ص ٣) : اني سألت الاب الطاهر ايده الله ... عدة مرار ان يفسر لي الكتاب المنسوب في الاب القديس وينقله من اللغة السريانية الى اللغة العربية ... » . « فالاب الطاهر » هو المطران داود الموجهة اليه رسالة الاب يوسف ؛ « والاب القديس » هو مؤلف الكتاب وهو غير المطران داود المذكور . والدليل على ذلك : **اولاً** ان هذه الحقيقة تتضح لكل من قرأ العباره المتقدم ذكرها بتجردٍ ونزاهة ؛ **ثانياً** ان المطران داود يقول في الجواب ما نصه : « سألت ارشدك الله . . . ان انقل لك الكتاب الموسوم بكتاب الكمال المنسوب الى الاب القديس من اللغـــة السريانية الى اللغة العربية ... » . فمن هذا يستدل جلياً على ان المطران داود صاحب هذا الجواب هو غـير المؤلف ، اذ لا يعقل ان يلقب نفسه « بالاب القديس » .

كثيراً في البحث والتفتيش عن كل نسخة حفظت لحد الآن ... كان
يمكن تخفيفه لان تلك النسخ ذكرها ديب وعيَّن مواضعها كما اسلفنا
القول ... فما كان عليه اذاً سوى الذهاب الى تلك المكاتب وطلب
نمرة المخطوط ومقابلته مع غيره ... » (كذا).

« لقد صدق ناقدنا بأن حضرة العالم الخوري اسقف ديب قد ذكر
مخطوطات الهدى المشهورة ؛ ولكن هل فاته ان الخوري اسقف ديب
لم يكتشف تلك المخطوطات بل سبقه كثيرون الى ذكرها ؟ فحريٌّ
اذاً بكل باحثٍ ان يتعب بالتفتيش عن مؤلفاتهم المكتوبة بلغاتٍ
مختلفة ويطالعها برويةٍ وتؤدة ، ويجدر به ان لا يقتصر على واحد فقط
منها... » . وقد تبين لي في التعب والتنقيب ان لا احد من علمائنا او
من علماء الافرنج قد عدّد كل هذه الفصول الكثيرة في مخطوط ابن
العسال المأخوذة عن كتاب الهدى ، او عارضها في مخطوطات الكتابين
بدقةٍ وامعان ، وابان فروقها العديدة والجوهرية معاً . وعليه ، انني
لأعجب ان يقدم من ينحي عليَّ باللائمة لاني بحثت وتحرَّيت ولم
اكتفِ بكتابٍ واحد ، او لاني لم أومن بنتيجة مباحث غيري كأنها
عقيدة منزلة .

« اخيراً انتقل الناشر (ص م) الى دحض ما ورد في كتاب
آداب اللغة السريانية المذكور للعلامة بومسترك ؛ وهو انه يوجد نسخة
اخرى من كتاب الهدى في المكتبة الواتيكانية تحت رقم ٢١٩ من
القسم السرياني ؛ ففنَّد غلطه الفاضح ، وأبان ان هذه النسخة انما تحوي
كتاب علم اللاهوت للاب العالم بطرس زيتون ، ولا ذكر فيها
لكتاب الهدى اصلاً . ثم تابع كلامه عن المخطوطات ؛ واذ بدأ يتكلم
عن مخطوط باريس ، ذكر الناشر المواضع التي جاء فيها ما يضاد الامانة
الكاثوليكية حسبما أشار الى ذلك العلامة الدويهي اسقف البترون

بحاشية كتبت بخط يده في بدء المخطوط ذاته ، وبعدئذٍ دلّ على المواضع المذكورة كاتباً ارقام الصفحات التي وقعت فيها في النسخة المطبوعة ، وهكذا تابع قوله عن المخطوطات وعن محتوياتها وكل خصائصها الى الاخير .

« فينتج مما تقدم ان الناشر قد تكلم عن امورٍ كثيرة هامةٍ في المقدمة وكلها مفيدةٌ وضرورية ، وليس كما قال حضرة الناقد النزيه : « ان الناشر لم يبحث الا عن المترجم وهذا لا يفيد شيئاً ، ولم يذكر الا المخطوطات وكلها اوضحها الخوري اسقف بطرس ديب » .

« وينتج ايضاً ان ما تكلم عنه الناشر كافٍ وضافٍ نظراً لغايته الاولية من نشر الكتاب، وهي ان يقدّمه للباحثين الألى تحول مصاعب جمةٌ دون وصولهم اليه ليتسنى لهم درسه بنصه المتضمن في جميع مخطوطاته المحفوظة الى اليوم في مكاتب أوروبا .

« وقد فهم كنه هذه الغاية التي توخاها الناشر وعقد العزم والعزيمة على الاستفادة من نشر الكتاب سيادة المطران يوحنا الحاج كما أبان في رسالته الى الناشر ، اذ قال : « وقد تركتم بعملكم هذا ذكراً جميلاً لكم وللرهبانية الحلبية العزيزة التي تنتمون اليها ، واديتم خدمةً جليلة خاصةً لطائفتنا المارونية بنشركم هذا الاثر المطوي في ظلمات المكاتب ، وهو لا شك من آثار علمائها وصفحةً من اقدم واجمل صفحات تاريخها المجيد على ما سنبينه في درسنا هذه المخطوطات درساً انتقادياً إن وفّق الله . »

« وقد قدّر هذه الطبعة حق قدرها غبطة السيد البطريرك ماري انطون بطرس عريضه المفدى وجميع ساداتنا المطارين الذين اتحفوا الناشر بكاتيب لحمتها الشكر وسداها الثناء والاستحسان ؛ ناهيك بما

وعن مخطوطاته « وقـــد اوضحها كلها الخوري اسقف بطرس ديب »
كما ذكر حضرته ؛ بل بالعكس فانه يقول متأكداً : بالحقيقة ان
الناشر قد درس ، وبحث ، وتكلم عن امور كثيرة واشياء متنوعة
ولازمة في المقدمة ، وقد قدّم لنا نشرةً كاملة بجميع نصوص مخطوطاتها ،
حاويةً فروق كل نسخة من هذا الكتاب مـع الفروق الكثيرة
والجوهرية معاً الواقعة في مخطوط ابن العسال القبطي الذي عاش في
القرن الثالث عشر ، كافيةً بمصادرها العديدة الغربية والشرقية التي جاء
فيها كلام كثير خطير عن هذا الدستور ، مسهّلةً الطريق لكل راغب
في درس هذا الكتاب درساً انتقادياً منزهاً ، والبحث عن مواضيعه
بحثاً علمياً ، بعدما كان بُعد المكان وسعة الشقة تصدّ معظمهم عن
الوصول اليه ومطالعته والاستفادة منه . وهاك الآن بتفصيل المواضيع
التي بحث عنها الناشر في مقدمتيه بحثاً تاريخياً علمياً منزهاً :

١ً — « ان الناشر بعد ان ذكر النسق الذى تعمده ، والغاية التي توخاها
من طبع الكتاب ، والتنبيهات التي لا يستغني عنها مَن اراد مطالعة
الهدى ، تخطّى الى ذكر المؤلف ورأي علمائنا الاعلام فيه ، ثم أثبت
من هو المترجم وعدّد صفاته العالية في العلم والكتابة التي اهلته لهذا
العمل الخطير في هاتيك الايام الحالكة الظلام . وذلك بعد ان اتى
برأي العلامة الالماني بومسترك والمؤرخ الافرنسي ديفـال ، ودحض
معتقدهما اولاً بدليل ما جاء في الرسالتين المصدر بهما كتاب الهدى ،
كما انه سيدحض ايضاً زعم الناقد في هذا الصدد ؛ وثانياً باجماع آراء
مؤرخي الموارنة المشاهير وعلمائهم الافذاذ الباحثين .

« ثم استطرد الى ذكر المآخذ الاكيدة العديدة التي استقى منها
وعليها اعتمد في مقدمتيه ، كالمكتبة الشرقية الشهيرة لعلامة العلماء
السمعاني ، وفهرست مخطوطاته القديمة الشرقية ، ومقالة سعيد بن نيرون

الباني اللاتينية ، ومصنفات العلامة الدويهي ، وتاريخ سوريا وروح الردود للمطران يوسف الدبس ، ولباب البراهين الجلية للمطران يوسف دريان، وكتاب العالم الالماني ريدل في تاريخ بطاركة القسطنطينية ، وكتاب الشرق المسيحي للبحاثة الالماني بومسترك ، وآداب اللغة السريانية للعالم الافرنسي ديفال ، وكتاب مجموع المستندات المارونية للآباتي طوبيا العنيسي ؛ الى غير ذلك من مؤلفات علماء كثيرين ممن خاضوا عباب هذا الموضوع ووضعوا فيه مقالات قيّمة وكتباً معروفة .

« وبعد ذلك اخذ الناشر يسرد المخطوطات واحداً تلو الاخر ، ويتكلم عن محتويات كل واحد منها ، وعما زاد فيه ونقص منه ، وعن لغة كل مخطوط وعن بعض التحريف او التصحيف الذي طرأ عليه فخدش الفاظه وشوه معانيه .

« ولما بدأ بالكلام عن مخطوط ابن العسال المذكور الواقع تحت رقم ٤١ من المكتبة الواتيكانية ، عدّد الناشر الفصول الكثيرة التي أُخذت عن كتاب الهدى ، وعارضها بكتاب الهدى ، ووضع فروقها الجوهرية المفيدة في حواشي الكتاب ؛ ثم ذكر ما ينيف عن السبعة عشر مخطوطاً من نسخ هذا تأليف ابن العسال الذي هو دستور طائفة الاقباط ؛ وهذه الفصول العديدة المأخوذة من كتاب الهدى هي ذات اهمية كبرى لما فيها من فروق جوهرية تولي الكلام وضوحاً في اغلب الاحيان ، ولم يذكرها احد من الموارنة ولا من غيرهم ولم يأتِ على ذكرها ايضاً المؤلف الذي قال عنه حضرة ناقدنا النزيه (ص ٧٩٩) انه « قد ذكر كل مخطوطاته وعدّد كل المكاتب الموجودة فيها مع كل ارقام اعدادها » ؛ فجعل مقدمة الناشر على زعمه (الناقد) غير مفيدةٍ لشيء . »

« ثم تابع الاب السمراني كلامه قائلاً : « وعليه فتعب الناشر

الكفر يفرّق من يأخذون بهِ ... إن مَن يتبع التعليم الرسولي يحفظ الايمان ... [١] » والسلام .

ذيل

يتضمَّن بعض ما طبع حول كتاب الهدى ، يومَ نشرناه بالطبع لأول مرةٍ ، من المناظرات الكتابية ، ننقل منها هنا أولاً الردّ المسهب الذي كتبناه في مجلة « الشهباء » الغراء سنة ١٩٣٦ في عددها الحادي عشر نظراً لِما يُلقي من الاضواء الساطعة على مسألة مؤلف الهدى ومترجمه وزمان تأليفه التي نحن بصددها ؛ وكنت وقتئذٍ تلميذاً بعدُ في كلية مار يوحنا لاتران البابوية في رومية الخالدة . وهاك ايها القارئ نص المقال بحرفيته للاطلاع عليه :

☆ ☆ ☆

---

(١) طالع المجامع ، مج ١١ ، ص ٣٣٠–٣٣٧ ؛ ونفس المصادر المذكورة اعلاه .

« كتاب الهدى »

رد على مقال حضرة الاب فيليب السمراني المرسل اللبناني

بقلم الاخ بطرس فهد الراهب الحلبي اللبناني

« جاء في مجلة المنارة في عددها الاخير لسنة ١٩٣٥ ، بعد نشر « كتاب الهدى » بوقتٍ طويل ، كلمة تقريظ وانتقاد لحضرة الاب الجليل فيليب السمراني المرسل اللبناني ، تدل على ما انطوى عليه حضرته من الاخلاق العالية الشريفة، والمزايا النبيلة الكريمة، وهي التي سكبت من الذهب المصفى وعُصرت من قطر المزن .

« قال حضرته في تقريظ الكتاب « الهدى » ما يلي (ص ٧٩٩) : « نشر الاخ بطرس فهد كتاب الهدى ... وصدّر الكتاب بمقدمة أبان فيها النسق الذي اتبعه مع كلمة عن المترجم ، وهي لا تفيد شيئاً ، وكلمة عن المخطوطات وكلها اوضحها الخوري اسقف بطرس ديب . هذا جلّ ما جاء في المقدمة ... »

« ولكن هل قرأ علامتنا المقدمة العربية من ألفها الى يائها ، وهي تتجاوز العشرين صفحةً ، قراءَة الناقد النزيه ام نظر الى عناوينها فقط واصدر فيها هذا الحكم الصارم ؟ !

« لا ريب بان كل من درس المقدمة المصدر بها كتاب الهدى ، وهي تنيف على العشرين صفحةً من الصفحات الكبيرة ، ينذهل متعجباً من قول ناقدنا الكبير ، ويتحقق يقيناً بان الناشر لم يذكر فيها فقط النسق العلمي الذي تتبعه في نشر دستورٍ نفيس ظلّ متروكاً طيلة عشرة قرون ، ولم يتكلم فقط عن المترجم « كلاماً لا يفيد شيئاً »

الجدود ، وكانوا حينئذٍ قد رفعوا عريضةً طويلة الى البابا المشار اليه يخبرونه بما حدث لهم ولاخوتهم، ويقولون : « من المؤكد ان المسيح الهنا قد اقامك لتكون رأس الرعاة ومعلم الانفس وطبيبها ، ولذلك وجب علينا ان نصف لك المشقات التي اصابتنا ، ونعرّفك بالذئاب الخاطفة التي نهشت قطيع المسيح بلا رحمة حتى تخرجها من بين الخراف بما لك من سلطان ... ولا بدَّ ان يكون قد بلغك خبر المبتدعَين اللذَين فغرا فاههما علينا ، نعني بهما ساويروس وبطرس القصّار المارقين من حزب المسيحيين . فانهما كل يوم يطعنان جهاراً بالحرم المجمع الخلقيدوني ، وأبانا القديس لاوون البار ، ويحتقران القوانين الموقرة التي سنَّها الآباء الاطهار ، كما أنهما يمنعان بقوة السيف رسامةَ الاساقفة ، وقد طلبا منا ، مهددَين بالعذاب والعقاب ، ان نرذل هذا المجمع المقدس ، فقضى بعضنا من شدة ما احتملوا ، وهلك كثيرون ... لقد كنا سائرين في الطريق الى دير القديس سمعان لقضاء مصالح الكنيسة ، فباغتنا الكمينُ وقتلَ منا ٣٥٠ راهباً ، والذين لاذوا بالكنائس والمذابح ذبحوهم فيها ، واضرموا النار بالاديرة ، محرقين ما وقفه المؤمنون للكنائس » (١) .

اما الرسالة البابوية النفيسة ، فهذه مقاطع منها نسجّلها بفخر واعتزاز :

« بعد مطالعة رسالة محبتكم ... باركتُ الله الذي حفظ ايمان جنوده في وسط الاعداء ، وعندما تأملت اضطرابات الكنائس ومشقات خدام الله ومتاعبهم ، تنهّدتُ مع النبي صارخاً : قم يا رب واحكم في دعواك ... ان ضيق الكنيسة هذا ليس بجديدٍ ايها الاخوة . انها

---

(١) راجع مجموعة المجامع ، مج ١٠ ، ص ٦٨٠ (من الطبعة الملكية) ؛ والعلامة الدويهي ، ص ٤١ — ٤٢ (طبعة الشرتوني) ؛ والسمراني ، ص ١٨ — ١٩ من تاريخه المذكور .

تزداد رفعةً كلما زادوا في احتقارها ، كما تزداد غِنىً عندما يعملون على زيادة فقرها . اننا نخسر الامور الزائلة ، ولكننا نربح الابدية. ان الاضطهاد يفتح باب الامتحانِ ، والامتحان طريق المجد . ان عذوبة الفضيلة تحلّي مرارة الشدائد . كونوا يا احبائي ، ثابتين بالايمان باعتقادٍ راسخٍ ، فتربحوا ثناء الصبر الذي بـه الخلاص . لن يطول الشقاء ، لان الذي دعانا هو مجازٍ امين ، ومساعد قدير . لا ننخدع برجاء المرغوبات ، ولا المغريات ، ولا نفضّل الامور السهلة على الدنيوية ، لان ربنا لم يعدنا بالامور اللطيفة ولا بالمغرية . إنه وعد بالمكافأة ، لا بالراحة ، لان الثناء والكسل لا يجتمعان . فاي سبيل للمكافأة اذا لم يكن هناك جهد للفضيلة ? ضيّق هو الباب ، ولكنّ الملكوت فسيح ، ودخوله محفوظ للقليلين ، وهؤلاء هم الصالحون ... وحتى لا نتشكى احياناً فنخسر نفوسنا بعدم صبرنا ، حمل ربنا العلم الاول للصبر ، حمل الصليب مقدماً بمثلهِ مثالاً لأولئك الذين عليه ان يساعدهم ، فهو يحمل كفة الميزان بين الفضائل والاتعاب ، واقفاً بوجه سموم الثائرين ، حتى يقدّم اكاليل الملكوت الابدي بحسب شدة الاضطهاد ...

« انه لمن المفرح لنا ان نتكلم ، ونحرض عـلى السير في الطريق المستقيم أولئك الذين لا يقاومونه ؛ فان بين يدينا صكّ ايمانكم الحقيقي، اي الاعتراف بالايمان بمقتضى رسالتكم ، وبه تنفصلون عن فساد المخالفين . . .

« فسيروا ايها الاحباء بخطوات ثابتة في طريق الآبـــاء التي اعتصمتم بها ، فان رحمة الله قادرة على ان تحسب اجراً لكم رجوع الآخرين الذين وجهتموهم الى الصراط المستقيم ... فانه لا شركة بين الظلمة والنور ، ولا السالكون في الطريق القويم يقرنون خطواتهم مع ضلال الخارجين ... ان الفضائل تحبّ الاجتماع مع بعضها ، كما ان

كيلو متراً مربعاً) ، ويعادل سكانه (١٣٠٤٠٠٠) ما يوازي عدد سكان ثلاث مقاطعات . اضف الى ذلك عدد الاجانب المقيمين على الارض اللبنانية والذين لم نأت على ذكرهم في الارقام الآنفة . يختلف هذا البلد الفتى اختلافاً جوهرياً عن سائر البلدان ، انـه بلد موحد ، ومتعدد ، فتي ، وقديم ، يتصل بآسيا ، ويرتبط باوروبا ، انه نقطة التقاء ، على صعيده يلتقي الشرق بالغرب ، ويجاور الاسلام المسيحية ، ويعايش المنفصلون الكاثوليك .

« مركز لبنان مركز فريد في جغرافية العالم . ان ما يتحلى به لبنان من ميزات تجعل منه بشكله الحاضر **بلداً ضرورياً للعالم ، وتشعر**

انتهى اليها سيده الجنرال سارايل ، ولا الختام المفجع الذي رافق نهايـة حكم الكونت داميان دي مارتيل .

« لقد زال المتجبرون ورحلوا وبقيت البطريركية المارونية ومطارنتها والاكليروس في نظرياتهم الصريحة الصلبة دفاعاً عن وجود لبنان وكيانه وحق رجال الدين كسائر ابنائهم اللبنانيين في السهر على مقدراته . «الدنيا تزول وحرف من الناموس لا يزول .»

« نعدد هذه الحقائق لتذكير بعض الذين اصيبوا بضعف الذاكرة في هذه الايام ، فهبوا من كل صوب ينكرون على المطران ان يتدخل بالسياسة او ان يتكلم ، بحجة ان النواب هم الذين يمثلون طوائفهم وان على رجـال الدين ان يصمتوا حتى وان رأوا رعيتهم ووطنهم في خطر والمشاريع المخربة المادية تحدق به من كل جانب .

« ونحن نقول لقصيري النظر واهل التعصب والعاملين مع كل سياسة الا مـع سياسة وطنهم اللبناني الذي يعيشون من خـبزه ويحتمون بعلمه المقدس ، ان لبنان وسيادته واستقلاله حقائق خالدة لا يزيلها الا زوال هذه الجبال . . . وان لبنان الصامد على الدهر سيبقى وطناً حرًا رحباً لجميع أبنائه — وفي طليعتهم رجال الاكليروس — عـلى اختلاف درجاتهم .

« وللمطران والراهب ان يقول ما يشاء ، وهو كالنائب وسائر اللبنانيـين يتمتع بكامـل حقه السياسي وله الحق في ان ينتخب نائباً اذا شاء شعبه ان يرفعه الى كرسي الوكالة عنه . . . »

بهذه **الضرورة في هذه الايام اكثر من كل وقت** . لقد حفظ الله لبنان على ممر العصور ، دعاه للقيام باعباء رسالة صعبة ، انتدبه ليكون مقياس التوازن بين ندائين : اليه يترامى نداء الصحراء العربية ، ومن شواطئه يتصاعد صوت البحر اللاتيني . يد العناية الربانية تحفظ لبنان، فهي التي اوجدته على هذه الحال ، وحبته مؤهلات الوساطة . احب الله لبنان ، ومن دوافع محبته تلك الحركة الجارفة : منذ ثلاث سنين وانظار العالم تتجه الى لبنان ، وتشرئب الى قبر حبيس قديس نسك ومات برائحة القداسة ، توفاه الله في ليل الميلاد من عام ١٨٩٨ فكرم مثواه في دير مار مارون عنايا ، وقاوم عوامل الفساد جثمان الاب شربل ولبث في ضريحه يستريح استراحة الرقـاد : في جوار عبدالله يبرأ المرضى ، ويتوب الخطأة ، وفي ظل رجل قديس تطيب للشعوب التقوى ويعتز الايمان ... » (انتهى المقال) .

والآن ، وقد بلغنا بعونه تعالى النهاية المنشودة ، يشرّفنا ان نختم هذه النبذة التاريخية بتلك الرسالة الثمينة التي وجّهها ، سنة ٥١٧ ، قداسة البابا هرمزدا ، راس الكنيسة الجامعة ، ومالك كرسي بطرس العظيم ، وبطرك المسكونة باسرها ، الى البقية الباقية من ابناء مارون الابرار الذين نجوا بشفاعته من اضطهـــادٍ اثيم اثاره عليهم بطريرك انطاكية الدخيل ، ساويروس ، انتقاماً منهم ، لانهم كانوا يدافعون عن المجمع الخلقيدوني كما رأينا ، وعن تعاليمه القويمة ، ومبادئه السليمة المقدسة .

وقد كانت هذه الرسالة الكريمة رداً معزياً ومشجعاً للرهبان الموارنة الذين نجوا من الموت الذريع ، ولم ينجوا من هذا السجن الذي انزله بهم ساويروس يومَ قتلَ منهم ثلاثمائـة وخمسين شهيداً ، لتعلقهم الوثيق بكرسي رومية ، ومحاربتهم البدع ، ومحافظتهم على ايمان

اما المسيحيون فيبلغ عددهم ٧٠٠٠٠٠ ، لا يتعدى عدد الكاثوليك منهم ٤٨٥٠٠٠ ، فيصيب الطائفة المارونية من هذا العدد ٣٧٧ الفاً .

« ويتبين من خلال هذه الارقام ما تتمتع به البطريركية المارونية من نفوذ واسع ، كانت الانظار في ازمة سنة ١٩٤٥ تتجه الى بكركي ، فاصبح بفضل التفوق العددي الصرح البطريركي محجة الجميع . لقد ابتلعت المهاجر عدداً لا يستهان به بالنسبة الى لبنان ، ويجدر بنا ان لا ننسى ان عدد الذين احتفظوا بالاصل اللبناني واختاروا الجنسية اللبنانية يبلغون ١٨٠ الفاً ، ولا تقل نسبة المسيحيين فيهم عن الاربعة اخماس .

« ففي هذه اللمحة التاريخية العجلى ، وعلى ضوء الارقام الواردة ، ما يوقفنا على الوضع الحاضر في لبنان وعلى التوزيع الطائفي : يتألف هذا البلد الصغير من اقليات طائفية متضامنة ، ولولا هذا التضامن والتساهل لما امكن العيش في بلد تعددت طوائفه وتوازن سكانه . ففي ظل تشريع عادل يحترم حقوق كل طائفة بمفردها يقيم اللبنانيون على مودة واخاء[1] تأمين . . .

« فهذا الوضع الفريد في نوعه هو وضع لبنان . ولبنان بلد صغير ،

---

(١) رداً على القائلين بان ليس للاكليروس الحق في ان يتداخل بشؤون البلاد السياسية ، ولمناسبة الضجة المصطنعة التي اقامها المصطادون في الماء العكر والعابثون بامور الدين ورجاله على الخطاب التاريخي الذي القاه سيادة المفضال المطران اغناطيوس زياده رئيس اساقفة بيروت السامي الشرف والاحترام ، نشرت جريدة البيرق الغراء مقالا افتتاحياً ممتعاً ثبتت فيه للاكليروس هذا الحق المقدس ، وبينت الدور الخطير الذي لعبه البطاركة والاساقفة والرهبان والكهنة في تأسيس لبنان ، والذود عن حياضه ، والمحافظة على استقلاله وسلامة كيانه بدمائهم وبذل التضحيات السخية في هذا السبيل . فرأينا من اللازم مصداقاً لما قررناه في هذا الكتاب ، ان ننشر هنا هذا المقال الهام . قالت الجريدة في عددها الصادر يوم الاثنين الواقع في ٨ آذار الحالي ١٩٥٤ ما حرفيته :

لا تزيد مساحته على مساحة مقاطعتين من المقاطعات الفرنسية (١٠٤٠٠

« لبنان يتمسك باستقلاله التام ويرفض جميع مشاريع الوحدة والاتحاد؛ الاكليروس سيقوم بدوره لانقاذ البلاد »

« منذ ١٤ قرناً ، ومنذ وجد لبنان الحالي على انقاض فينيقيا ، رغم كل ما مر عليه من فتوحات رومانية ، وبيزنطية ، وفارسية ، وعربية ، وكردية ، وتركية ، ومصرية ، وانكشارية ، فان الاكليروس الماروني ينطق باسم هذا الجبل ، والبطريركية المارونية تتكلم باسم هذا الشعب .

« هذه حقيقة واقعية تاريخية سكت عنها معاوية، وخلفاؤه ، والعباسيون ، وسلاطين الاستانة ، وجمال باشا السفاح ديكتاتور البلاد العربية بين ١٩١٤ و ١٩١٨ ، والانتداب الفرنسي ، وسلموا جميعاً بها واقروا بواقعها الملازم لكيان لبنان وتطورات نخضته في مختلف العهود والعصور .

« وكم حاول امراء الاسرتين المعنية والشهابية في القرون الغابرة تجاهل هذه الحقيقة ، ثم لم يلبثوا ان عادوا الى الصواب .

« والمتصرفون حكام الجبل اللبناني – بعد تطبيق نظام البروتوكول الدولي – حاولوا بتحريض من الاستانة ، من عهد داود باشا الى رستم باشا الى مظفر باشا ، ان يتجاهلوا بدورهم تلك السلطة الروحية الزمنية المزدوجة التي منحها الله لبطريرك الموارنة فانهزموا واخفقوا وعادوا الى طرق ابواب بكركي في الوقت المناسب

« اما ابراهيم باشا المصري نجل محمد علي وفاتح الاناضول بمساعدة الرماة اللبنانيين البواسل الذين كان يقودهم الامير امين نجل الامير بشير الكبير ، فقد خرج من الديار الشامية ساعة تنكر للاكليروس وقلب للبطريرك ظهر المجن .

« وكم حاول جمال باشا ان يتقرب من البطريرك الياس الحويك مقابل اعلان تأييده لسياسته الغاشمة ، فجره الى صوفر ثم فرض عليه الاقامة الجبرية في بحمدون اولا وفي كرسي قرنة شهوان ثانية ، دون ان ينال منه وطرا ، فكان ذلك البطريرك القديس يصدر المنشور تلو المنشور في مثل هذا الموسم من صوم عام ١٩١٧ داعيا اللبنانيين الى الصلوات والارتفاع بنفوسهم الى الله وتحمل آلامهم وصايبهم بالصبر المسيحي والاتكال على خالق البرايا .

« وفي العهد الانتدابي مدة خمس وعشرين سنة كاملة ، يذكر اللبنانيون معنا انه كلما حاول احد الحكام او المفوضين السامين التطاول على سلطان الاكليرس الادبي في لبنان ، كان مصيره السقوط والعزل .

« ولم ينس الناس قضية الحاكم العام العلماني ليون كايلا ، ولا النهاية المحزنة التي

في حدوده الطبيعية ، باعادته الى ما كان عليه عهد الامراء : كانت تطالب باعادة طرابلس ، وصور ، وصيدا ، وكان يهمها ان ترى مؤخرة البلاد بيروت تعود اليها وتسقط الحواجز .

« جاء **دور الانتداب الفرنسي** ، فافاد منه اللبنانيون ، وسارعوا الى ضم الاراضي المقتطعة والى ارجاع لبنان الى حدوده الطبيعية ، فرضت استنبول المجاعة على لبنان فرضاً ، فزهقت بين سنة ١٩١٥ و ١٩١٨ ارواح ثلث السكان . لم تكتفِ تركيا بهذه الفاجعة تبيد اللبنانيين عن طريق الجوع والحرمان ، بل تخطت ذلك فاذاقتهم من ضروب العسف والاضطهاد ما جعل خيرة رجالهم يرسفون في قيود الاسر ، ويموتون على اعواد المشانق .

« لم ينته الامر بلبنان الى هذا الحد ، فقد **وجد الخطر يتهدده مرة ثانية عام ١٩١٩** ، واوشكت ان تبتلعه المملكة الهاشمية بفضل تدبير القائد الانكليزي لورنس ، فكان هذا القائد يعمل جاهداً على مد سلطان الامير العربي فيصل ، فتتالت الازمات وذر الخطر قرنه ، فاجمعت كلمة اللبنانيين على اختلاف مذاهبهم واديانهم ، فزودوا البطريرك الياس الحويك ، ذلك الشيخ اللبناني الصميم ، والوجه المشع بالوطنية الصادقة ، بالصلاحيات اللازمة ، وفوضوا اليه حق الكلام باسمهم . ذهب البطريرك الى باريس ، بوصفه صاحب السلطة الادبية الاولى في البلاد ، وحضر مؤتمر السلام ، فطالب المؤتمرين بتقرير استقلال لبنان ، وفصله عن سوريا فصلاً باتاً ، وبارجاع الاراضي المقتطعة كاملة : لقيت مساعيه آذاناً صاغية ، وعاد يحمل بشرى الاستقلال ، فتأبد الفوز بعيد اول ايلول الذي يجدد ذكراه اللبنانيون كل عام . وتنفيذاً لقرار المؤتمر اعلن المفوض السامي الجنرال غورو سنة ١٩٢٠ **لبنان الكبير مستقلاً** في حدوده الطبيعية ؛ ثم بدأ سنة ١٩٢٦ عهد الجمهورية اللبنانية .

« لم يكن الانتداب الا عهداً موقتاً . وكان من البديهي ان تقوم في البلاد سنة ١٩٤٣ — ١٩٤٥ تلك **الحركة الوطنية** فتضع حداً للانتداب الفرنسي . ان اكثر الفرنسيين في فرنسا يجهلون مغزى هذه الحركة ، ولا يعرفون ان يفصلوا بين لبنان وبين ما يجاوره من البلدان ، فيعزون اليه خطأ ما لا يجوز نسبته الى اللبنانيين . عرف اللبنانيون جميل فرنسا فلم يسيئوا ، في احرج الساعات ، الى فرنسي واحد او يعتدوا على كرامة احد ، ولم يقفلوا مدرسة واحدة للفرنسيين ، بل فتحت الاديار ابوابها واسعة بوجه الفرنسيين المطرودين من الداخل ، فأظهر اللبنانيون في هذا الظرف العصيب منتهى العطف والكياسة . يتأثر اللبنانيون بشعور الفرنسيين : لقد وقع نبأ تحرير باريس من نفوسهم موقع البشرى ، بلغهم خبر جلاء الالمان عنها فهزتهم موجة الفرح ، واندفعوا يهزجون ويطربون ، وتنادت اجراس الكنائس في ابراجها تبث الخبر جذلى ، وانتشرت انوار الزينة حتى لتحسب الجبل كتلة من نار ؛ مرت ليال ولبنان يحيي عودة باريس ، من اقصاه الى اقصاه ، ببالغ الفرح والغبطة ، فلم تكف النساء عن الزغاريد ، ولم يتعب القرويون من الرقص ، ولم تخمد للزين نار ورددت الوديان اصداء الاجراس .

« امتدت اطراف لبنان واستندت الى مرتفعات بنتها يد الطبيعة ، **فتمَّ له سنة ١٩٤٦ ما كان يصبو اليه من استقلال وسيادة قومية .** قوي مادياً ، وفقد تجانسه دينيا ، فاختل التوازن الطائفي في بعض مناطقه . ففي عكار وطرابلس يطغى عدد الاسلام السنيين ، وفي البقاع والجنوب يتفوق عدد الشيعيين ، اما بيروت فيكاد يتناصف العدد : مسيحيين ومسلمين . بلغ ، في ٣١ كانون الاول من عام ١٩٥١ ، عدد اللبنانيين المقيمين ١٣٠٤٠٠٠ نسمة : يتوزعون على الشكل الآتي : المسلمون ٥٠٨٠٠٠ (٣٩ ٪) ، يزايد السنّيون الشيعيين قليلاً .

الظروف العصيبة سارت ضمة من الجند بقيادة شيخ زغرتا الفتى **يوسف بك كرم**. ولولا همة هذا القزم العنيد وبأسه لما كان نجا كسروان، ولبنان الشمالي، من ويلات الثورة، ولكانت الفتن عمت فمزقت البلاد شر ممزق. وعلى الرغم من الحذر ومن المبادرة الى استئصال الشر قبل استفحاله فقد كان للثورة، في غير مكان، صولة وويل : ٣٦٠ قرية خربت، و ٥٠ ديراً احرق، و ٥٦٠ كنيسة دمرت. وقضى السيف على عشرين الف رجل.

« رأت **الدول الاوروبية** ان الواجب يحتم عليها التدخل لوضع حد للمشاغبات في لبنان، واخماد نار الفتنة فيه، فارتأت لذلك **فرض تشريع خاص** عهدت الى الدولة التركية في امر تنفيذه. ولكي يبلغ التشريع غرضه، ويستقر الامن، بسطت حمايتها على البلاد، واشترط لذلك تعيين حاكم تركي مسيحي. واقتضت السياسة اقتطاع طرابلس، وصور، وصيدا، والبقاع، وبيروت، وجعلها ولايات عثمانيه، يتدبر شؤونها متصرف مستقل، فنشأ عن هذا التدبير لبنان الصغير، وقد كان من حق هذه البلاد ان لا تبتر منها بيروت عاصمتها الطبيعية.

« وبعد لأي ضاقت هذه الاراضي المصغرة ذرعاً بسكانها، وسدت بوجههم سبل العيش : لا يجرؤون على الهجرة الى السهول الخصبة الخاضعة لسلطان الاتراك، ولم يفكروا بالانتقال الى سهول عكار شمالي طرابلس، ولم يحلو لهم كسب العيش في اراضي البقاع، فحولوا انظارهم الى مصر، **واندفعوا في تيار الهجرة**، بالمئات والالوف. حلوا في وادي النيل على سعة وخير، فساهموا مساهمة فعالة على السير في النهضة صعدا، فاستقام الاقتصاد وانطلقت الثقافة في مدارج الرقي. لم تقتصر الهجرة على القطر المصري بل امتدت ابصارها الى الآفاق البعيدة، وتسارع اللبنانيون الى بلدان اميركا، وابحروا الى شطئان

استراليا وتفرقت جالياتهم في افريقيا السوداء . اتسع مدى الهجرة حتى شملت القرى والدساكر ، واننا **لا نرى اليوم قرية لبنانية لم يغترب نصف او ثلث سكانها** . على ان المغتربين في امريكا ولاسيما اللاتينية منها اتخذوا لهم الجنسية الامريكية وآثرت اغلبيتهم السكنى في هذه البلدان النائية . وقبيل اندلاع نار الحرب العالمية الاولى لم يكن عدد سكان لبنان يزيد على النصف مليون نسمة ، فكان عددهم ٥٢٠ الفا منهم ٤٤٠ الف مسيحي (٨٥ ٪) و ٥٠ الف درزي (٩ ٪) . وعقيب حوادث سنة ١٨٦٠ ، هاجر العديد من الدروز الى منطقة حوران ، في سوريا ، فاطلقوا على هذه المنطقة اسم **جبل الدروز** ، وكان الدافع الى هذه الهجرة خوفهم من ردة الفعل والثأر منهم . وبقي في لبنان سبعة وعشرون الف مسلم (٦ ٪) ، بينهم ١٥ الف مسلم شيعي (متاولة) ، على ان المسيحيين اللبنانيين كانوا يتوزعون الى عدة طوائف : يبلغ **عدد الموارنة** ٣٥٠ الفاً (٨٠ ٪) من مجموع المسيحيين . لا تخلو هذه الارقام من فائدة فانها توقفنا على طابع لبنان المسيحي الدرزي . واذا امعنا النظر في عدد المسيحيين ، ولاسيما الموارنة ، بانَ لنا ان الصفة الغالبة تظهر لبنان بوجهه المسيحي .

« ويعتقد شيوخ اللبنانيين ان الحقبة التي تقدمت الحرب العالمية الاولى كانت **العصر الذهبي** : ففي حقل الاعمال العامة تحققت شبكة الطرقات المعبدة التي تعد سلسلة في حلقة المواصلات في الامبراطورية العثمانية ، وفي حقل الثقافة شع نور العلم والمعرفة بفضل الرسالات الفرنسية الكاثوليكية ، ولم تعتم ان جارتها في هذا المضمار المؤسسات من وطنية واجنبية ، وسار لبنان شوطاً بعيداً في ميدان التربية والثقافه ، رقي لبنان حتى اصبح بلداً يفارق سائر البلدان الاسيوية الخاضعة للسيطرة التركية . لم تكتف المطامع القومية المكبوتة بهذا القدر . كان اللبنانيون يطالبون ويلحفون ، بالسر والعلانية ، بكيان لبنان

من اجتناب ما خافوا الوقوع فيه . خشوا ان يخلف البطاركة المتكثلكين بطاركة معارضون لا يروقهم هذا الارتداد فيرتدون عليهم وينغصون عيشهم . ازاء هذه المشادة ارتأى المطارنة الكاثوليك ان خير وسيلة لاجتناب البلبلة هو عقد مجمع ، فوافقهم على ذلك المؤمنون اكليروساً وشعباً ، فاجتمعوا تؤيدهم هذه الثقة واسفر اجتماعهم عن اختيار ابرهيم ارزقيان مطران حلب بطريركاً على كرسي سيس (Cis) سنة ١٧٤٠ ، وما مر طويل زمن حتى نال البطريرك الجديد درع التثبيت من روما . فعلت الرشوة فعلها وراح عمالُ العثمانيين يبالغون باضطهاد الكاثوليك والتنكيل بهم . فلم يعد لهم من مفر الا الاعتصام بجبال لبنان بلد الامان والعناية الربانية . . .

« افترقت هذه الكنائس وانقسم كل منها الى قسمين : انشطرت الى شطرين كنيسة الروم الملكية الانطاكية وكنيسة السريان الانطاكية ايضاً وكنيسة الارمن الكيليكية . فتسلسلت السلطة في كل شطر واستقلت : موالية لروما ومناوئة . ومما تجب ملاحظته ان السريان ، والارمن ، كاثوليكا كانوا ام منفصلين (يعاقبة وغورغوريين) تسللوا الى لبنان عدداً ضئيلاً، رائدهم العثور على مكان امين . سكن لبنان البطاركة المرتدون الى الكثلكة مع بطانتهم ، واوجدوا لهم الاكليريكيات يتثقف فيها كهنتهم ، ومكثوا اقلية الى القرن العشرين . انتهت الحرب العالمية سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ ، وروعتهم مذابح الاتراك في بلاد الاناضول ، تُجري الدماء وتمعن في التقتيل ، فخفوا الى لبنان ارمن ، وسريان ، ثم تبعهم الكلدان كاثوليكهم ونساطرتهم ، وحلوا في البلدان الواقعة تحت الانتداب الفرنسي .

ويوضح لنا ما تقدم من اسباب اهابت بهذه الشعوب الى التقاطر الى لبنان سبب الاختلاط ، وكثرة الدوائر الكنسية ، وتمازجها الغريب .

ففي مدينة بيروت وحدها مقرُّ كردينالين – بطريركين وخمسة رؤساء اساقفة : فيها الموارنة ، والروم الملكيون ، واللاتينيون ، والسريان ، والارمن ، اضف الى ذلك رعية كلدانية ، وثلاثة رؤساء اساقفة للطوائف المنفصلة : الروم الملكيون ، والارمن ، والسريان .

« **كان الباب العثماني ينظر الى استقلال لبنان وسيادته نظرةً مريبة** ، وكان يتحين الفرص جاهداً ، ويعمل وسعه للاطاحة بهذين الاستقلال والسيادة اللذين يحدان من نفوذه في هذه البقعة من آسيا ، وكان يزيد في قلقه ما يشاهده من عوامل التفسخ تنخر سلطانه في مصر ، والبلقان ، فذهب يدبر خطة جهنمية في اواسط القرن التاسع عشر تمكنه من اغراضه ، فاستحكمت ازمة شديدة كادت البلاد تفنى في تضاعيفها . رأى الاتراك بكثير من الامتعاض نخبة من ابناء البيوتات والامراء يعتنقون الكثلكة في القرن الثامن عشر ، وساءهم عطف امراء لبنان وحدهم على المسيحيين ، واتضح لهم ذلك اوفر اتضاح في عهد **الامير بشير الشهابي الكبير** (سنة ١٧٩٥ – ١٨٤٠) ، وانجلت السياسة الدولية عن اثر سيء : (الحرب بين تركيا ومصر والنزاع بين فرنسا وانكلترة). دسَّ العمال العثمانيون الدسائس يشد ازرهم المكلفون البريطانيون (الكولونالان تشرشل وروز) نجحت السعاية ، واتسعت الشقة بين الدروز والموارنة ، بعد تحالفٍ متين ، وترابط ودود ، وصداقة دامت مع الزمن . استحكم الخلاف فجرت الدماء ، وتتابعت الاغتيالات حتى ادت الى المذبحة الكبيرة الشهيرة سنة ١٨٦٠ .

« ثلاث سنين قبل وقوع الوقيعة بدأت التفرقة في صفوف الشعب فاشتعلت نيران الثورة بين الفلاحين والاعيان ، ثورة دفع المسيحيون ثمنها غالياً . فقد ثاروا على رؤسائهم المألوفين ، فنحوهم ونتج عن فعلهم تضعضع القوى ، ولم يعد لهم من يجمع كلمتهم . في هذه

مما جاورها ، له **طابع خاص تتناقله الازمان** ، ثم تزفه الينا . الجبل حصن منيع ، يتحدى التاريخ ، ويغالب الجغرافية . اقبل الانسان على العمل بهمة ونشاط ، وعلق يكدح حتى كيَّف وجه الارض ، فانتثرت القرى والمزارع على الجبال والمنحدرات تحيط بها الجلول ، فتزدهر الزراعة ، واصبح الطرف يمتد على حقول نبتت فيها الحنطة ، وكروم انسرح عريشها ، واسترسلت دواليها ، ونما زيتونها والتف . لا يفتقر لبنان الى الماء ، فالماء يتفجر من الينابيع الغزيرة والكثيرة ويسيل في الاقنية فيروي جنائن الخضار اللذيذة . كلف اللبنانيون زمناً بشجرة التوت ، حتى عمّ غرسها وراج سوق دود الحرير . اما اليوم فقد تبدل الحال ، واخذ التوت يتوارى تاركاً المكانَ للاشجار المثمرة ، فالتفاح يختال في المرتفعات ، والبرتقال يزهر في الاراضي الواطئة ، والموز يخرج قروطه في السواحل .

« **لا تخلو ضيعة في لبنان او دسكرة من كنيسة او معبد .** وتكاد تماشي في هندستها هندسة البيوت ولا تفارقها الا بارتفاع قليل وبشكل يقرب ان يكون مكعباً . تعلو سطوحها ابراج الاجراس صغيرة ، وقد تتكاثر هذه الابراج تبعا لازدحام السكان وتكاثرهم . ومما يستلفت النظر احياناً ارتفاع برجين او اربعة او اكثر فوق سطوح القرية . ولا يقتصر هذا التعداد على القرى المختلطة المتعددة الطوائف حيث يجتمع الموارنة والروم كاثوليكيين كانوا ام ارثوذكس (لم تفترق هذه الطوائف وتتباعد قبل اوائل القرن الثامن عشر كما رأينا) .

« اجل ! لكل طائفة معبدها الخاص ، على انه قد تتعدد المعابد في الطائفة الواحدة ، فانه الى جنب التقسيم الطائفي ، يقوم التقسيم العائلي : فكل رابطة عائلية تبغي الاستقلال بكنيستها ، وبكاهن تختاره من اعضاء العائلة نفسها ، وتتسم هذه الكنائس بسمة البساطة والفقر ، وهي

مبعث الذكريات يعود منها الزائر الغريب وحافظته مليئـــة بامور يستغرب بها طبعه ...

فوق الآكام تنعزل الاديار ، وعلى لوحة السماء ترتسم خطوطها ضمن اطار كبير ، فتلوح للناظر بنايات هامة تمتد من حولها غابات الصنوبر او السنديان : تنتشر الاديار في كل مكان ، بعضها للرجال ، وبعضها للنساء ، بدأ تأسيسها في الماضي البعيد تنشأ اديارا يقوم كل دير منها بنفسه -لا تربطه رابطة بدير آخر (رهبان عباد) ثم بدأت الحياة الرهبانية النظامية (عام ١٦٩٥) ، واخذت الجمعيـات تنمو والاديار تكثر مرتبطة بدير واحد هو الدير الام .

« وكثيراً ما يستلفت النظر تعداد الاديار في المنطقة الواحدة ، على ان ذلك يرجع الى تعدد الطوائف ايضاً ، ولشد ما نلحظ ذلك في **منطقة كسروان المارونية** العامرة بالاديرة . انتشرت ، في القرن الثامن عشر ، الرسالات اللاتينية في سوريا والتقت في مدينة حلب ، وقد ساعد انتشارها ما كان لقناصل فرنسا في هذه البقعة الشرقية من نفوذ ، وخلقت هذه العوامل مجتمعةً ، جوا يلائم كل الملائمة عمل الرسالة ؛ (اضف الى ذلك ما كان للموارنة من يد فعالة) ، فارتد الى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية عدد وافر من السريان ، والروم الملكيين ، والارمن [١] . عادوا بعد انفصال طويل الى الاتحاد بروما ، ولم يمض غير قليل من الزمن حتى انتخب كيرللس السادس تاناس بطريركاً على الملكيين سنة ١٧٢٤ ، وميخايل جروه على السريان سنة ١٧٨٠ .

« اما الارمن ، فلم يرقهم مسلك السريان والروم فنهجوا لهم نهجا يخالف بعض المخالفة نهج اخوانهم المرتدين ، فلم تثمر جهودهم ولم يتمكنوا

---

(١) طالع كتاب «اليد المارونية في ارتداد الطوائف الشرقية» عن هذا الموضوع الهام

لبنان الجنوبي . قضى نحبه الخليفـة الفاطمي المصري الحاكم بامر الله (سنة ٩٩٦ ـ ١٠٢٠) ، وكانت في حياته اطوار غريبة . تنتابـــه عوارض الجنون والهذيان فيدعي لنفسه الالوهية ، وانبرى من انصاره وعماله درزة وحمزة يشايعانه بالدعوة له ، فبشرا بالدرزية واتيا مــع اتباعهما فتوطنوا قلب البلاد وتجمعوا في مناطق الشوف والمتن ووادي التيم .

«اقام الدروز والموارنة على صفاء ومودة وولاء ، قاربت المصالح بينهم ، فعقدوا في اواخر القرن الخامس عشر تحالفاً ، وعن تحالفهم نشأ لبنان في وضعه الحالي . تكاتفوا فاوقفوا المتاولة عند حدهم ، وقطعوا دابر السلب والارهاب .

«تنادوا فوقفوا بوجه **باشاوات الباب العالي** وقفـة حزم وعزم ، فقصر الباشاوات ولايتهم على المدن الاسلامية : طرابلس وعكا والشام . اخذ الفلاحون الموارنة الاشداء ينزحون الى لبنان الجنوبي : دعاهم اشراف الدروز ، فلبوا الدعوة جمهرة من العوام والكهنة والرهبان ؛ انتشرت الزراعـة واستثمرت الارض ، وارتفعت الجلول في السفوح وعلى المنحدرات ؛ عمرت الجبال ، وكثرت القرى ؛ تشيدت الكنائس ، وتعددت الاديرة ، ولم يكن في انحاء الامبراطورية العثمانية بلد يماثل لبنان وضعاً او امتيازاً . لم يتمتع غير مسيحيي لبنان بهـذا الوضع الخاص الذي يحفظ للانسان كرامته ، فلم يعاملوا معاملة قطعان المواشي ، ولم ترهقهم الضرائب الاعتباطية او يكلفوا بالسخرة المرهقة .

«واظهر الامراء من معنيين ، وشهابيين ، في نضالهم ضد السلطان ، من ضروب الحسنى ما حبب الناس بهم ، وخولهم حق السيادة عـلى لبنان ، فعاش المسيحيون بامن وعزة في ظل حمايتهم ، وتأمر منهم عظيم هو **فخر الدين المعني الثاني** (سنة ١٥٨٦ - ١٦٣٥) ، حالفه النصر فكسر شوكة الباشاوات ، ومدّ سلطانه على منطقـة الجليل ، ورمم

كنيسة الناصرة المتهدمة . لم تقتصر جهوده على هذا القدر ، بل ذهب يستحث همة البابا ، ويستنجد بدول اوروبا ، ويدعو الى الجهاد والى تجهيز صليبية . تكفل بتسليم المسيحيين اورشليم ، واشترط لذلك وجود اسطول اوروبي في المياه اللبنانية يقف بوجه العثمانيين ، ويردهم على اعقابهم ، اذا عنّ لهم ان يهاجموه بحراً . كان شأنه شأن من ينفخ في رماد بارد ، فالبابا لا يملك القوة المادية الكافية ، واوروبا كانت تتلهى بتقسيماتها ونزاعها . غلب الامير على امره ، ورسف في قيود الاسر ، وكان نصيبه الموت خنقاً في مدينة الجرائم ، استنبول : احاط بالامير عاملان من عمال السرايا الخرس ، وقبضت ايديهما الغليظة على تلابيبه ، فلم تتركه وفيه بقية من روح . ويقول مؤرخ حياته : « قبل ان تزهق روحه ادار وجهه الى الشرق هازئاً بعادات الاتراك يصلون ولحاظهم تحدج الجنوب . رسم الامير ذاته باشارة الصليب ، قبل ان تطير روحه الى خالقها ، ولما نزعوا عنه ثيابه بعد الموت ، وجدوا على صدره صليبا من ذهب : صليب اللورين » .

«لبث لبنان ، في عهد الامير وعهد خلفائه ، على الرغم من اغارة الجيوش العثمانية وحروب الاقطاعيين ، لبث الملجاء الامين يؤمه المسيحيون من كل حدب وصوب ، ولاسيما الكاثوليك منهم ، فيمارسون في ربوعه واجبات دينهم بحرية تامه . وخير مصداق على صحة هذا القول ما ورد على السنة السياح والمسافرين ، وما ابدوه من فرح وابتهاج عندما كانت تدغدغ اسماعهم اصوات الاجراس تتجاوب اصداؤها في الوديان ، الامر الذي لم يجزه الاسلام في اي قطر آخر عنى لنفوذهم ، وخضع لسيطرتهم ، وقد امتاز قضاء كسروان ، العريقة مارونيته ، عن غيره . . .

« لم يكن لبنان ابن اليوم . فقد كان ولا يزال بقعةً تغاير سواها

تتبخر . لحظ ذلك على البطريرك ، وتأثر من امتقاع وجهي ، وانفعال لساني . فامر لي غبطته بنبيذ ، واخذ يخفف عني حتى استجمعت قواي ، وامتلكت روعي ، وثاب الي قلبي وشجاعتي : انه اب عطوف ، وقد لا تستطيع تصوير عطفه ، وهدوء خلقه الساجي ، ريشة امهر الرسامين . »

«على الرغم من مناعة هذا المكان الحريز ، كان لزاماً على البطريرك ان يعمد احياناً الى التستر والتخفي . ولما زار قنوبين بين سنة ١٦٦٠ الفارس لوران درفيو (Laurent d'Arvieux) قنصل فرنسا في صيدا[١] كتب عن البطريرك جرجس السبعلي يقول : « كان يختبىء في مغارة قريبة لا تطالها العيون ويصعب جداً الوصول اليها . كان البطريرك يسرع اليها في الصباح الباكر ، ولا يعود منها الا اذا رأى الشمس تميل الى الاصيل ، وحجته في ذلك ان سكان الجبال يعانون الامرين في حربهم مع باشا طرابلس ... وكان الباشا يرسل افواجاً من جنوده الاتراك يجوسون بين الفينة والفينة في تلك البقعة لعلهم يتوفقون فيختطفون البطريرك ، وما ذلك الا يقيناً منه بان الموارنة اذا اضطرهم الامر باعوا كل شيء حتى ثيابهم ودفعوا ثمنها دية بطريركهم شرط ان يخرجوه من الحبس . »

« وقد ادى تضعضع الامن الى انتشار الفقر والبؤس . لم يكن للبطريرك في ايليج غير غرفتين ، ولا يستطيع في قنوبين ان يشغل سوى غرفة واحدة ، ضيقة ، واطئة السقف ، منقورة في الصخر ، مربعة الشكل ، لا تتجاوز الجهة من جهاتها الاربع المترين ونصف المتر . لا تزال كما كانت هازئة بالزمن ، تتصل بها نقرة في الحائط كانت

---

(١) وهو الذي مدّ موليير بالمعلومات عن الحفلة التركية المسجلة في تمثيليته لابورجوا جانتيوم (Le Bourgeois gentilhomme) .

تستعمل مخبئا للصندوق ، ويدخل النور من طاقة تطل على المعبد : في هذا المعبد كثيراً ما احيا البطاركة ليلهم بالصلاة يستضيئون بنور مصباح تتراقص لهبته في الطاقة . ومعالم كل ذلك ما تزال هي هي بادية لذي عينين تروقه زيارة هذه الامكنة . وكانت حاشية البطريرك تتألف من ثمانية او عشرة اساقفة يحرثون الارض بايديهم ليحصلوا قوتهم ، ومن بعض الرهبان الاتقياء الذين بلغوا اسمى ما في الفضيلة من معنى (virtutis eximiae) ، يقارب عددهم العشرين راهباً . وزار ايضاً البطريرك قنصل فرنسا في تركيا المركيز دي نوانتيل (de Nointel) فلم يجد تعبيراً يقوله عن هؤلاء المتعبدين غير قوله : « انهم الرسل المجتمعون في علية صهيون . . . وقال في المطارنة لوران دارفيو : « اساقفة من ذهب بايديهم عصي من خشب » .

«الموارنة شعب كثير التوالد ، ينمو ويزداد بسرعة : ضاق بهم نطاق الجبل ، وتعسرت عليهم اسباب العيش ، فتتوا الصخور ، واقاموا الجلول على السفوح اراضي زراعية ، تتتابع من اعلى القمم الى بطن الوهاد . بذلوا عرق القربة يكتدون نفوسهم بالعمل الشاق ، فبذلوا جهوداً جبارة ، غير ان الاراضي المهيئة للزراعة لم تكن لتنتج ما يسد حاجة الشعب . سد بوجههم كل منفذ للتوسع : السواحل ، في ذلك العهد ، ارض حرام ، والسهول الداخلية مرتع للاضطرابات . في هذه الظروف العصيبة دعا **الدروز** الى لبنان الجنوبي ابناءَ مارون فنزلت عليهم الدعوة برداً واملاً .

« لم يكن الجبل معتصم المسيحيين وحدهم ، فهو للجميع بدون تفرقة . ينزل ربوعه كل مَن جار عليه الزمان . وعلى هذا الغرار نرى الشيعة ، فئة الاسلام المنشقين الملقبين **بالمتاولة** ، يتحدرون من اصل فارسي ، ويأتون فيستوطنون بعضهم لبنان الشمالي ، ويتوطن البعض الآخر

المشورة والامر، كلمتهم نافذة لا تعلو سيادتهم سيادة، شأنهم في ذلك شأن اساقفة غالية عهد البرابرة : فهم حماة الوطن (Defensores civitatis) .

« لقد ادت هذه الحالة الى خلق نظام خاص ، تفردت به الكنيسة المارونية ، وتمشت عليه : نظام لا يضاهيه في العالم نظام ، ولم يعايش الزمن مثله وضع . ولم تتقسم الابرشيات ولم يوزع الموارنة الى مناطق مستقلة اداراتها ، وبات هذا التقسيم ينتظر المجمع اللبناني المنعقد سنة ١٧٣٦ في دير سيدة اللويزة[١] . فالبطريرك نفسه يدير شؤون الطائفة كلها بمطلق سلطانه ، وله ان يختار ثمانية او عشرة من الاساقفة يؤازرونه ، فيوكل الى بعضهم امر السهر على الروحيات ، والى البعض الآخر الاهتمام بالزمنيات ، ويجمع في بطريركيته بعض الرهبان ، فيكلف بعضهم حراثة الارض ، وبعضهم نسخ الكتب ، وكانوا جميعاً يسكنون ديراً واحداً . لكل اسقف او راهب غرفته الضيقة التي ، بضآلة اثاثها وبساطته ، تخبرك عن فقر حالهم .

« الامن في اضطراب دائم ! قلما اغمضوا جفونهم على طمأنينة وصفاء غد . الاثئار شعار ذلك الزمن ! عنَّ لبياردي لوزينان ملك قبرص ، فاغار على الاسكندرية وامعن بالسلب والنهب ، فرد عليه سلطان القاهرة بالمثل ، وهبَّ سنة ١٣٦٧ يجهز حملة للاقتصاص من المسيحيين ، فسيرها الى بلاد كيليكية تلك المملكة الارمنية ــ اللاتينية الصغيرة : اجتاحت عساكره في طريقها ارض لبنان ، فخربت ما طاب لها التخريب والاتلاف ، ثم اغارت فرق المماليك على مقر البطريرك ودخلته على حين غرة ، فانتهكت حرمة دير سيدة ايليج ، وامعنت في التقتيل والتدمير ، فلم توفر البطريرك ، ولم تمتنع عن التمثيل بالرهبان المجتمعين

---

(١) راجع ما كتبناه عن هذا الدير التاريخي ، في كتابنا « ترجمة الآباتي جبرايل الشمالي » المطبوع سنة ١٩٦٢ .

في كنيسة السيدة : حقبة من التاريخ صبغتها الدماء الذكية ، ما زال يذكرها الموارنـة الذين توارثوا اكرام بطريركهم جبرائيل حجولا الشهيد الوفي . . .

« لم ينته بهذا القدر عهد المحن فكان لها عام ١٤٤٠ تنبه وثورة . قرَّ رأي **البطريرك يوحنا الجاجي** سنة ١٤٣٧ على ايفاد ممثل عنه الى مجمع فلورنسا فتخير الاخ جوان رئيس رهبان الفرنسيسكان حراس الاراضي المقدسة المقيمين في بيروت . وعند عودة جوان ، ارسل البطريرك وفداً للقائه ، فساء هذا الصنيع مماليك طرابلس ، واوغر صدر حاكمهم : وكان الاسلام اوجس خيفة من التئام مجمع فلورنسا [١] وحسبوه نداء الى صليبية جديدة . فزحف بعض الجنود الى ايليج ، وجددوا عهد المذابح ، وفتكوا بعدد من الرهبان ومن سكان القرى .

« تمكن البطريرك ازاء هذه الموبقات من الهرب حتى ادرك وادي قاديشا العميق ، فاندس في دير آخر هو دير سيدة قنوبين . واتخذه البطريرك مقراً فاصبح الدير قبلة انظار الطائفة والمركز الحيوي الى سنة ١٨٣٠ . ونعم هناك البطريرك ببعض الامن تحميه وعورة المسالك ، ثم زاره في هذه الاثناء الراهب الفرنسيسكاني جان بوست ، فوصل قنوبين في شهر آب سنة ١٦١٢ ، وها هو يصف لنا ما صادف من خوف وصعوبة ، قال :

« يكاد يكون الطريق على انحداره ووعورته مستقيماً ، ويخيل اليك وانت تسير الى الدير ان السبيل يقوده الى هوة سحيقة ، وقبل ان تهم بالمسير يوهمك البصر ان الهلع تسمر في قلبك . انحدرت فانهكني العياء واستحوذ علي الخوف الشديد . بلغت المكان ودخلت على البطريرك ، فاحسست بالقلب يطير ، وبالقوة تخور ، وبالشجاعة

(١) نجم عن هذا المجمع تفاهم موقت اعاد المياه الى مجاريها بين روما والقسطنطينية .

من لبنان الشمالي . اقفرت قرى العاصي من الموارنة ، ولم يمر طويل زمن حتى عمر ذلك الوادي تسيل فيه مياه قاديشا المقدسة ، وحفل بالمناسك والاديرة .

«تبلبل الناس ، وعمّت الاضطرابات عقب انعقاد المجمع الخلقيدوني ، وانتشرت المشاغبات في جو التنافس بين الخلقيدونيين واليعاقبة ، فامتدت الغزوات كسابق عهدها تهدف الى الاستيلاء على الكرسي البطريركي الانطاكي . شعر الموارنة بحراجة الموقف ، وخافوا على انتزاع بطريركيتهم ، فاقاموا لهم بطريركية خاصة بهم تتميز عن سائر البطريركيات ، وعمدوها باسم **البطريركية الانطاكية** ، واختاروا لها اول بطريرك انطاكي انما هو القديس **يوحنا مارون**[1] .

«على ان الحال لم يقف عند هذا الحد : فقامت قيامة المشاحنات

حالًا ، فاختار المكان الموافق ، وشرع بحفر الاساس ، ولم يمضِ القليل الا وكانت الكنيسة كاملة . ثم طلبوا اليه ان يكون لهم راعياً ، فقبل درجة الكهنوت ، وظل عندهم ثلاث سنوات يعلمهم الامور الالهية ، والديانة المسيحية .

وذكر السمعاني ، في مكتبته الشرقية (مج ١ ، ف ٢٣٩) في معرض كلامه عن القديس سمعان العمودي ، « ان هذا القديس اتى لبنان وطلب من سكانه ان يصيروا مسيحيين حتى يخلصهم من ضربة حلّت بهم ، فنزلوا عند ملتمسه ، واعتنقوا المسيحية . »

وهذه كلها دلائل اكيدة على ان رهبان مار مارون اختصوا جبل لبنان بعنايتهم ، وكانوا يرسلون اليه البعض منهم ليبشروا سكانه ، ويثبتوهم بالايمان القويم ، وهكذا نشأت روابط المحبة والصداقة بين رهبان مارون وتباعهم وبين سكان لبنان الاقدمين .

ثم « لما اندلعت نيران الفتن والحروب في سوريا ، واشتد الاضطهاد ، رأى الموارنة ان ينتقلوا الى لبنان ، مفضلين جباله المكللة بالثلوج ، ووديانه الوعرة ، على سهول سوريا الخضراء ، مكتفين بفقر المسيح عن غنى الدنيا . فمشى امامهم في هذا الانتقال بطريركهم القديس يوحنا مارون ، وتبعه من الرهبان والشعب عدد وافر ، فحلّ اولا في سمارجبيل ثم في بلدة كفرحي من بلاد البترون » كما بيّنا ذلك قبلا باستفاضة . (طالع السمراني في تاريخه المذكور ، ص ٢٦ — ٢٨) .

(١) راجع قبلا في كتابنا هذا ص ٨٧ — ٩٩ .

وقعدت تضع على بساط البحث والجدل حياة قديسهم البطريرك ، ثم تتعداها الى الظن والتخمين ، فتعيب الموارنة بايمانهم ، وتنعي عليهم صحة المعتقد (ذلك مجرد تعد وافتئات كما رأيت) ، لان الحقيقة التي لا يشوبها كذب هي ان الموارنة حافظوا على سلامة ايمانهم ووثيق تعلقهم ، وارتباطهم بروما كل المحافظة .

« ثم يأتي **عهد الصليبيين** فتزداد الحقيقة ثبوتاً وبرهاناً ، وينبثق الدليل على ان الموارنة استمروا بدون ريب او مواربة متحدين بالكنيسة الكاثوليكية . وقد ساعدتهم وعورة مسالك لبنان ، فلم يتعرضوا لما تعرض له غيرهم من سكان السواحل والمدن الداخلية . فمكنهم اعتصامهم بالجبال من الذود عن استقلالهم ، واتاح لهم الصمود بوجه دولة المماليك .

«ثم جاء **دور العثمانيين** فلم يتراجعوا عن مطلب ، ولم يخنع بطريركهم . وقعت الحرب العالمية سنة ١٩١٤ فاغتنمها الباب العالي فرصة ً موآتية لفرض ارادته ، وإخضاع البطريرك ، والزامه مع رؤساء اساقفته على قبول الفرمان (عهد السلطان لشرعية الولاية المدنية) . استمر الموارنة على رفضه مخالفين بذلك ما درجت عليه الشعوب المسيحية في الامبراطورية العثمانية : كان الباب العالي يمنح البطاركة ورؤساء الاساقفة هذا الفرمان اثر انتخابهم لوظائفهم .

« استمات الموارنة في سبيل ضمان استقلالهم ، واشتعلت نيران الفتن تتهددهم ، ونزلت بهم النكبات ، فالتفوا حول اسيادهم الاقطاعيين ، وساروا تحت راية مقدميهم ، وشيوخهم ، يستمدون الاوامر من رؤسائهم الروحيين ، تربطهم بهم احكم الربط ، وتجمعهم اشد الاواصر ، ثم تمر الايام فيزدادون لبطريركهم ولاءً ، ولزعمائهم الروحيين حباً وطاعة . فقد اصبحوا حتى الامس القريب قادة الشعب واصحاب

«ثم تعاقبت **هجمات الاسلام**، فكانت امواجاً متدافعة توالي الكر حتى بلغت شاطيء البحر، فتكاثر عدد المارقين من دينهم، يجرفهم تيار الخوف، ويجذبهم حب النفع. كل ذلك والمسيحية لم تلفظ بعد انفاسها. لقد ابقى الاسلام على البقية الباقية تسكن المدن، وتقيم في بعض القرى. اضحت المسيحية في وسط هذه التيارات اشبه بجزر مَلَكِية تتبنى الطقس البيزنطي، وتعتمد في باديء امرها اللغة السريانية، ثم العربية. انقضت تلك الفترة فصعب الاتصال بالغرب، لاسيما وقد دانت الامور المدنية لسلطان الخلفاء، وانقطعت العلاقات بين روما والقسطنطينية، ولم يَعُد من السهل الاتصال بالبابوية. بيد انه مرّ زمن قبيل التصريح بالانشقاق كان كأنه زمن النزع او الاحتضار، امتد الى عهد البطريرك بطرس معاصر ساويروس. فانشيء، في القرن الرابع عشر، فرمان التنصيب يسلمه سلطانُ مصر البطريركَ الملكي، وفيه تصريح بان عقيدة البطريرك طريقٌ يؤدي الى البابا.

«تتالت **الحملات الصليبية**، فزادت الطين بلة، وتوثقت شقة الخلاف بين الاغريق واللاتين، وارتفعت الظلامات. وللظلامات حجة وسبب. على انها مهدت السبيل، ويسرت اتصال الشرق باوروبا. ثم جا **دور الامتيازات** (Capitulations) فسهلت مجيء الرهبان الافرنج: منهم الرهبان الفرنسيسكان، حراس الاراضي المقدسة، واليسوعيون، والكبوشيون، والكرمليون... دام تواردهم الى البلاد حتى مطلع القرن الثامن عشر. الى ذلك التاريخ لم يكن استحكم الانشقاق، وتم الانفصال. دخل المرسلون اللاتينيون الكنائس التابعة الطقس البيزنطي فوعظوا وعرّفوا واقاموا الذبيحة والاحتفالات، وكان يجتمع ابنا الطقس الواحد، ويشتركون بالالهيات، وسواء اكانوا مؤمنين ا كهنة او اساقفة واحيانا بطاركة اظهروا رغبتهم بالخضوع للكرسي الرسولي.

« وما اوجزنا من التاريخ في خطوطه الكبرى، يمكن اعتباره التاريخ العام المنطبق على الجماعات الشرقية اليونانية : فهو ينطبق على الملكيين، في سوريا ومصر ولبنان ، وعلى سكان آسيا الصغرى اليونانية ، وجزر بحر ايجه . **اما لبنان** ، فقد استوطنه في غضون ذلك جماعات اخرى من المسيحيين فبدأ عددها يتزايد ، وشوكتها تقوى ، فسطرت لها في تاريخ الجبل دوراً هاماً : انهم **الموارنة** .

«اسس تلامذة القديس مارون الناسك ، الذي عايش فم الذهب في انطاكيه وراسله في منفاه ، ديراً كبيراً في الوادي السوري ، على ضفاف العاصي ، في جوار حماه ، لم يلبث مارون ان جمع حوله شعباً عرف فيما بعد بالموارنة . كان ذلك الوادي الفسيح عرضةً لهجمات الغزاة المتوالية ، فاضطرب حبل الامن ، وشعر السكان بالخطر يحدق بهم ، فرحلوا في منتصف القرن العاشر[1] بمعية رهبان مارون الذين تركوا ديرهم ، بايدي الغزاة يمعنون بالنهب والسلب ، واتوا فانضموا الى ابناء ملتهم[2] ، واعتصموا برؤوس الجبال المقفرة تغطيها الاحراج الكثيفة ،

---

(١) راجع كتابنا هذا ، ٨٥ – ٨٧ .

(٢ ذكر المؤرخ تاودوريطوس في العدد الـ ١٧ من « تاريخه الديني » (كما في مجموعة الآباء اليونان ، لمين ، مج ٨٢ ، عمود ١١١٩) عن القديس ابراهيم ، تلميذ مار مارون ، « انه اتى لبنان ، واتخذ زي التاجر ليخفي زي الراهب ، وجاء الى بلدة يكثر فيها الجوز ، واستأجر بيتاً ومكث فيه ثلاثة ايام صامتاً . ثم بدأ يرتل المزامير بصوتٍ معتدل ، فاجتمع حوله الناس رجالاً ونساءً ، واقفلوا عليه الابواب ورموه بكميه وافرة من التراب حتى كاد يختنق . ولما طلب اليه مغادرة البلدة ، وصل البعض من جباة الضرائب ، وشدّدوا على الناس بدفعها . وقد كبّلوا البعض وساقوا البعض الاخر . واما ابراهيم فطلب الى الجباة ان يعاملوه برفقٍ ، متعهداً بدفع جميع الضرائب . وفعلاً عاد الى مدينة قدس واقترض من اصحابه مبلغ مائة دينار ذهباً ، دفعه للجباة في اليوم المعين .

« ففرح به سكان البلدة فرحاً لا يوصف ، وطلبوا اليه ان يكون عليهم رئيساً وحاكماً . فوعدهم بالقبول اذا كان يعدونه ببناء كنيسة ، فرجوه ان يبدأ بانشائها

١١ ـ لبنان والموارنة في العصور المتأخرة :

نشر حضرة العالم التاريخي الاب هنري جلابير اليسوعي مقالاً هاماً ، ضافي الذيل ، في مجلة « اكليزيا » الفرنسية[١] بسط فيه تاريخ الموارنة في لبنان منذ اول نشأتهم الى يومنا هذا ، بسطاً دقيقاً ممتعاً ، ذاكراً فيه ما احتملوا من الاضطهادات والمظالم في سبيل استقلال بلادهم ، وما سفكوا من دماء مقدسة ، ذوداً عن معتقدهم الصحيح ، وحرصاً على تعلقهم الوثيق بكرسي رومية الخالد ، على تمادي الاجيال وتبدل الاحوال ، عنوانها : « على شاطيء آسيا : لبنان ، ارض مسيحية »، قدّم لها بهذه الكلمات القلائل الدالة على احترام هذا المؤرخ الجليل لهذا البلد العزيز واهليه الاوفياء ، قال :

« على شاطيء آسيا المترامية الاطراف ، وهي تدين بالاسلامية والبرهمانية والبوذية ، قام بلد مسيحي صغير يستطيع ان يتخذ لنفسه الشعار المنقوش ، في مقبرة مرسيليا ، على ضريح كلوت باي منظّم

مصر والبلاد العربية مدينة للبنان في امور كثيرة، فهو يستحق ثناءها الدائم. . . ان اول من نقل الى العربية كتب الطب والهندسة كان كاهناً مارونياً. واول من صبّ الحروف العربية لمطبعة بولاق المصرية هو الياس مسابكي الماروني . واول من نشر بالعربية الوقائع المصرية وهي الجريدة الاولى في مصر هو فارس الشدياق الماروني. واول مَن وضع دائرة معارف عربية هو بطرس البستاني الماروني وابنه سليم ، كما ان اول من وضع المعاجم في العربية والفرنسية والانكليزية هو يوسف حبيش الماروني . هذا عدا ما للموارنة من فضل على الصحافة والروايات الادبية . . . » . (راجع هذا في « الكنيسة المارونية » للسمراني ، ص ٢٩ — ٣١ : وفي كتاب العالم الاب بطرس روفائيل وعنوانه :

Le Role du Collège Maronite à Rome, p. 176 — 177.

(١) Voir : «Ecclesia», Lectures Chrétiennes, Paris, 1953, p. 19-30.

الطبابة في مصر عهدَ محمد علي ؛ بلد ، هو لبنان ، شأنه شأن الجبال المنيعة ، يحاكي جبل منتينغرو في يوغسلافيا او سلسلة الجبال الحبشية في قلب افريقيا ؛ بلد حافظ على طابعه القومي الخاص ، وعرف ان يجاهد في سبيل معتقده جيراناً ألداء ، فكتب لنفسه في سفر التاريخ صفحةً مجيدة لم تبلورها يد المعرفة بعد . فآلينا على نفسنا اختصار الصفحة الخالدة في هذه العجالة . »

وقد عرَّب هذه المقالة لخطورتها وعظيم فائدتها ، ونشرها في مجلة السنابل الغراء[1] حضرة الفاضل الاب لويس سمون الراهب اللبناني ، فآثرنا ان ننقل منها الى كتابنا هذا ما يهمّ موضوعنا ، تكملةً لتاريخ طائفتنا لئلا يكون ناقصاً . قال المؤلف :

«... لم يكن تاريخ **العصور الاولى** غير تاريخ المسيحية جمعاء : انه تاريخ الشهداء تسيل دماؤهم غزيرة ، تاريخ قسطنطين الملك ، فاتحة عهد امن وحرية دينية ، تشيدت فيه الكنائس الفخمة تنتصب قببها فوق مدينة صور . ثم جاء طور الاضطرابات فسجل الانشقاق له تاريخاً . سارت كنيسة فينيقية من اول عهدها في ركاب انطاكية متأثرة بالثقافة الاغريقية الى حد لم تدانيه كنائس البلدان الداخلية . تمسكت هذه الكنيسة بالايمان الكاثوليكي ولم تحد عن عقيدة المجمع الخلقيدوني قيد انملة فخالفت بذلك اكثر المسيحيين المقيمين في مصر ، وسوريا ، الذين تمذهبوا بمذهب اليعاقبة القائلين بالطبيعة الواحدة في السيد المسيح . اضف الى ذلك ما كان يداخلهم من بغضٍ لاوامر بزنطية ، وكره لعمالها .

---

(١) طالع تعريب هذا المقال، في مجلة السنابل ، في عدديها العاشر والحادي عشر من سنة ١٩٥٣ .

برحوا يسمون موارنة نسبة الى القديس مارون وتلاميذه . فلو كانت هذه الطائفة اراتيكية ، ووضع لها اسم مشعراً بأرطقة تشبثت بها ، لما تصرفت بها الكنيسة الرومانية ، والاحبار الاعظمون ، خلافاً لجميع الهرطقات في المشرق والمغرب معاً . »

والخلاصة مما قلناه في هذا الباب : ان البيّنات المختلفة ، والشهادات المتعددة ، التي اتينا على ذكرها في هذا المبحث ، اذا ما ضمّ بعضها الى بعضٍ تقوم برهاناً كافياً وساطعاً على ان الموارنة لم يجنحوا قط الى الهرطقة على تمادي الاجيال ، بل « ظلوا في كل آنٍ منزهين عن كل شائبة ضلال ، مستمرين على صحة الدين الكاثوليكي السليم ، مخلصين الطاعة للكرسي الرسولي المقدس »[١] ، ومتمسكين بمبادىء المجمع الخلقيدوني وتعاليمه المقدسة كل التمسك كما رأيت . واذا كانت هناك بعد شوائب[٢] قد دخلت عليهم ، فتلك لم تكن عن مكابرة في الدين ، او عنادٍ فيه البتة ، او عـــدم خضوع لسلطة الكنيسة الرومانية ، بل عن سوء تفاهم استحكم امره بينهم وبين المكسيميين وتفاقم كثيراً حتى جعل الاتفاق بينهما متعذراً[٣] .

وبسبب الحروب الطاحنة التي كانت تتخبّط فيها مملكة الروم ، ونظراً لفتوحات العرب الجارفة ، وبما انه لم يكن لاهل سورية ، في تلك الايام الحالكة ، من اتصالٍ بالمراجع العليا الايجابية[٤] على الاطلاق ،

---

(١) طالع الرسالة الاولى من رسائل مجمع نشر الايمان المقدس، المنشورة في «المجمع اللبناني» المطبوع في جونيه سنة ١٩٠٠ ، ص ١٥ — ١٦ .

(٢) انظر المجمع اللبناني ايضاً ، ص ١٦ ، ١٨ و ٢٠ .

(٣) انظر المطران ديب في الموضع نفسه ، ١٢٧ — ١٢٨ ؛ وكل الفصل الرابع في تاريخ دريان ، ص ١٤٩ — ١٦٥ .

(٤) دريان في الموضع نفسه ، ص ١٦٦ .

حتى يصير الرجوع اليها في مثل تلك الاحوال الخطيرة الهامة ، بقيت بلاد الشام منفصلة تماماً ، بفقدان المواصلات بين الغرب والشرق ، ومنقطعةً عن روما ، ومكثت ايضاً بعيدةً عن المناظرات الفلسفية ، واللاهوتية ، التي تتعلق بالمسيح بطبيعتيه ومشيئتيه ، ومتمسكةً بما كانت عليه قبل الفتح الاسلامي : الخلقيدونية او اليعقوبية ، بدون ان يكون للمونوثيلية اي ذكرٍ او اثر ، الا بعد عام ٧٢٧ للميلاد ، عندما دخلت جيوش العرب الجرارة الى سورية ، ومعهم الكثير من الاسرى والمسبيين من الروم[١] كما رأيت .

وهذا كله تمَّ طبعاً بعد ميلاد القديس يوحنا مارون البطريرك الاول على الطائفة المارونية بنحو قرنٍ تقريباً ، وبعد وفاته ايضاً بنحو عشرين سنةً مما يجعل كلام سعيد البطريق ومن حذا حذوه وتابعه في آرائهِ ، مجرَّد وهمٍ ، ومحضَ اختلاقٍ لا يؤبه له اصلاً[٢] .

---

(١) حسب رواية التلمحري في تاريخه المشهور ، ف ٢٠ ، مقالة ١٠ ، (راجع دريان ، ١٢٨ من لبابهِ) .

(٢) كان « لبنان قبل نزوح الموارنة اليه جبلا موحشاً ، تملأه الغابات والاحراج ولاسيما الارز ، ولم يكن فيهِ من السكان الا القليل ، ومن الكنائس والاديار ما لا يتجاوز اصابع اليد ، فاحاله الموارنة بنشاطهم ودأبهم قرى وكنائس واديارًا . وجعلوا منه قلعة للدين الكاثوليكي في الشرق ، فحفظوا ايمانهم سليماً ، ونعموا بحريتهم الدينية كاملةً ، محتفظين بعاداتهم ، وشرائعهم ، وآدابهم ، واعيادهم . . . لا بل صيروه ملجأ وحمى لكل مضطهد ولاجيء لاي ديانة انتمى . فاليه التجأ فلول الصليبيين ، كما لجأ الارمن ، والسريان ، والروم ، والكلدان ، والاشوريون ، والدروز ، وعدد وافر من لاجيء فلسطين . »

« واصبح لبنان بفضل الموارنة منارة الشرق الادنى ، فانبعثت منه الشرارة الاولى في العلم والادب ، كما حمل بنوه مشعل الحضارة الى سائر الاقطار المجاورة والنائية ، فكانوا اول النافخين في بوق النهضة الحديثة . وقد اعترف له بهذا الفضل مؤخرًا ممثلو دول العالم في المؤتمرات التي اقيمت فيه منذ سنوات . فقال مندوب مصر الدكتور الجراح علي ابراهيم باشا في المؤتمر الطبي الملتئم في بيروت ، سنة ١٩٤٧ ، ما نصه : « ان

نقضها . منها ان القديس مارون كان في آخر القرن الرابع واول الخامس، وبدعة المشيئة الواحدة لم تظهر الا في القرن السابع ، فبينه وبين ظهورها قرنان . فمن المحال ان يكون مارون ابتدعها . ومن المحال ايضاً ان يكون يوحنا مارون : وذلك لانه لم يكن في ايام موريق (٥٨٢ — ٦٠٢) ؛ ولا بَنى اهل حماة على اسمه ديراً [١] كما قال ابن البطريق ؛ بل صير اسقفاً على البترون سنة ٦٧٦ ، وبطريركاً سنة ٦٨٥ ، وتوفي سنة ٧٠٧ ، واشتهر في عصر قسطنطين اللحياني ويوستينيانوس الثاني الاخرم ، لا في عصر موريق الروماني ، الذي كان في آخر القرن السادس . وقد صرّح البابا بناديكتوس المذكور في خطبتهِ بكرادلة الكنيسة الرومانية في ١٣ تموز سنة ١٧٤٤ ان الموارنة انما انتخبوا بطريركاً خاصاً عليهم ، وهو يوحنا مارون ليقوا نفوسهم من بدعة المشيئة الواحدة . »

« واما كون المجمع السادس عقد ضد الموارنة فهذا باطلٌ ايضاً : اذ ليس في اعمال المجمع كما أوضحنا ، ولا في تواريخ الكنيسة المقدسة ، ما يشير الى ذلك ، ولو بالعرض ، ادنى اشارة . ولكن غليلموس اغترّ باعتماده على تاريخ سعيد البطريق الذي جعل البابا هنوريوس ، والملك هرقل ، وسرجيوس ، وبيروس ، وبولس ، وبطرس ، بطاركة القسطنطينية ، وقورش بطرك الاسكندرية ، جميعاً موارنة . وهذا أمر مضحك ، يسخر منه كل عالم ، وقد انكره على ابن البطريق كل محقق حتى بولوكيوس اول من ترجم تاريخه ، ويوحنا سيلدانوس الذي طبعه . »

ثم اورد العلامة الدبس شهاداتٍ كثيرة من اقوال الاحبار الاعظمين ، وكرادلة الكنيسة الرومانية ، وقصادها ، والعلماء المحققين من غربيين

---

(١) راجع الجامع المفصل ، صفحة ٢٥؛ وما قلناه بهذا الشأن في هذا الكتاب.

كباجيوس ، ولاكويان ، ودي لاروك ، ودنديني ، ومن شرقيين كالدويهي ، والسماعنة ، والبطريرك يوسف اسطفان ، والخوري انطون القيالة ، والبطريرك بولس مسعد ، وقد ذكرناهم فيما مضى ولا حاجة الى التكرار ، حتى اصبحت هذه الحقيقة عن الموارنة واستمرار ايمانهم الصحيح في جملة ما يقال فيه :

وليس يصحّ في الاذهان شيء اذا احتاج النهار الى دليلِ

ثامناً : ومما يؤكد صحة ما اثبتناه في هذا القسم من مبحثنا ، تقليد الطائفة على تمادي الاجيال ، وشهادة التواتر الصحيح . فقد قال العلامة الدبس[1] في هذا الصدد ، ما يلي :

« ان الدليل الثاني ، وقد ذكره باجيوس وغيره من الغربيين وكثيرون من علمائنا ، هو ان العادة المستمرة في المشرق ان ينتسب الاراطقة الى مبتدعٍ تمسكوا ببدعته ، او الى مذيعها كالنساطرة نسبة الى نسطور ، واليعاقبة نسبة الى يعقوب البرادعي ، والبراصمة نسبة الى برصوم الاشمندريت السرياني . فاذا عاد اولئك الاراطقة الى حضن الكنيسة الكاثوليكية لم يعودوا يسمون نساطرة وان وجد قديس اسمه نسطور هو اسقف سيدا في بمفيلية وآخر نال اكليل الشهادة في غزة بفلسطين ، ولا يعاقبة وان وجد قديسون كثيرون يدعون يعقوب : منهم الرسولان يعقوب الكبير والصغير ، ولا براصمة وان وجد قديس اسمه برصوم هو اسقف الرها الشهير . بل سمي النساطرة كلداناً كاثوليكيين . واليعاقبة سرياناً كاثوليكيين ، والبراصمة ارمناً كاثوليكيين . والحال انك ترى العكس في الموارنه ، فانهم سموا منذ نشأتهم وما

---

(١) في كتابه « روح الردود في تفنيد زعم الخوري يوسف داود » طبعة بيروت ١٨٧١ ، مع الترجمة اللاتينية ، صفحة ٤٣ — ٤٥ .

وهذا كله يدل بصراحةٍ على ان الموارنة الى ذاك الحين لم يكونوا عارفين بالمونوتيلية اطلاقاً . »

وهنا يعقّب المطران دريان بصوابٍ على هذه النتيجة بالحاشية التالية مستفهماً : « فاين هذا والحالة هذه من كلام المؤرخ اليعقوبي المجهول الاسم ، الذي نقله حضرة العلامـة الاب رونزڤال اليسوعي عن المجلة الاسيوية الالمانية في مجلة « المشرق » البيروتية (٢ : ٤٥٧) ، حيث ناقش الابوين هنري لامنس اليسوعي ، وبشاره الشمالي الماروني ، في حقيقة مؤلف هذه الفقرة نفسها وغيرها ، عن تاريخ الجدال الذي جرى في الشام امام معاوية بين اليعاقبة والموارنة ؟ » وقد ذكرناه مراراً .

وهذا الكلام المنسوب الى المؤرخ اليعقوبي المشار اليه الذي يرتقي تاريخه الى سنة ٨٤٩ للمسيح ، قد اورده العلامة دريان في كتابه « الجراجمة والمردة »[١] ، مستفيضاً في كشف مغالطه ، واخباره الملفقة ، وفي تفنيد معانيه ، مع ذكر الاستنتاجات العقلية الراهنة التي استخلصها منه ولاسيما من قوله : « ان هرطقة الموارنة قد ظهرت في عهد الملك قسطنطين اللحياني والد يوستينيانوس الاخرم سنة ٩٩٠ للاسكندر » (الموافقة لسنة ٦٧٨ — ٦٧٩ للمسيح) ، فقال : « ان هـــذا التاريخ يوافق الزمان الذي فيه أُقيم يوحنا مارون مطراناً على البترون ، بحسب رأي العلماء الموارنة الذين اجمعوا على انه تمَّ سنة ٦٧٦ للميلاد . وعليه ، وحيث صار من المقرر ان الموارنة لم يكن لهم هرطقة لا في هـذا التاريخ ولا في سواه ، قبله او بعده ، كما بيَّنا ، فلا يمكن ان يفسَّر هذا الكلام « اي ظهرت هرطقة الموارنة » الا بالمعنى الذي نقصد بيانه ، وهو انه لما تألب اشياع مارون من كل صوب[٢] ، وانضم بعضهم الى

---

(١) صفحة ٤٣ — ٥٣ و ٥٩ .

(٢) راجع قبلًا صفحة ١٩٣

بعض في جبل لبنان هرباً من الجور والاضطهاد من سيف الفاتحين في تلك الايام ، ألفوا شعباً ممتازاً عن سواه في معتقده حتى صاروا كأنهم كنيسة منفصلة عن بطريركية انطاكية فقال اليعاقبة فيهم لذلك انهم ابتدعوا هرطقةً جديدة وسموها كما رأينا هرطقة الموارنة ... » .
وهذا كافٍ لدحض ما قيل عن جنوح الموارنة الى المونوثيلية وابطال زعم افتيشيوس الكاذب .

سابعاً : ومما يؤيد هذا الرأي ما كتبه العلامة المطران يوسف الدبس ، في تاريخ سوريا [١] ، تفنيداً لزعم البطريق الذي انتحل قوله غليلموس الصوري . قال : « ان زعم غليلموس بان الموارنة تسكعوا خمسمائة سنة في الضلال تبعاً لمارون المبتدع ، وانعقاد المجمع السادس لنبذ ضلالهم وحرمه لهم ، انما هو زعم باطل ، لا اساس له البتة إلا خرافة سعيد البطريق ، وقد ذكرناها مراراً ... وقد اقر غليلموس نفسه انه اعتمد على شهادة ابن البطريق في بسط رواياته . وقد اشار الى ذلك البابا بناديكتوس الرابع عشر في منشوره الذي اعطي في روما ٢٨ ايلول سنة ١٧٥٣ [٢] بقوله : « ان شهادة غليلموس ليست بكافيةٍ لتأييد الراي المضاد للموارنة ، ولربما عرف غليلموس هذا ضعف قوله فعزاه الى المجلد الثاني من تاريخ سعيد الاسكندري » .
« واما كون حكاية سعيد هذا التي اعتمدها غليلموس هي من الترهات البسابس فقد اجاد ببيانه العلامة البابا المذكور في منشوره المشار اليه في اثبات قداسة القديس مارون ، حيث اورد ادلة على ذلك يستحيل

---

(١) المعروف « بالجامع المفصَّل في تاريخ الموارنة المؤصل » صفحة ٢٠٨-٢١١ .
(٢) ان هذا المنشور وهذه الرسالة التى كتبها البابا بناديكتوس نفسه الى البطريرك سمعان عواد في ١٢ آذار عام ١٧٥٥ ، هما منشوران بالعربية في تاريخ الدبس : الجامع المفصل . . . صفحة ١٢٠ – ١٣١ .

هذا المجمع ، ولم يُشهَر بعدئذ في سورية » حسب العادة التي كانت جاريةً عصرئذٍ ، ولم نجد في اعمال هذا المجمع وغيره على الاطلاق اقل إشارة تدل على ان الموارنة كانوا قد جنحوا الى هذه الهرطقة ، فتأمل .

سادساً : ان العلامة المدقق المغفور له المطران يوسف دريان ، اثباتاً لهذه القضية الاخيرة التي نرجع اليه في امر تأكيدها ، وتفنيد ما يخالفها ، نظراً للدروس الانتقادية الجليلة ، والاعتبارات التاريخية المبنية على الآثار الثابتة ، والشهادات القديمة الحقيقية الصادقة التي جاء بها ، قد اوردَ هنا في كتابه المعروف « بلباب البراهين الجلية في امر الطائفة المارونية »[1] اربعة اعتبارات تاريخية ايضاً بناها على ما وصل اليه من الآثار الباقية ، تدليلاً على ان امر المونوتيلية لم يكن معروفاً في سورية الثانية تلك الايام بشكلها المشهور . ولولا خوفنا من الاطالة لكنا ذكرناها في هذا المقال ، للاطلاع عليها فيه . انما نحيل القاريء الكريم اليها ، ليقف عليها في مصدرها ، مقتصرين على ذكر اعتبارٍ واحدٍ منها ، لاهميته التاريخية فيما نحن فيه الآن[2] ، قال :

« ان قسطنطين كاهن رعية آفامية الذي ظهر في الجلسة السادسة عشرة من المجمع المسكوني السادس ، وعرّف عن نفسه فيها بقوله « انا كاهن كنيسة آفامية المدنية المقدسة التي في اقليم سورية الثانية ، وقد سامني كاهنا السيد ابراهيم اسقف اريتوزه وهي الرستين ، » فهذا الكاهن اذ

---

(١) صفحة ١٣٩ — ١٤٠ .

(٢) وهذا الاعتبار المذكور ، الذي انما هو حوار مستفيض بين الكاهن قسطنطين من بلاد آفامية من سورية الثانية وبين آباء المجمع السادس المسكوني ، قد ترجمه الى الفرنسية سيادة المطران ديب في كتابه عن « الكنيسة المارونية » صفحة ١٢٠ — ١٢٤ ، مستنتجاً منه بالبرهان الوضعي كما هو الواقع ما استخلصه علامتنا دريان في لبابه المشهور في الموضع المذكور هنا .

كلّفه آباء المجمع ان يتلو صورة ايمانه فوراً دون ان يمهلوه بحسب إلتماسه ليكتبها بالسريانية ويقدمها لهم ، قد قرّر ما كان يفهمه عن هذه القضية ، فاذا هو مخالف لتعليم المونوتيلية ، وموافق تمام الموافقة للتعليم الكاثوليكي ، من حيث ما يتعلق بمشيئتي المسيح وفعليه حتى القيامة . واما الذي وافق به المونوتيلية فانما هو القسم الثاني مما يتعلق بالفادي الالهي من بعد القيامة . وقد قـــال صريحاً بانه تلقّنه عن مكاريوس بطريرك انطاكية ، وعندما قابله في نفس القسطنطينية التي لم يغادرها منذ سمي بطريركاً عليها الى ذاك الحين ، بسبب الحروب واستيلاء العرب على اكثر بلاد الشرق كما هو مشهور . »

وعليه « فلو كانت البدعة المونوتيلية في ذاك العصر معروفة في سورية ، وخصوصاً في جهات آفامية حيث عظمت سيطرة رهبان القديس مارون ، واتباعه ، لعرف هذا الكاهن كيف يبسط هذا التعليم الذي يدافع فيه عنه هو وقومه في بلاده ، لو صحّ ذلك ، لما كان من مجال لان يصرّح بانه انما تعلم ما قرّره من مكاريوس بطريرك انطاكية الذي لم يقابله الا في العاصمة نفسها . »

ثم إنه « لو كان من شبهةٍ لآباء المجمع في كون اهل سورية الثانيه ، وطن الكاهن قسطنطين ، هم على هذا المذهب ، ولم يفهموا منه خلاف ذلك ، لما اغفلوا سؤاله عن ايمان قومه ، واهل وطنه من هذا القبيل ، ولما تغاضوا عن ذكرهم بعد هذا المجال الذي انفتح لهم . »

« وعندنا انهم قد سألوه عن ايمان قومه بهذا الموضوع . وهذا ما دعاه الى التصريح بأنه انما تلقن ذلك عن مكاريوس البطريرك ، وفهموا منه ان اعتقاد اهل سورية الثانية على الاقل كانوا على غير هذا الوجه . ولهذا لم يجدوا من سبيل للكلام عنهم ، كما لا يغرب عن ذي بصيرة .

بينما كان الروم في ضعفٍ شديد ، وكان اليهود قد والوا الفرس ، وتذرَّعوا بكل ما امكن لاجل اضطهاد النصارى ، والتنكيل بهم ، حتى انهم امسكوا انسطاس بطرك انطاكية ، وانزلوا به عذاباً شديداً اماتوه فيه ... كما ان جيش العرب ، كان منذ سنة ٦٣٥ ، يزحف على سورية ويفتتحها تدريجياً ، بينما كان جيش الروم يندحر امام العرب الذين ، في مدة ست سنوات ، فتحوا كل سورية ، وفلسطين ، وقلَّصوا ظل الروم وسيطرتهم عنهما تماماً ، ثم تبسطوا في فتوحاتهم الى العراق ، وبلاد فارس ، والى مصر ، واستولوا على جميعها . وذلك في عهد خلافة ابي بكر الصديق ، وعمر ابن الخطاب ، وقد تولى معاوية بن ابي سفيان الاموي على سورية وفلسطين ، وكان ادهى اهل زمانه[١] .» فحزن هرقل الملك لضعفه تجاه تيار العرب الجارف ، وعجزه عن صد الزاحفين ، فمات كمداً سنة ٦٤١ ، فخلفه ابنه قسطنطين الثالث ، وبعد جلوسه باربعة اشهر ، قتل مسموماً كما رأيت فيما سبق .

ففي احوال حرجةٍ ، وعصيبةٍ ، ومضطربة كهذه ، هل كان يمكن اهل سورية ان يشتغلوا في الامور الدينية ، ويخترعوا المذاهب والبدع ، ويعكفوا على ما لا فائدة منه للنجاة من تلك الشدائد ، والنكبات السود ؟ !

لا لعمري ! بل يجب الاستنتاج ان اهل سورية حتى سنة ٦٢٧ لم يكونوا في حالةٍ تسمح لهم بالانصراف الى التفلسف على اسرار الدين ، واختراع المذاهب الدينية والتفرغ لها[٢]. « ويجب الاستنتاج ايضاً ان

---

(١) انظر مجلة المنارة لسنتها ١٩٤٦ ، العدد الثاني ، صفحة ٨٣ ؛ ودريان في لبابه ، صفحة ١٢٣ – ١٣٥ .

(٢) راجع دريان ، الكتاب نفسه صفحة ١٣٤ ؛ وطالع تاريخ المطران ديب ، صفحة ١٢٥ حيث يثبت بالبرهان ، استناداً الى التلمحري في تاريخه الذي نشره الاب شابو

المونوتيلية لم يكن لها وجود بشكلها المعروف في سورية حتى الفتح العربي . ذلك لانه « لما كانت هذه البدعة قد نشأت في القسطنطينية على يد سرجيوس بطريركها كما رأيت ، وظهرت في الاسكندرية على يد قورش بطريركها ايضاً ، ولم يصدر منشور هرقل المشهور «الاكتزيس» بشأنها[١] الا بعد خروج سورية من يد الروم وتسلط العرب عليها ، كان من اللازم والظاهر انه لم يبقَ من مجال لدخولها في سورية ، لا من هذا الباب ، ولا من سواه ، لاسيما وان اهل هذه البلاد كانوا وقتئذٍ مشغولين في امر نفسهم ، بسبب فتوحات العرب وتغير الاحوال المدنية في كل امر . »

« فضلًا عن المواصلات التي كانت قد انقطعت تماماً بين سورية والقسطنطينية ، لان العرب كانوا قد شغلوا الروم بالحروب المتواصلة ، حتى انهم هاجموا عاصمة المملكة مراراً ، وكادوا يفتحونها حتى سنة ٦٧٦، اذ عقد الصلح الاول بين معاوية خليفة المسلمين وقسطنطين اللحياني ملك الروم . وبعد ذلك بنحو اربع سنوات عقد المجمع السادس المسكوني، ضد البدعة المونوتيلية ، ولم يستطع كثير من اساقفة سورية وغيرها من الجهات التي استولى عليها العرب ان يحضروا اليه على ما روي في اعمال

في باريس سنة ١٨٩٥ ، صفحة ١٩ — ٢٨ ، ان مسألة المونوثيلية لم تدخل سورية قط الا بعد سنة ١٠٣٨ للاسكندر الموافقة لسنة ٧٢٧ للميلاد ، على يد الاسرى والمجلوين من الروم الذين اسرهم العرب وجاؤوا بهم الى سورية .

(١) وهنا يأتي العلامة دريان ، صفحة ١٣٤ — ١٣٥ ، بدليلين قويين على دحض قول القائلين بان هرقل الملك كان مناصرًا لبدعة المونوتيلية وعاملًا على نشرها في اول سني ملكهِ من سنة ٦١٠ لغاية زمان انتصاره على الفرس: الاول استخلصه من كلام المؤرخ تاوفان الرومي عن هرقل وما جرى بينه وبين اثناس بطريرك اليعاقبة عندما طلب منه هرقل الاعتراف بالمجمع الخلقيدون . والثاني استنتجه من رواية المؤرخ ديونيسيوس التلمحري عن هذا الموضوع ايضاً ، وقد اوردنا ذلك سابقاً ولا حاجة الى التكرار .

دمشق على امور الدين ، وقد غلب فيه اليعاقبة على امرهم ، كما تقدم القول[1]. »

رابعاً : أجل باطل كل البطلان زعم سعيد البطريق ، ومن أقتفى اثاره ، بان الموارنة وزعيمهم القديس يوحنا مارون كانوا على مذهب المونوثيلية . **لان كل المجامع** التي عقدت لاجل محاربة هذه البدعة ، ليس في اعمالها البتة ما يشير الى ان فئة ، من الفئات المسيحية ، في سوريا كانت على هذا الرأي .

والمجامع التي عقدت في هذا السبيل هي : مجمع اورشليم الذي عقده القديس صفرونيوس البطريرك سنة ٦٣٥ ، ودعا اليه اساقفة فلسطين ، وكان فيه المدافع القدير عن الحقيقة الكاثوليكية ، وتابعه بعد موته في مناهضة هذه الهرطقة القديس مكسيموس الشهير — مجمع رومية الذي عقده البابا تاودورس سنة ٦٤٦ — مجمع رومية الثاني الذي اقامه البابا مرتينوس سنة ٦٤٩ — مجمعا مديولان في ايطاليا ٦٧٩ — مجمع رومية الثالث سنة ٦٨٠ وكان مقدمةً للمجمع السادس الذي ترأسه البابا اغاتون ، في القسطنطينية بواسطة معتمديه — ثم المجامع التي عقدت في افريقيا ، بدعوة من القديس مكسيموس الراهب — ثم مجمع « قصر القبة » المعروف باسم ترولو (اي القبة) الذي سعى بعقده يوستينيانوس

---

(١) وهنا يهمنا ان نذكر للقراء الكرام ان القديس يوحنا الدمشقي ، الذي ولد في دمشق الشام ، سنة ٦٧٦ ، وتوفي سنة ٧٥٥ ، هو من أولئك الذين كتبوا في ذاك العصر بهذا الموضوع ، وقد ترك لنا بين مؤلفاته كتاباً ضافياً في امر المونوثيلية وتفنيدها ، ولم يذكر فيه اقل شيء مما يشير الى وجود اثر لهذه البدعة عند نصارى عصره في سورية ، مع العلم بان هذا الملفان العظيم قضى معظم حياته في الشام ، وكان فيها ذا مكانة ونفوذٍ عظيمين ، ثم في دير القديس سابا بالقرب من اورشليم . وهذا برهان ساطع على صدق ما نقول بهذا الصدد ، (راجع ديب في تاريخه المعروف ، ص ١١٩ — ١٢٠ : ودريان في لبابه ، صفحة ١٦٢) .

الاخرم سنة ٦٩٢ [١] - ثم مجمع آخر عقد في القسطنطينية سنة ٧١٥ دفعاً لهذه البدعة ايضاً [٢] .

خامساً : ان زعم افتيشيوس البطريق الذي صدع بـــه مهاجماً الموارنة يظهر بطلانه جلياً ، اذا ألقينا نظرةً خاطفة على الحالة الداخلية التي كانت تتخبط فيها البلاد السورية ، منذ اوائل القرن السابع فصاعداً ، وذلك بسبب الحروب الطاحنة [٣] التي استعرت بين الدولة البيزنطيـة والفرس ، وبينها وبـين العرب ، « بحيث يكاد المسيحيون فيها لا ينتبهون الى ما سوى الوسائل لنجاتهم من طوارق الحدثان ، ونكبات الحروب والنوائب التي اناخت عليهم بكلكلها من كل جانب . ولكي يفهم المطالع حالتهم عصرئذٍ ، عليه ان يتصوّر الآن مـا حالة اناسٍ جرى لهم بعض ما جرى لابناء سورية في تلك الاجيال : فالفرس قد زحفوا على البلاد بجيوشٍ جرارةٍ نهمةٍ للدماء ، والنهب ، والسلب ، وقد دمّروا اكثر المدن والقرى ، واتوا من الفظائع ما لا يخطر ببال ،

---

(١) ان هذا المجمع ولئن كان غير معتبر شرعياً الا انه قد جدَّد البحث في شأن هذه البدعة واشياعها وحرمهم جميعاً ، وهو من هذا القبيل يدعم حجتنا بعدم وجود اي اثر لهذا المذهب في سوريا حتى اوائل القرن الثامن ، (انظر مجلة « المنارة » سنة ١٩٤٦ ، في عددها الثاني ، صفحة ٨٨ — ٨٩) .

(٢) انظر عن هذا الموضوع كتاب روح الردود للدبس ، صفحة ٣٩ ؛ الدر المنظوم للبطريرك بولس مسعد ، صفحة ١٤٦ ؛ كتاب البراهين الجلية لدريان ، صفحـة ١٤٢ ؛ الكنيسة المارونية للمطران ديب ، صفحة ١٢٤ ؛ كتابنا عن الملكية والمارونية ، صفحة ٥٠ ؛ فازيلييف في الموضع المذكور اعلاه ؛ ومجموعة المجامع لمنسي في الموضع نفسه الخ .

(٣) راجع تاريخ الكنيسة للمطران ديب ، صفحة ١١٣ — ١١٩ ، حيث يشرح حالة سورية المضطربة استناداً الى اقوال العلماء الافرنج الذين خاضوا عباب هذا الموضوع الهام نظير : L. Duchesne, L-Eglise au VI siècle, Paris, 925, p. 372 ; J. Labourt, Le Chistianisme dans l'Empire perse, Paris, 1904, p. 232 sq. ; S. Vailhé, L'Eglise Maronite du V au IX sc., dans « Les Echos d'Orient » t. IX. (1906) p. 262.

بدعة التوحيد في المشيئة بالسيد المسيح » . والحال ان مارون هذا كان قديساً بشهادة القديس يوحنا فم الذهب والمؤرخ الشهير تاودوريطوس الذي كتب حياته في سير الآباء والنساك ، وهو من معاصريه ، وقد توفاه الله قبل القديس مارون في سنة ٤٥٨ . ومما لا خلاف فيه ان بدعة المشيئة الواحدة نشأت في نحو سنة ٦٢٧ للميلاد[١] ، اي بعد وفاة القديس مارون بنحو قرنين . فاي عالمٍ يجروء على اتهامه ببدعةٍ لم يكن لها في عهده بعد لا عينٌ ولا اثر ؟ !

ثم « ان موريق[٢] مات سنة ٦٠٢ ، وهذا مجمع عليه . والقديس مارون رقد بالرب سنة ٤١٠ ، وهذا ثابت ايضاً . فيكون بين ارتقاء موريق الى منصة الملك ووفاة القديس مارون مئة واثنتان وسبعون عاماً ، وبين وفاة موريق وظهور بدعة المشيئة الواحدة عدة سنين . فتكون شهادة سعيد البطريق ظاهرة البطلان من كل وجهٍ[٣] »

فضلًا عن ان الشهادات التاريخية التي اكتشفها العالم الاب ناو الفرنسي ، والمستشرق الالماني الكبير نلدكه ، بيناتٌ ساطعة على تمسك الموارنة بعرى الدين القويم ، وتعاليم المجمع الخلقيدوني ، حتى لقبوا به خلقيدونيين ، ومات بسبب الدفاع عنه كثير منهم شهداء تكرمهم الطائفة حتى ايامنا هذه[٤] .

---

(١) راجع ابن العبري، نقلا عن التلمحري، في الفصل العشرين من المقالة العاشرة، من تاريخه السرياني . (انظر دريان ، صفحة ١٤٦ فصاعداً في لبابه ؛ والمطران ديب ، صفحة١١٢ من تاريخه حيث عدّد البيّنات والبراهين الكثيرة الدالة على هذا الامر الهام .)

(٢) وكان ملكاً رومانياً من سنة ٥٨٢ الى سنة ٦٠٢ كما ابنّا سابقاً .

(٣) وقد عدّد أغلاط البطريق وفنّد مزاعمها المؤرخ لاكويان في تاريخ بطاركة انطاكية وارشليم كما ذكرها المطران يوسف الدبس في كتابه « الجامع المفصّل . . . » صفحة ١١٥ وما يليها .

(٤) راجع قبلًا صفحة ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٦ ، ٨٨ — ٩٠ و ٩٣ .

ثالثاً : اما اذا كان سعيد البطريق يعني بقوله « مارون » البطريرك « يوحنا مارون » كما انتحل كلامه بعـــده غليلموس اسقف صور ، فنجيب بان هذا الزعم باطلٌ ايضا ، ولا يمكن اثباته البتة ، بل جميع الادلة التي اوردناها حتى الآن تؤكد العكس ، وتثبت صدق قضيتنا[١] ، واننا نضيف اليها هنا بعض ادلةٍ أُخرى قاطعة . منها :

انه « لو كان يوحنا مارون هو رأس القائلين بالمشيئة في السيد المسيح ، وهو مخترع هـذه البدعة عند الموارنة ، كما تخيّل سعيد البطريق ، وانتحل كلامه غليلموس اللاتيني ، وتابعهما كثيرون ، فلماذا اغفل الآباء القديسون قاطبة ، والمجامع العامة والخاصة ، ومؤرخو البيعة الذين تقدموا افتيشيوس ، ذكرَ مارون والموارنة بين الهراطقة ؟ !

وكيف فاتهم هذا ، وقـد امعنوا في البحث عن كل مبتدع واتباعه ، ودوّنوا اسماءهم ، واحداً واحداً ، بغاية مـا يستطاع من التدقيق ؟ ! وكيف اغفل الدمشقي ذكر مارون والموارنة في الجريدة التي كتب فيها اهل البدع ؟ ! »[٢] خصوصـا وان سرجيوس بن منصور والد القديس يوحنا الدمشقي ، كان حيا يرزق ، وذا مقامٍ عند الخلفاء ، وبين نصارى الشام ، في تلك الايام التى جرى فيها بين الموارنة واليعاقبة الجدال المشهور امـام معاوية[٣] ، سنة ٦٥٩ ، في

---

(١) راجع الشهادات التي اثبتناها في معرض دفاعنا عن الموارنة واثبات امتناعهم عن مجاراة اليعاقبة والمونوفيزية بكل انواعها ؛ وطالع أيضاً ما سجله المطران الدبس في كتابه « الجامع المفصل » صفحة ٣١٠ وما يليها ، حيث ذكر ما كتبه المطران اسطفان عواد السمعاني في محاماته عن القديس يوحنا مارون وفي كتابه الآخر «فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية » مشيراً الى ما حرّره البطريرك يوسف اسطفان في محاماته عن القديس مارون ويوحنا مارون .

(٢) انظر كتاب المحاماة عن الموارنة وقديسيهم ، ص ٦٠٥ .

(٣) راجع قبلاً ، ص ٨٨ — ٨٩ .

والاضطهاد ، من سيف الفاتحين ، في تلك الايام ، ألفوا شعباً واحداً ممتازاً عن سواه في معتقده ، واغراضه الدينية والمدنية ، حتى صاروا كأنهم كنيسة منفصلة تماماً عن بطريركية انطاكية ، فقال لذلك اليعاقبة فيهم انهم ابتدعوا هرطقةً جديدة في هذا التاريخ نفسه وسموها هرطقة الموارنة كما رأينا . والا فمن الغريب ان يقال ان هرطقة الموارنة ظهرت في الحقبة التي صار فيها يوحنا مطراناً على البترون وجبل لبنان ، وفي التاريخ الذي عيَّنه تاوافان المؤرخ الرومي لدخول المردة ، والبلاذري المؤرخ العربي لدخول خيل الروم والجراجمة الى جبل لبنان[١] . »

ثانياً : إن صحة اعتقاد الموارنة ، بحسب تعليم المجمع الخلقيدوني كما اثبتنا ، كانت موضوع احترام المؤرخين من لاتين ويونان حتى جاء سعيد البطريق[٢] الاسكندري في المائة العاشرة للميلاد « وألَّف تواريخه العربية التي ترجمها الى اللاتينية إِيدْوَرديوس بولوكيوس ، ثم سعى لطبعها يوحنا سيلدانوس ضاماً اليها ترجمة حياة المؤلف التي جمعها من كتبٍ عربية . فسعيد هذا ، كقول مؤلف كتاب المحاماة[٣] ، اذ قد ثقل عليه ان يعدّ للموارنة شرف البقاء على النصرانية الحقة ، ومجد الاعتصام بالكنيسة الرومانية ، تقوَّل عليهم ما هم براء منه ، واخترع أسطورةً واذاعها محوًّا لمجد طاعة الموارنة ، واستمرارهم على

---

(١) أُنظر كتاب الجراجمة والمردة والموارنة ، للمطران دريان ، ص ٥٨ – ٥٩ .

(٢) انظر تاريخ الاب فاليه الفرنسي : P. S. Vailhé, L'Eglise Maronite du V^e au IX^e siècle, dans les « Echos d'Orient » t. IX (1906). p. 260 — 66.

(٣) راجع كتاب « المحاماة عن الموارنة وقديسيهم » للآباتي افرام حنين الديراني صفحة ٣٩٣ ؛ والكنيسة المارونية ، للمطران بطرس ديب ، صفحة ٨٤ – ٨٦ .

الامانة الكاثوليكية ، وزعم انه كان لعهد موريق الملك [١] راهبٌ مبتدع اسمه مارون منشيء بدعة الخوارج ، فقيل لاشياعه موارنة نسبةً اليه . »

فحكمنا في اقوال البطريق لا يمكن ان يكون غير ما اثبته علماء الافرنج والعرب معاً ، كما بيَّنا في معرض كلامنا عنه . وهذا قول العلامة لاكويان فيه : « انه لا يستحق التصديق لمكان افتئاته ، وكذبه ، وتزويره ، ومخالفته لتواريخ القرون الثلاثة التي سبقته » [٢].

فاذا كان هذا هو مقامُ سعيد البطريق من الصدق في الاخبار ونقل الحوادث والروايات ، ومركزهُ في نظر المؤرخين المدققين ، فلا حاجة بنا الى الاسهاب لاظهار كذبه وعجزه عن الخوض في ميادين التاريخ الصحيح وتدوين حوادثه ، لكنا تدليلاً على انحطاط المنزلة التي وصل اليها في تلفيقه الاخبار ، رأينا ان نشير الى ما ذكره باستفاضة العلامة المطران يوسف الدبس [٣] تفنيداً لآراء سعيد البطريق ، وان نذيّل هذه الاثباتات والشهادات ببعض امثلةٍ تبين جلياً ما في قول سعيد هذا من الخطأ [٤] الفاضح الذي لا يثبت على محك العقل والنقد .

مثلا زعم « ان مارون كان في زمان موريق واول من اخترع

---

(١) راجع شهادة سعيد البطريق المتقدم ذكره في هذا الكتاب ، ص ١٥٦ .

(٢) طالع دريان في لبابهِ ، ص ١٩٥ — ١٩٧ .

(٣) في تاريخه « الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل » ص ١١٣ — ١٢٠ ؛ وفي روح الردود صفحة ٩٥ — ٩٦ ما عدا المواضع الآخرى مثل صفحة ٣٥ و ٤٥ و٩٤ و ١٢٨ و ١٣٦ و ١٤٠ و ٢١٨ ؛ وانظر ايضاً تاريخ البطريرك اسطفان الدويهي المطبوع في بيروت ، ج ٢ ، صفحة ٢٩٢ — ٣٦٧ ؛ وكتاب الدرّ المنظوم للبطريرك بولس مسعد ، صفحة ١٢٥ و ١٢٧ و ١٢٩ و ١٧١ .

(٤) راجع كتابنا عن « الملكية والمارونية » الذي نشرناه سنة ١٩٤٤ ، فيما يتعلق بهذا الموضوع الهام .

١٠ ـ لم يبتدع الموارنة !

ان الاقوال المختلقة والاعتراضات المتنوعة التي فنّدناها سابقاً تنهار تماماً ايضاً اذا ما راجعنا ١ً شهادة التلمحري بطريرك اليعاقبة في القرن التاسع (٨١٨ — ٨٤٥) التي نقلها عنه الجثليق غريغوريوس ابن العبري المعروف بالسرياني ، من كتبة القرن الثالث عشر (توفي سنة ١٢٨٦)(١)، والبطريرك اليعقوبي الآخر مخايل الكبير (وهو من كتبة القرن الثالث عشر) ، في تاريخه الذي نشره حديثا الاب شابو مترجما الى الفرنسية (٢)،

ثالثاً : جواب بطريرك النساطرة تيموثاوس الاول الى رهبان دير مـار مارون المحفوظ خطاً في مكتبة الواتيكان داخـل القسم السرياني ، المعروف باسم بورجانو (Borgiano) رقم ٨١ ، صفحة ٣٠٦ ، وقد تقدم الكلام عنه سابقاً .

وهو الجواب ترجمه الى اللاتينية العالم لابور (Labourt) سنة ١٩٠٤ ، ونشره في كتابهِ الذي سماه : « De Thimotheo I° Nestorianorum Patriarca, p. 18. »

رابعاً : « المقالات العشر » ، للمطران توما الكفرطابي على كورة حلب ، وضعها صاحبها في القرن الحادي عشر ، ووجهها الى بطريرك انطاكية الملكي يوحنا الرابع ، كما تقدم القول ، وقد نشرها بالطبع وعقّب عليها وأبان معناها الكاثوليكي الصحيح حضرة العالم الاب فيليب السمراني ، في مجـلة « المنارة » الغراء سنة ١٩٣٦ ، في العدد السابع وما يليه .

خامساً : مخطوط قديم محفوظ في المكتبة الواتيكانية ، رقمه ٤٨ من القسم السرياني ، يحمل تاريخ ١٥٠٧ ، وهو شرح لواجبات الكاهن نحو رئيسه واسقفه . . . »

(١) عند ذكر تاريخ سنة ٦٣٠ ، في كتابهِ المشهور ، صفحة ٢٧٤ ؛ انظر دريان في لبابهِ ، صفحة ٨٧ و ١٣٥ ؛ وديب في تاريخه ، ١١٥ .

(٢) وهذا عنوانه : Chronique de Michel le Syrien, édit. Chabot, texte, t. IV, p. 409. sq. ; traduct. t. II, p. 412.

وهنا يجدر الانتباه الى ان تاريخ ابن العبري اكثر امانةً ودقةً وصدقاً من تاريخ مخايل الكبير الذي (منذ سنة ١١٦٦ الى سنة ١١٩٩ لم يكن اميناً في النقل ، كما اثبت ذلك بالبرهان الصادق العلامة المدقق دريان في لبابه ، صفحة ١٣٦ في الحاشية ، بل توسع في سرد الاخبار من عند نفسه ، وشحنها احياناً بالغلط وقلة التدقيق ؛ بينما ابن العبري

و٢َ شهادة المؤرخ اليعقوبي الرهاوي ، اللتين سبق ذكرهما اعلاه ، وما سيتبعهما من الشهادات الاخرى :

اولاً : لانه يتحصل منهما « ان اليعاقبة وكل المخالفين لمعتقد المجمع الخلقيدوني المقدس ، لما اشتد ازرهم وتنفست كربتهم بعد فتح العرب لسورية ، ونالوا تمام حريتهم ، وتقرّبوا من الخلفاء ، كما يُعرَف من تواريخ تلك الايام ، أخذوا يثأرون من اشياع رهبان مار مارون ويضطهدونهم كلما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، حتى تضعضعت احوالهم وضعفت ، واضطر جمهور منهم الى ان يلجأ الى جبل لبنان تحت راية القديس يوحنا مارون الذي لمَّ شعثهم ، وضمَّهم الى اخوانهم الوطنيين ، فشرعوا جميعاً يذودون عن حياضهم ، ويشنون الغارة عند الاقتضاء على مناوئيهم . فانحصروا عهدئذٍ في محل واحد تحت اسم « موارنة » ، والفوا كنيسة على حدةٍ . ولهذا قال فيهم المؤرخ اليعقوبي المذكور ما روينا ملخصه قبلاً وهو : « ان بين سنة ٦٧٨ و٦٧٩ وهي سنة ٩٩٠ للاسكندر على عهد قسطنطين اللحياني قامت او ظهرت هرطقة الموارنة » . وبما ان الموارنة لم يكن لهم هرطقة او مذهب خاص ، لا في ذاك التاريخ ولا في سواه قبله او بعده ، كما بيَّنا سابقاً باستفاضة ، لا يمكن اذاً ان يفسّر هذا الكلام « اي ظهرت هرطقة الموارنة » الا بالمعنى التالي ، وهو : لما تألب اشياع مارون في كل صوبٍ ، وانضمّ بعضهم الى بعضٍ ، في جبل لبنان ، هرباً من الجور ،

توخّى نقل الروايات ، وسرد الاخبار ، بضبط وتدقيق ، واثبتها بعينها في اصلها السرياني كما صرّح هو نفسه في تاريخهِ ، في الفصل العشرين من المقالة العاشرة ، (راجع قوله في دريان ، في الموضع نفسه ، ص ٧٨ ، في الحاشية) .

وقد أبان سيادة المطران بطرس ديب ، بعض المواضع التي شطّ فيها المؤرخ مخايل المشار اليه ، في كتابه « الكنيسة المارونية » صفحة ١١٦ — ١١٩ ، في اربعة براهين واضحةٍ مقنعةٍ ، نحيل القارىء اليها خوفاً من التطويل .

الخلقيدوني [١] ، ولهذا قال في الهدى : « لا نعتقد فيه اثنين ولا مسيحين ولا شخصين ولا فعلين [٢] . »

ومن ثمّ يسوغ لنا ان نقول مع العلامة دريان [٣] بكل صواب « إن موارنة تلك العصور الخوالي لم يرفضوا التعليم بالمشيئتين والفعلين بالمعنى الذي حدّدته الكنيسة المقدسة والمجمع السادس [٤] وهو لا يمكنه ان يخالف تعليم المجمع الخلقيدوني (٤٥١) ، ولم يتمسكوا بمذهب المشيئة الواحدة على الطريقة المونوثيلية ... لانهم لم يعرفوها ، ولم يعرفوا احداً من اصحابها [٥] ، ولم يصدروا في ذلك عن مبادئها ، او يرموا الى اغراضها السيئة ، بل رفضوه على الوجه الآخر الذي فهموه بحسبه على يد المجلوين والاسرى من الروم ، وهو وجه قويم بذاته ، لان الكنيسة لم تعلم قط ، ولن تعلم ابداً ، ان في المسيح مشيئتين متضادتين ، ومتحاربتين ، وعدوتين . وانما هي تقول بصوابٍ إنّ الارادة البشرية في السيد المسيح كانت موافقة تماماً للارادة الالهية ، بحيث لم يكن يمكنها ان تخالفها في كل ما تريده ، وذلك لان الارادة الانسانية فيه

---

(١) طالع المصدر نفسه ، صفحة ٢٤٥ .

(٢) الهدى ، صفحة ٣٢ .

(٣) انظر اللباب ... ، صفحة ٢٤٦ – ٢٤٧ .

(٤) المنعقد في القسطنطينية سنة ٦٨٠ – ٦٨١ ؛ طالع مقالة مسهبة بشأنه في مجلة « المنارة » لحضرة العالم الاب لويس غصن المرسل اللبناني، في عددها الثاني (سنة ١٩٤٦) ، صفحة ٧٣ – ٨٩ .

(٥) ذلك لان الموارنة ، كقول سيادة المطران بطرس ديب في تاريخه ، ص ١٤٢ ، كانوا يجهلون تماماً مقررات المجمع السادس العام المنعقد سنة ٦٨٠ ، ومباديه الفلسفية عن هذا الموضوع ، وظلوا كذلك يجهلون كنه تعاليم هذا المجمع حتى في القرن الحادي عشر عينه . وهذا ما صرح به علناً المطران توما الكفرطابي في مقالاته العشر المنشوره في العدد السابع من مجلة «المنارة» سنة ١٩٣٦ ، نقلاً عن المخطوط المحفوظ في مكتبة باريس الاهلية ، رقم ٢٠٣ من القسم السرياني ، صفحة ٨٨ و ٩٦ ، و ٩٧ و ٩٨ .

كاملة ومرتبة الى الخير الاسمى ، فلم تتمرد على العقل بسبب الخطية الاصلية ، كما حصل في ارادتنا نحن البشر ، وهذا ما يرمي اليه صاحب كتاب الهدى ، بقوله : « ان جسم المسيح كان ذا نفس ناطقة ، عاقلة ، عاملة ، وشابهنا في كل شيء سوى الخطيئة » . وهو تفسير جلي لمعنى قولهم انه لم يكن في المسيح ارادتان متضادتان معاً . وبهذا المعنى يجوز ان يقال ان الارادة في المسيح كانت واحدة معنوياً ، اي في مفعولها ، ونتيجتها ، لا في قوتها ، ومبدئها . وهذا ما كان يريده الموارنة خلافاً للمونوثيلية بقولهم « مشيئة واحدة » كما في الهدى [١] . »

ومن اراد الاستزادة في هذا الموضوع فعليه بمطالعة المؤلفين الموارنة ، ومن جاراهم ، وهم مناور نيرة في هذا المضمار ، ونجوم ساطعة يستضاء بنورهم الوهاج . وقد ذكرنا الكثير منهم خلال مبحثنا هذا [٢] .

---

(١) الهدى ، صفحة ٤٦ .

(٢) انظر لائحة طويلة باسماء الذين خاضوا غمار هذا الموضوع في تاريخ صاحب السيادة العلامة المطران بطرس ديب ، صفحة ٢١ — ٣٦ .

وفي صفحة ١٢٧ عدّد سيادته المصادر التاريخية ، بعد الهدى ، التي استند اليها العلماء في اثبات العقيدة الكاثوليكية فيما يتعلق بالمشيئتين في السيد المسيح نلخصها هنا تكملة للموضوع ، وهي :

اولاً : « الهدى » وقد تقدم ذكره . ثانياً : كتاب القداس الالهي ، الذي استعمله الموارنة في القرن الحادي عشر ، وقد وُضع قبل هذا التاريخ بزمان غير يسير . وذكره العلامة الكبير البطريرك اسطفان الدويهي (١٦٣٠ — ١٧٠٤) في تاريخه « الاحتجاج » (وهو مخطوط محفوظ في المكتبة الواتيكانية رقم ٣٩٦ من القسم السرياني ، صفحة ٢٤ — ٢٥) ، دفاعاً عن المعتقد الماروني بشأن المشيئة في المسيح الفادي ، مستشهداً بتلك الفقرات الواردة في « نافور الموعظين » والتي تدل على وجود مشيئتين في المسيح الاله اذا كانتا متحدتين لا مختلفتين ، اذ لو وُجد تناقض او تضاد لتقرّر الاعتراف بالمشيئة الواحدة ، لان الله ، تعالى عن كل تضاد او تناقض .

الاسرى والمسبيين والمجلوين من الروم الذين خرجوا (اي جاؤوا) في جيوش العرب »[١] ، « مما يدل على ان احكام المجمع السادس الذي حرم المونوثيلية لم تكن قد اذيعت في سورية إذاعةً مشروعة »[٢] . فكان ما كان من شدة النفور والمضاغنة والمشاجرات في الجدال بين هاتين الفرقتين الخلقيدونيتين ، بحيث لم يبقَ امامهما مجــال للتفاهم والانضمام ، بل أخذ كل منهما ، كقول ابن العبري نقلاً عن التلمحري[٣] ، يقرّف الآخر بالكلام القارص ويتجنبه كعثار محروم . فيعير حزبُ الموارنة الملكيين بقولهم لهم : « انكم نساطرة ورفاق الوثنيــين واليهود الخ ... » ويعير الملكيون حربَ الموارنة قائلين لهم : « انكم لا تؤمنون بحسب تحديد المجمع ورسالة البابا لاون . . . » مع انهم جميعاً (اي الموارنة والملكيون كما يقول ابن العبري والتلمحري) يعترفون بحسب تعليم لاون البابا والمجمع الخلقيدوني . »

وبديهي « انه لولا سوء التفاهم الذي دبّت عقاربه بينهما لاستمرتا الى ما شاءَ الله فرقةً واحدةً يميزهما عن النساطرة واليعاقبة ويجمعهما حرصهما الشديد على تعليم المجمع الخلقيدوني المقدس . وقد ثبتت المارونية عليه عــلى الرغم من سوء التفاهم بينهما في امر التوحيد او عدمه[٤] . يدل على صحة ذلك بصراحةٍ كلام مؤلف الهدى ومترجمه حيث يقولان : « اما الفرقة الملكية والمارونيه فادعتا ان المسيح بعد الاتحاد يوصف بانه جوهران واقنوم واحد[٥] . » وكلاهما الآخر قبل هذا مباشرة[٦] :

(١) راجع تاريخ الكنيسة المارونية للمطران ديب ، ص ١١٨ و ١٢٥ .
(٢) راجع دريان ، في المحل نفسه ، ص ١٤٧ .
(٣) في تاريخه المعروف بالسرياني ، فصل ٢ ، مقالة ١٠ ؛ (انظر ديب ، ص ١٤٣) .
(٤) طالع دريان في الموضع نفسه ، ص ٢٤٤ .
(٥) انظر الهدى ، ص ٤٤ .
(٦) الهدى ، ص ٣٢ .

« واخذ يسوع من مريم البتول الطاهرة جسداً موازياً لنا في طبيعتنا وموازياً لنا في جوهرنا الانساني ، جسما ذا نفس ناطقة ، عالمة ، واشبهنا في كل شيء ما عدا الخطية ، وولد منها ابناً واحداً ، ورباً واحداً يسوع المسيح ، اقنوماً واحداً ، وشخصاً واحداً ، جوهرين معقولين من جوهر الآب الازلي بلاهوته ، ومن جوهرنا بناسوته ، محسوساً بالجسم الانساني ، وغير محسوس باللاهوت ... »

فهل في ذلك كله ياترى ما يضاد تعليم المجمع الخلقيدوني ، او تعاليم الكنيسة الكاثوليكية ؟ ! كلا . « بل قد كان من اللازم ان ينتج عن ذلك طبيعياً تعليم المشيئتين في السيد المسيح ، كما لا يغرب عن بال احدٍ . لان قول المؤلف عن جسد المسيح انه موازٍ لنا في طبيعتنا وجوهرنا الانساني ، وانه ذو نفس ناطقة ، عالمة ، عارفة ، يدل جلياً على ان ناسوته كان كاملاً ، تاماً ، حافظاً كل خواصه ، وقواه نظير ناسوتنا البشري . وقوله الآخر ان يسوع شابهنا في كل شيء ما عدا الخطيئة ، يريد به المؤلف ان يشمل كل ما للطبع الانساني التام بدون استثناء شيء الا الخطيئة ، ومن ثم شمل ايضاً المشيئة والفعل معا ، او القوى البشرية التي يتأتى عنها ذلك . وهذا يدل عليه خاصةً قوله « انه ذو نفس ناطقة الخ[١] . »

فكأني والحالة هذه بمؤلف الهدى (او بمترجمه) يقول ضمنا انه يقبل بوجود مشيئتين في السيد المسيح اذا لم تكونا على هذا الشكل، لانه يتأتى عنه حسب اعتقاده[٢] ما يرمي الى ما هو اشنع من ضلال نسطور وبدعته الوبيلة، ولهذا أنكرَ هذا المذهب لكونه يخالف على هذا الوجه روح المجمع

(١) طالع دريان في الموضع نفسه ، ص ٢٤٥ .

(٢) ذلك لان المؤلف (او المترجم) كانا ينسبان خطاءً الخواص الى الطبيعة ، والقوى الى الاقنوم ، خلافاً للمصطلحات الفلسفية (انظر دريان ، صفحة ١٥٤) .

ذلك الاعتقاد الذي يبعد كثيراً عن اعتقاد المونوثيليين ، ويخالفهم تمام المخالفة[1]، والذي لا ترفضه الكنيسة ، ولا تعدّه هرطوقياً البتة . فاين قول المونوثيليين اذاً من اعتقاد مؤلف الهدى القائل : « ان الطبيعة الانسانية في السيد المسيح كانت تامةً كاملةً حافظةً جميع خواصها بحسب تعليم المجمع الخلقيدوني ؟ ومن هذه الخواص الارادة . ولكن هذه الارادة البشرية لما كانت متساويةً مع الارادة الالهية ، اي موافقةً لها تمام الموافقة في جميع احوالها ، جاز ان يقال فيهما ، لنفي التضاد الحاصل في طبيعتنا البشرية بعد المعصية ، ثم لنفي الاثنينية الاقنومية ، ولتأييد معنى الوحدة الشخصية في السيد المسيح ، إنهما ارادة واحدة ، لا من حيث المبدأ والقوى التي تصدر عنهما في الباطن ، بل من حيث النتيجة والمفعول الخارجي . وهذا المعنى يظهر اكثر جلاءً من الكلام الذي يلي تلك الفقرة ، وهو : « واحتجت المارونية على ذلك بقول المسيح في الانجيل الى الابرص لما جاء اليه ، وقال له : ان شئت شفيتني ، فقال له : لقد شئت . وقوله ايضاً : خذ ما استأجرتك به واذهب بسلام فقد شئتُ ان اعطي صاحبك مثلك . وقوله ايضاً :

---

(١) قال العلامة اللاهوتي الكبير الكردينال فرنسلين في كتابه عن « تجسد الكلمة » قسم ٣ باب ٦ قضية ٤٠ ما تعريبه : « ان المونوثيليين كانوا ينزعون في مذهبهم الى القول بان الكلمة بحسب طبعه الالهي انما هو المبدأ الاولي لكل الاعمال والارادات، وان الطبع البشري الذي لا عمل له بذاته انما كان يتلقى في نفسه عمل الكلمة الالهي كآلة صماء . . . ومن ثم كانوا يستنتجون من ذلك بسهولةٍ ان الفعل (او قوة الفعل) وكل ما يمكن ان يقال له عملاً انما كان يصدر عن قوة الكلمة الالهية . ولهذا فكل ما كان يفتكره المسيح او يريده او يفعله او يشعر به او يحتمله، انما كان يفعله ويحتمله الله الكلمة بنفسه وفي طبعه الالهي لانه لم يكن يفعل مثل ذلك او يحتمله لو لم يكن مبدأ العمل، هذا المركب من الطبع الالهي العامل والطبع الانساني الذي يتلقى هذا العمل الالهي في نفسه كأنه واسطة لظهوره » . (راجع ترجمته في دريان في الموضع المشار اليه، ص ٢٤٨ – ٢٤٩) .

ليس احد يفهم الآب الا الابن ، ومن يشأ الابن ان يكشف له[١] .»
فان فعل المشيئة في هذه الامثلة وغيرها من امثالها ، تارةً يصدر عن
المسيح بما انه اله ، وتارةً يصدر عنه بما انه انسان ، وفي كلا الوجهين
يصدر عن المسيح الواحد ، ويرجع اليه وحده ، بما انه ذو الطبعين
والاقنوم الواحد ، وما يشاءه بالطبع الانساني اذا لم يكن موافقاً تمام
الموافقة لمشيئة الطبع الالهي لا يمكن ان يحصل ، ويصدر عن المسيح الواحد
الفرد بالاقنومية حتى يصح ان ينسب اليه وحده في كل حال . وهذا
هو معنى قول الموارنة في هذه الفقرة « ان المشيئتين كانتا متساويتين
غير متضادتين وليس ما يمنع من القول بأنهما مشيئة واحدة » . وهذا
هو غير ما يدّعيه المونوثيليون كما يرى المتأمل . . .[٢] .

فضلاً عن ان مؤلف الهدى يشير صراحةً في الفقرة التي ندرس الى
ما رواه التلمحري [٣] من ان فرقتي الموارنة والملكية كانتا في الاصل
فرقة واحدة من فرق النصارى [٤] في سورية حتى اختلفتا [٥] في امر
المشيئة والمشيئتين اختلافاً شكلياً « بسبب سوء التفاهم بينهما والشقاق
اللذين حصلا في العقيدة في هذه السنة (اي ٧٢٧ مسيحية كقول
التلمحري عينه) [٦] ، منذ دخلت هذه البدعة حديثاً الى سورية بواسطة

---

(١) الهدى ، ص ٤٧ .

(٢) انظر دريان ، في المحل نفسه ، ص ٢٤٨ .

(٣) في تاريخ ابن العبري السرياني ، ف ٢٠ ، مقالة ١٠ ، (انظر دريان ، صفحة ١٤٤ — ١٦٦) .

(٤) عدّدها مؤلف الهدى في هذا الفصل ، وذكر حجج كل فرقةٍ منها ، فانظرها هنـاك في ص ٣٧ و ٣٨ و ٣٩ حيث يذكر عشر حجج للنساطرة ، وفي ص ٤٢ حيث يذكر تسع حجج لليعاقبة ، وفي ص ٤٦ حيث يذكر فرقة الملكية والمارونية واختلافهما في هذا الامر وحجة كلٍ منهما .

(٥) انظر الهدى ، ص ٣٨ و ٤٦ .

(٦) طالع ابن العبري ، في الموضع المشار اليه .

الفصل في مكانه يؤلف لحمةً بين اول الكتاب وآخره ، وينشيء وحدة ادبية رائعةً بينهما . واذا حُذف زالت اللحمة بين شطري الكتاب وفُقدت حلقةٌ جوهرية تربط جزئيه احدهما بالآخر ربطاً محكماً .

اما الفقرة التي اوردناها في صدر هذا العدد، فقد وضع علماء طائفتنا الاعلام ، ومؤرخوها الثقة ، مصنفات ضخمة درسوا فيها تاريخ الطائفة ومعتقدها القديم درساً عميقاً ، وافاضوا في شرح هذه الفقرة مدققين . منهم العلماء : مرهج بن نمرون الباني المتوفى سنة ١٧١١ بعد ثمانين عاماً قضاها بالدرس والتنقيب [١] ، والسمعاني الكبير [٢] ، والبطريرك بولس مسعد [٣] ، والبطريرك اسطفان الدويهي [٤] ، والمطران يوسف الدبس [٥] ، والمطران يوسف دريان [٦] ، وغيرهم كثيرون ممن هم حجة في هذا الموضوع .

وهاك ايها المطالع الحصيف ما قاله العلامة نمرون الباني ، في الموضع المشار اليه ، شارحاً معنى هذه الفقرة ، قال : « اذا قال الموارنة احياناً بمشيئة على ما روى المطران داود الماروني صاحب ترجمة « الهدى » فانهم اذ ذاك انما يعتبرون اسم « مشيئة » اتفاق المشيئتين على موضوعٍ واحد بالتساوي والتراضي ، وليس بالنظر الى القوة التي يعتقدونها اثنين ، وهي الالهية والانسانية . . وهذا المعنى نفسه قد قاله على وجه التقريب صاحب كتاب المجموعات المارونية [٧] ... وعليه

---

(١) في مقالته اللاتينية وعنوانها : De origine, nomine, ac religione maronitarum, Romae, 1679. p. 90 — 95.

(٢) في مكتبته الشرقية ، مج ١ ص ٥٠٨–٥١٤ و ٦٢٩، ومج ٢ ص ٦٧–١٨١ .

(٣) في كتابه « الدر المنظوم » .

(٤) في كل موءلفاته، ولاسيا «الاحتجاج» الذي وُضع ذوداً عن معتقد الموارنةالقويم.

(٥) في الجامع المفصل . . . وروح الردود وخصوصاً ص ١٠٠ وما يليها .

(٦) راجع لبابه خصوصاً، ص ٢٤٣ — ٢٥٢ .

(٧) راجع كلام صاحب المجموعات في اللباب للمطران دريان ، ص ٢٥٠–٢٥١، وقد اقتصرنا عن ذكره خوفاً من الاملال والتطويل .

فيتحصل من هاتين الشهادتين ، ان الذين يقولون بالمشيئة الواحدة على هذا الوجه لا يريدون ان في المسيح مشيئة مفردة تماماً ، ولكن ان ليس فيه ارادتان متضادتان مختلفتان ، بل ان الارادة البشرية تخضع تماماً للارادة الالهية ، وتتمم اوامرها . وهذا معنى كاثوليكي محض ، بشهادة المجمع السادس العام الذي جاء في جلسته السابعة عشرة قوله : « اننا نقرّر ، بكل صوابٍ على مقتضى تعليم الآباء ، فعلين طبيعيين بلا افتراق، وارادتين طبيعيتين غير متضادتين ، ولا مختلفتين ، تنزّه الله تنزهاً كبيراً عما قال الهراطقة المنافقون ، بل ان ارادته البشرية مواليةٌ ، وغير معاندةٍ ، ولا محاربة ، او بالاحرى خاضعة لارادته الالهية القديرة، لانه كان من الواجب ان تتحرك ارادة جسده وتخضع ايضاً لارادته الالهية كقول اتناسيوس الحكيم النحرير ... [١] .

وهذا المعنى ، وقد أُعتبر كما رأينا كاثوليكياً ، هو الذي عناه مؤلف كتاب « الهدى » او مترجمه ، في الفقرة المذكورة : وقالت الطائفة المارونية : هاتان المشيئتان اللتان ادعيتموهما لا تخلوان ان تكونا اما متساويتين او متضادتين . فان كانتا متساويتين في جميع حالهما عاد الامر الى مشيئة واحدة ، وان كانتا متضادتين جاء عن ذلك ان يكون الجوهر الالهي يشاء ما لا يشاءه الجوهر الانساني ، وكذلك الجوهر الانساني يشاء ما لا يشاءه الجوهر الالهي . واذا حصل ذلك وقع التباين ، والتضاد ، وحصلا اثنين ، وبطل حكم الاتحاد ، وصار الثالوث رابعاً ، وآل الامر الى رأي نسطور ...[٢]»

فهل اصرح من هذا الكلام في ايضاح ما كان يعتقده مؤلف الهدى ، من هذا القبيل ، في تلك العصور النائية الكثيرة الغموض ؟

---

(١) راجع في دريان ، الموضع نفسه ، ص ٢٤٩ — ٢٥١ .

(٢) راجع قبلًا ، ص ١٧٩ — ١٨٠ ؛ وفي الهدى ص ٤٦ — ٤٧ .

جبل لبنان ولا من خارجه ، ولم يتصل قط بالموارنة ، وانما كان نسطورياً بحتاً من اهل العراق . واول من اثبت ذلك العلامة السمعاني الكبير حيث قال ما ملخصه[١] : « كان ابو الطيب قساً نسطورياً نبغ في القرن الحادي عشر ، وكان كاتباً لأيليا الاول بطريرك النساطرة ، وانه كان عراقياً بحتاً ولد في بغداد . ثم قال : ومما يثبت كونه نسطورياً المكان الذي ولد فيه ، والامة التي نشأ فيها ، وكونه جُعل كاتباً لبطريرك النساطرة . ثم ما جاء في كتبه من الانتصار لمذهب النساطرة . ثم شهادة ابي البركات تلميذه ، وابن العبري وكلاهما يدعوه نسطورياً على الدوام . زد على ذلك انه لم يذكر الموارنه قط في كل تآليفه العديدة . »

اما الرأي الثالث ، وهو الارجح والمعقول ، فهو للمطران يوسف دريان[٢] ، تابعه فيه حديثاً العلامة جورج غراف كما جرى بيانه . والبرهان على ذلك ما جاء به المطران دريان تأييداً لرأيه حيث قال : « لقد رأيت في خطاب الاب يوسف وجواب المطران داود الماروني عليه المصدَّر بهما كتاب الهدى ان هذا الكتاب « الهدى » على قولهما ، كما بيَّنا ، ينسَب الى الاب القديس . ولدى مطالعتنا هذا الفصل وجدنا كاتبه يستشهد ايضاً بكلام الاب القديس مرتين : اولاهما في كلامه عن التثليث[٣] اذ قال : « وقال الاب القديس ان النطق الذي هو الكلمة اي الابن هو غير الروح التي هي الحياة في الوصف والخاصية وليسا في الجوهوية ... »

« وثانيتهما بعيد ذلك حيث قال[٤] : « وقال الاب القديس ان

---

(١) انظر المكتبة الشرقية للسمعاني ، مج ٣ ، ص ٥٤٤ .

(٢) في لبابه المشار اليه ، ص ٢٣٠ وما بعدها .

(٣) راجع الهدى ، ص ٣٠ .

(٤) راجع المصدر نفسه والصفحة عينها ايضاً .

الجوهر هو الاقانيم ، والاقانيم هي الجوهر ، ولو كان الجوهر غير الاقانيم لكان رابعاً لها وليس هناك رابع ، ومن اثبت الرابع ابطل التثليث ... »

وهذا يدل بصراحةٍ على ان المترجمَ « المطران داود الماروني » قد عرَّب هذا الفصل عن اصلهِ السرياني ، وكان قبلا مقتضباً جداً ، فتوسّع فيه شرحاً وايضاحاً ، وزاد عليه تفاسير متنوعة مع تغييرٍ وتبديل في الترتيب حتى صار يُعدّ من نفثاته وعندياته ، والا فلا يفهم كيف ان الاب القديس يستشهد بالاب القديس ايضاً كما رأيت ؟ !

ولا شيء يمنع البتة ان يكون المترجم « المطران داود » هو الجامع لهذا الفصل ، والشارح والمتمم له ، لِما بين الشرح والمتن من وحدةٍ تعبيريةٍ شديدة كما هو ظاهر جلي .

ومما يسند رأينا هذا ان واضع هذا الفصل الاول يستشهد بكلام ابي الفرج النسطوري[١] . وابو الفرج هذا انما كان في القرن الحادي عشر وتوفي حسب قول ابن العبري الشهير في سنة ١٠٣٤ مسيحية ، اي قبل ترجمة الهدى بنحو اربعة وعشرين عاماً فقط . وواضع كتاب الهدى كان قبل هذا العهد بمدةٍ طويلة كما اثبتنا فيما سلف . فيكون اذاً ان « المطران داود الماروني » تصرَّف بهذا الفصل حين عرَّبه تصرفاً جوهرياً مع تبديلٍ وتغيير او حذف حتى عدَّ هذا الفصل من عندياته .

لكن اذا اراد اصحاب هذا الرأي جعل المطران داود هو المؤلف الحقيقي المطلق لهذا الفصل فلا نسلّم بذلك اطلاقاً ، لان وجود هذا

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٩ .

عدا الملكية والمارونية اللتان عدّهما فرقةً واحدةً اذ قال فيهما : « ثبتت هذه الفِرَق اربعاً . على ان الملكية والمارونية اللتين ذكرناهما انما هما فرقة واحدة ورأيهما في الاتحاد والجوهر والاقنومية رأي واحد . . . »

وجاء ايضاً في الهدى[١] قبل هذا ما يلي : « واخذ يسوع من البتول الطاهرة مريم جسما موازياً لنا في طبيعتنا وموازياً لنا في جوهرنا الانساني ، جسما ذا نفسٍ عاقلةٍ ناطقةٍ عالمةٍ ، واشبهنا في كل شيء سوى الخطية ، وولد منها ابن واحد ورب واحد يسوع المسيح اقنوم واحد وشخص واحد ذو جوهرين معقولين ، هو اله وانسان ، معقولين من جوهر الآب بلاهوتهِ ومن جوهرنا بناسوته ، محسوس ومحدود بالجسم الانساني الزماني وغير محسوس ولا محدود باللاهوت الازلي . . »

وهذا الفصل من كتاب الهدى ذو اهمية كبرى ، يبتدى ص ٢٢ منه ، وعنوانه : « القانون الاول في الايمان » ، وينتهي ص ٤٨ ، حيث يتكلم عن « قانون الصلاة » . وقد شغل عقول المؤرخين والكتبة الذين وضعوا عنه الفصول الطوال :

فمنهم مَن قال انه حُرّف ونسب تحريفه الى المطران توما الكفرطابي ، اسقف كورة حلب[٢] . ومنهم مَن عزا تأليفه على ما هو عليه الى ابي الفرج عبدالله ابن الطيب العالم النسطوري ، وهو من كتبة القرن الحادي عشر . ومنهم مَن نسب تأليفه بكامله الى المطران داود الماروني ، مترجم كتاب الهدى[٣] .

---

(١) ص ٣٢ .

(٢) راجع ما قيل عنه وعن بلدته ، في تاريخ الكنيسة المارونية للمطران ديب ، ص ٢٤ و ١٣٥ ؛ وفي المنارة في عددها السابع ، سنة ١٩٣٦ . وانظر : R. Dussaud, Topographie historique de la Syrie antique et médiévale, Paris, 1927, p. 178 suiv.

(٣) انظر ذلك في اللباب للمطران دريان ، ص ٢٣٠ .

على ان الرأي الاول ، وقد اعتمده العلامة البطريرك الدويهي بادىء ذي بدءٍ ، في كتابهِ المطبوع في بيروت [١] ، قد عدل عنه من تلقاء ذاته بعد الدرس والتنقيب ، وغيّره برأي آخر عندما وقف على نسخة الهدى الاصلية المحفوظة الآن في مكاتب روما وباريس ، والتي نشرناها بالطبع سنة ١٩٣٥ للاطلاع عليها ، ووضع الدراسات الوافية فيها [٢] .

ولكنَّ الدويهي لما انكر رأيه الاول ومال الى ابتكار الرأي الثاني [٣] ، حذف كل ما كان قد كتبه بشأن الكفرطابي ، وكتب سواه فصلاً جديداً ذكره في كتابهِ [٤] أيضاً ، عازياً التأليف الى ابي الفرج عبدالله ابن الطيب ، ظناً منه « ان ابا الطيب كان مارونياً في الاصل ، وخدعته مطالعة كتاب سعيد بن البطريق من جهة اعتقاد الموارنة بالمشيئة الواحدة فتمسك بذلك ، ونفي من لبنان الى العراق حيث اقام يؤلف رسائل واعتقادات ، ويبعث بها الى اهل لبنان طمعاً في أن يجذبهم الى رأيه ، ومن ذلك هذا الفصل من كتاب الهدى . »

بيد ان هذا الرأي الآخر ايضاً لا يثبت على محك النقد ، وقد اتى العلامة دريان بالبرهان في لبابه [٥] ، فقال : « لانه من الثابت الآن عند اهل التحقيق ان ابا الفرج هذا لم يكن في الاصل مارونياً من

---

(١) سنة ١٨٩٠ ، ص ٣٤١ .

(٢) وقد اتى المطران دريان ببرهانٍ قاطع على نفي الرأي الاول في كتابه المذكور ص ٢٣١ ، من الفرق الكبير القائم بين تعبير المطران توما وتعبير مترجم الهدى واختلاف الرواية بينهما ، وقد سبق الكلام بالتفصيل عن هذا الموضوع .

(٣) لانخداعـهِ بوجود أثرٍ تاريخي مزيف من تأليف ابي الفرج المذكور كما أشار المطران دريان الى ذلك في لبابه ، ص ٢٣٥ .

(٤) « الاحتجاج » ، ص ٣٤٤ .

(٥) ص ٢٣٤ .

البطاركة الذين سلفوا ارميا العمشيتي هذا، حتى سنة ١١٨٣، «كانوا معروفين من البطريركية اللاتينية الانطاكية كاصحاب حقوقٍ ممتازة، لانهم كانوا محسوبين هم وطائفتهم من الكاثوليك، والا فاية عاداتٍ مألوفة في الكنيسة المارونية يثبتها لهم الحبر الاعظم بهذا الكلام»[١]؟

ويضيف سيادة المطران بطرس ديب الى ذلك قولهُ[٢]: «ويؤكد هذه النتيجة ايضاً الكردينال يعقوب دي فيتري الذي مرّ ذكره: فهذا المؤرخ بعد ان سرد حادث الارتداد المزعوم الذي عيَّنه غليلموس الصوري، وقد فندناه، يتكلم عن البطريرك ارميا، واشتراكه الفعلي في المجمع اللاتراني الرابع، ويذكر مقامَهُ السامي الذي كان محفوظاً بين الحاضرين، ولم يشر اطلاقاً باية كلمةٍ الى ذكر الارتداد الذي زعموه على عهد البابا زخيا الثالث، بل بالعكس يذكر الموارنة، ويطنب بتعلقهم الوطيد بالكرسي الرسولي، ويعتبر سفر البطريرك ارميا المذكور الى روما نتيجةً لهذا التعلق المتين بها، وليس لاصلاح الغلط في الاعتقاد كما رأينا.»

اما ما يُحمل على الاسف فهو ان هذه الرسالة قد أُسيءَ فهمها، ثم اصبحت مستنداً يرجع اليها في كل أمرٍ يتعلق بالموارنة، كما ابان ذلك البحاثة العنيسي في كتابه[٣] فبُنِيت آراءٌ كثيرة على خطاءٍ.

كما ان الاب ايرونيموس دنديني الذي كان معتمداً رسولياً في الشرق سنة ١٥٩٦، ذكر هذه الرسالة في كتابهِ «رحلة الى الشرق»[٤]

---

(١) راجع دريان ص ٣٣٣ – ٣٣٤، من اللباب المذكور.

(٢) في الموضع المشار اليه، ص ١١٠.

(٣) مجموعة الرسائل المارونية، ص ٩ – ١٢، (Collectio Docum. Maronit)

(٤) أُنظرها فيه وقد دعاها بالايطالية ما تعريبه: «رسالة رسولية الى البطريرك والشعب المارونيين في جبل لبنان» اي Missione apostolica al Patriarca e Maroniti del Monte Libano. وهذا الكتاب مطبوع سنة ١٦٥٦، ص ٩٨–٩٩.

واستقى منها كل المعلومات التي ذكرها عن الموارنة ، وقد بيّنا فسادها وبطلانها .

***

واخيراً بقي ان نقول في هذا المبحث **كلمة موجزة عن الفقرة التي وردت في كتاب الهدى**[١] بشأن معتقد الموارنة بالمشيئة والمشيئتين ، وقد اتخذها الخصوم برهاناً على تأكيد زعمهم بان الموارنة كانوا من اصحاب المونوثيلية ، وهذه الفقرة هي الآتية :

« الا ان الملكية اختلفت هي والمارونية في المشيئة والمشيئتين[٢]. فقالت الملكية ان المسيح ذو مشيئتين للجوهرين مشيئة الهية للجوهر الالهي ومشيئة انسانية للجوهر الانساني . فقالت المارونية بل هي مشيئة واحدة للجوهرين ... وقالت : هاتان المشيئتان اللتان ادعيتموها في المسيح لا تخلوان من ان تكونا اما متساويتين او متضادتين . فان كانتا متساويتين في جميع حالهما عاد الامر الى مشيئة واحدة ، وان كانتا متضادتين ، حاشاه من ذلك ، فيكون ان الجوهر الالهي يشأ ما لا يشاءه الجوهر الالهي . واذا حصل ذلك وقع التباين والتضاد وحصلا اثنين (اي اقنومان) وبطل حكم الاتحاد ، وصار الثالوث رابعاً ، وآل الامر الى رأي نسطور ، وما ادعاه في السيد المسيح ... هذا هو ايمان البيعة الرسولية الجامعة واصول واعتقادات جميع اولادها في الايمان بالآب والابن والروح القدس الاله الواحد . »

وكان مؤلف الهدى قد ذكر قبلاً[٣] الفِرَق وعدّها اربعاً ما

---

(١) انظر « الهدى » ، ص ٤٦ — ٤٧ و ٤٨ .

(٢) هذه العبارة وردت في مخطوط المكتبة الانجيليكا الايطالية غير ما هي عليه في النص الوارد في مخطوط الواتيكان ، على الوجه الآتي : « الا ان الملكية يتفقوا مع المارونية في نطق المشيئتين للجوهرين ، مشيئة الهية ومشيئة انسانية ، وقالت المارونية هكذا مشيئتين ايضاً ذو جوهرين ... »

(٣) ص ٣٨ .

ولكن يضاد ذلك انه لم يكن للموارنة في ذاك العهد بطريرك باسم لوقا كما يدّعي الواهمون [١] . كما ان السبب في سفر البطريرك ارميا العمشيتي الى روما لم يكن قط لتدارك الخطأ المزعوم ، بل كان بناءً على الدعوة الخاصة التي وجّهها اليه قداسة الحبر الاعظم البابا زخيا الثالث لكي يشترك في المجمع اللاتراني والقرارات والاحكام [٢]. وهكذا فتكون قضية الخصوم باطلة لانها مبنيّة على الوهم .

اما بالنسبة الى الكلام البابوي الذي اوردناه فيما سلف ، « فكل مَن امعن النظر فيه ، يرى ان البابا زخيا لم يقصد من كلامه هذا عن الموارنة انهم كانوا في ضلال اعتقادي او هرطقة ، كما يدّعي بعض الخصوم [٣] ، بل جلّ ما هناك أن قداسة البابا طلب منهم ان يبرزوا يمين الطاعة والخضوع للكرسي الرسولي على الدوام ، بمقتضى الصورة التي يتلوها الاساقفة الكاثوليكيون ، عند اللزوم [٤] ، لان الضلال المشهور المقرون بعنادٍ مشهور يستوجب توبةً صريحة ، ورجوعاً مشهوراً ، وخضوعاً علنياً ، ثم حلًا بالسلطان الباباوي الرسولي من حرم

---

(١) انظر تاريخ الكنيسة المارونية للمطران ديب ، ص ١٠٧ ، حيث يثبت سيادته ان ما جاء بهذا الخصوص في زجليات ابن القلاعي ، في القرنين ١٥ و ١٦ ، لا يتعدى ان يكون حكايات ذات صبغةٍ دينيةٍ مؤثرة ، يخلط فيها بين التاريخ والاساطير ، قصدَ التأثير في عقلية مواطنيه الموارنة ، لئلا ينخدعوا بضلال الدراطقة والمبتدعين الذين حولهم . ومن هذه الزجليات نسخٌ عدة في مكتبة الواتيكان ، تحت رقم ٢١٠ و ٦٤٠ و ٦٤١ من القسم السرياني ، فيمكن مراجعتها فيها .

(٢) انظر مجموعة الرسائل المارونية ، للعنيسي ، وقد سبق ذكرها ، ص اولى .

(٣) راجع لباب البراهين الجلية . . . للمطران دريان ، ص ٣٣٢ .

(٤) فلو كان الموارنة كما يدّعي الخصوم ، محسوبين من المبتدعة كاليعاقبة والنساطرة والاريوسية والمونوثيلية الخ لما اكتفى المعتمد الرسولي بذلك القسم البسيط وتأدية الطاعة للحبر الاعظم التي تؤدّى في كل ظرفٍ بسيط ، ولا كان البابا عدّه كافياً لاعتبار الموارنة من غنم رعية المنضوين الى حظيرته المقدسة ولا اشار ، مثنياً ، الى عادات الموارنة وبطاركتهم المألوفة الحميدة .

الهرطقة بنوعٍ مشهور ايضا . وكل هذا لم يحصل له أثرٌ البتة ، لا في براءة البابا نفسه ، ولا في محلٍ آخر ، مما يدل على ان الموارنة لم يكونوا معدودين كذلك ، وانما كانوا على ما كانوا عليه عن نية صالحة وجهلٍ معذور ، ولم يكن في تعليمهم ما يخالف روح تعليم الكنيسة الرومانية » ولا المجمع الخلقيدوني لانهم سميوا كذلك كما رأينا[١].

ومما يؤيد قضيتنا ما جاء في آخر رسالة البابا زخيا المشار اليه الى البطريرك الماروني عن تثبيت عادات اسلافهِ الفضلاء ، حيث قال : « بعد اثبات ما كان معروفاً لـك ولاسلافك ايضاً حتى الآن في الكنيسة الانطاكية من العادات **المالوفة** نسمح باستعمال الباليوم اي درع التثبيت ، متخذين الكنائس المقامة في نواحيكم تحت حماية القديس بطرس وحمايتنا ... ونقرّر لها بخطنا هذا الانعام بأن يلبس الاحبار المنصَّبون في حدود الموارنة الملابس والشارات الحبرية ... »

فهذا الكلام البابوي يدلّ بصراحةٍ على صحة ما قلناه من ان

---

(١) انظر « المقالات العشر » للمطران نوما الكفرطابي التي نشرها بالطبع حضرة العالم الاب فيليب السمراني في « المنارة » في العدد السابع ، سنة ١٩٣٦ .

وهنا يجدر الانتباه الى ان حضرة الاب السمراني المذكور قد وضع كتاباً ممتعاً عن الموارنة سماه « الكنيسة المارونية » وذلك في عام ١٩٥٠ بالقاهرة ، قسمه الى اربعة اقسام : في الاول تناول بايجاز تاريخ الموارنة . وفي الثاني تكلم عن الخدمات التي قدمها الموارنة في جنب الكنيسة الكاثوليكية ولاسيما المساعدات التي قدموها للطوائف الشرقية من ارمن وسريان وروم كاثوليك واقباط وكلدان وبعض مـا صنعوه مع المرسلين اللاتين . وفي الثالث تكلم عن علماء الموارنة وما لهم من فضل عـلى النهضة العلمية في الشرق والغرب . وفي الرابع تكلم عن الطقوس المارونية والحالة الكنسية الحاضرة .

كما يجدر الانتباه الى الكتاب الآخر الذي وضعه حضرة الفاضل الخوري ميخايـل الحكيم عن الموارنة وسواهم ، في القاهرة ، سنة ١٩٥١ ، سماه « تاريخ الكنيسة » . فنحيل القارئ الكريم اليها ليقف على مضمونها لما فيها من فائدة جليلة ، مظهرين تأسفنا لعدم وصولنا اليها الا بعد الانتهاء من وضع القسم الاكبر من كتابنا هذا .

اتخذها خصوم الموارنة براهين قاطعةً لاثبات زعمهم بهذا الشأن . وهذا نصها معرّباً عن اللاتينية (١) :

« ولكن عندما ارسلنا ، من مدةٍ الى نواحيكم ، الصالح الذكر الكردينال بطرس نائبنا في الشرق ارتجعتم الى راعيكم واسقف كنائسكم ، وعرفتمونا حبراً اعظم للكنيسة باسرها ونائب يسوع المسيح . . . وبما انك كنتَ ايها الاخ البطريرك ، في ذاك الزمان في طرابلس امام الكردينال المذكور ، انت وبعض معاونيك من الاساقفة والقسوس والعلمانيين قد اقسمتم بتمام الرضى المطلق ان تؤدوا واجب الطاعة ، والاحترام ، والتقوى ، للكنيسة الرومانية ولنا ولخلفائنا ، على مقتضى الصورة التي بها يتعهد المطارين بالطاعة للكرسي الرسولي ، وبما ان الكردينال قد فهم ما نالكم من الشوائب في بعض الامور ، فقد اعتنى باصلاح ذلك عندكم بملء السلطان الرسولي ، حاتماً ان تعتقدوا من الآن فصاعداً اعتقاد الكنيسة الرومانية ... »

وهنا تكلم قداسته عن انبثاق الروح القدس وصورة التعميد ، واختصاص الاساقفة باستعمال سر التثبيت ، وتكريس الميرون ، وضرورة الاعتراف ولو مرةً في العام ، واقتبال القربان المقدس مراراً في السنة ، وعدم استعمال آنية من خشب او زجاج او نحاس في القداس ، واستعمال النواقيس لتحديد الاوقات ، والاعتراف بالمشيئتين في السيد المسيح بقوله : « ان تعترفوا بمشيئتين في الرب اي الالهية والانسانية . ثم اننا ايها الاخ البطريرك ، بعد اثبات ما كان معروفاً لك ولاسلافك

---

(١) انظر درساً ضافياً عن هذا الموضوع في تاريخ المطران دريان المعروف «بلباب البراهين الجلية في امر الطائفة المارونيه» ص ٣٢٧ - ٣٣٩ ، حيث تجد ترجمة الرسالة كاملة ؛ وايضاً في تاريخ « الكنيسة المارونية » لسيادة المطران بطرس ديب ، ص ١٠١ - ١١٢ .

ايضا حتى الآن في الكنيسة الانطاكية من **العوائد المألوفة** ، نسمح لك ولخلفائك باستعمال الباليوم الذي هو ملء الخدمة الحبرية . »

ان من يطالع هذا الكلام يقطع بأن الموارنة رجعوا الى حضن الكنيسة الرومانية على عهد البابا زخيا الثالث (١١٩٨ — ١٢١٦) صاحب هذه الرسالة ، على يد نائبه الكردينال بطرس ، في مدينة طرابلس ، وذلك في سنة ١٢٠٣ كما رأيت[١] . وهذا ينقض تماماً شهادة الاسقف غليلموس الصوري المار ذكرها في الاعتراض السابق ، القائلة ان رجوع الموارنة تمَّ في سنة ١١٨٠ — ١١٨١ على يد البطريرك اللاتيني الثالث أموري .

فكيف يوفق الخصوم ياترى بين هذين الرأيين المتناقضين ، وبماذا يجيبون ؟ !

انهم يقولون ، وقولهم غير مثبت ببرهانٍ قاطع[٢] ، إن الاتحاد الاول الذي تمّ على يد البطريرك أموري اللاتيني لم يدم طويلاً ، اذ انقطعت اوصاله على عهد البطريرك لوقا الماروني المتوفى سنة ١٢٠٩ . ولما خلفه البطريرك أرميا الذي نحن بصدده ، واطّلع على خطأ سلفه المذكور ، بادر حالاً الى اصلاحهِ ، فسافر الى رومـا لحضور المجمع اللاتراني المنعقد عام ١٢١٥ كما قلنا ، وعاد منها الى لبنان مع معتمد رسولي يوطّد صلات الموارنة بالكرسي الرسولي نفسه[٣] .

---

(١) انظر : L. Bréhier, l'Eglise et l'Orient au Moyen-âge ; Les Croisades ; p. 184 ; cfr. Pierre Did, L'Eglise Maronite... p. 107.

(٢) انظر المطران بطرس ديب ، في الموضع نفسه ، ص ١٠٧ .

(٣) طالع فاليه : S. Vailhé, Origines réligieuses des Maronites. dans « Echos d'Orient » t. IV (1901), p. 161. ولكن ما يثبت بدون برهان حسب القول المأثور عند اللاتين ، يدحض بدون برهان ايضاً .

الموارنة كانوا بعيدين عن التعليم الكاثوليكي ، ويعترفون بالمونوثيلية ، مستمدين برهانهم مما كتبه سعيد بن البطريق اولاً ، وغليلموس الصوري ثانياً . وقد قال يعقوب دي فتري المشار اليه ، في معرض كلامهِ عن الموارنة ، في تاريخه المذكور ، في الفصل الـ ٧٧ ، مترجماً عن اللاتينية ، ما يلي :

« ان اناساً غير قليلي العدد كانوا يسكنون حوالي مشارف لبنان في مقاطعة فينيقية ، مما يناوح جبيل ، فهم مدربون على الرماية بالقوس والسهام ، ويقال لهم موارنة ، نسبةً الى زعيمهم ، وهو رجلٌ يدعى مارون كان يقول بارادةٍ واحدة وفعلٍ واحد في السيد المسيح ... ومارون هذا قد تبعه في غوايته كثيرون سمّوا لذلك موارنة . وقد استمروا زهاء خمسمائة سنة منبوذين من الكنيسة ومن شركة المؤمنين . . . ولكنهم رجعوا الى هداهم بعد ذلك بحضرة هيماريك اللاتيني ، البطريرك الانطاكي... وانهم يحفظون عوائد اللاتين ، وطقوسهم ، للدلالة على طاعتهم ، وبطريركهم قد حضر المجمع اللاتراني العام ... »

فمن يا ترى يطالع هذه الشهادة ولا يصرّح فوراً بأن صاحبها انما قد أخذها برمتها عن غليلموس الصوري ، وليسَت هي من عندياته قطعياً ! ? « إلاّ ما ذكره في آخرها ، وفيه شهادة باهرة ، كقول العلامة دريان [١] ، على أن الموارنة كانوا يستعملون ما يستعمله اللاتين من طقوس . وكلامه هذا أقدم من عهد البطريرك ارميا العمشيتي ، وبراءة البابا زخيا الثالث ، المؤرخة في سنة ١٢١٥ » التي سَنتكلم عنها بعيده ، لعلاقتها المباشرة بموضوعنا الحالي .

* * *

---

(١) راجع لباب البراهين الجلية ... ص ٣٠٧ .

ونختم هذا المبحث ، في الاعتراضات ، بما جاء في هذه الرسالة[١] التي وجهها البابا اينوشنسيوس الثالث ، وقد عُرف باسم زخيا ، الى البطريرك الماروني ارميا العمشيتي المنتخب بطريركاً في سنة ١٢٣٠ ، يدعوه بها الى حضور المجمع اللاتراني الملتئم في ١١ تشرين الثاني من عام ١٢١٥ ، في كنيسة مار يوحنا لاتران بروما . وقبل مغادرة البطريرك للمدينة الخالدة ، وضع بيده البابا زخيا المشار اليه ، الرسالة المشهورة : « اينوشنسيوس الاسقف خادم خدام الله الى الاخوة المكرمين ارميا البطريرك ، ورؤساء الاساقفة ، والاساقفة ، والى الابناء المحبوبين رؤساء الاديورة ، والاكليروس ، والشعب الماروني ... »

وهذه الرسالة المؤرخة في اليوم الثالث من كانون الثاني سنة ١١٢٥ مسيحية[٢] ، وردت فيها بعض عبارات غامضةٍ فيما يتعلق بمعتقد الموارنة .

---

(١) ان هذه الرسالة المجمعية قد ارسلها البابا المذكور الى جميع البطاركة والاساقفة الشرقيين ، وبدوءها « كرم الرب الصباوت » وقد اكتشفها البحاثة المرحوم الآباتي طوبيا العنيسي احد رهباننا العلماء ، ونشرها في مجموعته اللاتينية المطبوعة في روما ، سنة ١٩١١ ، ص ٢ – ٣ ، وعنوانها :

« Collectio Documentorum Maronitarum. »

(٢) يقول البحاثة العنيسي في « سلسلته التاريخية » المطبوعة بالعربية في روما سنة ١٩٢٧ ، ص ٢٠ ، ما يلي : « ان تاريخ الرسالة المشار اليها وُضع قبل التئام المجمع . والظاهر ان البطريرك ارميا حين بلغه امر البابا سنة ١٢١٣ ليحضر المجمع ، جاء حالاً الى روما وخاطب البابا بشأن عوائد الكنيسة المارونية ، فكتب قداسته الرسالة قبل انعقاد المجمع وسلَّمها الى البطريرك عند براحه روما . ويثبّت قداسته بتلك الرسالة كرسي البطريرك في كنيسة سيدة يانوح وكل العوائد المألوفة في الكنيسة الانطاكية ويمنحه درع التثبيت ... ويذكر قداسته في الرسالة التقاء الكردينال السيد بطرس نائبه في الشرق بالبطريرك ارميا المذكور في طرابلس ، وكان قداسته قد ارسله مع الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢ – ١٢٠٤) الى الشرق في سنة ١٢٠٢ . »

يكتب عنهم (اي الموارنة) انهم امتثلوا اوامر البابا وادّوا له يمين الطاعة ، وفعل الخضوع ، شأن الشعوب المسيحية ، ورؤسائها ، وكهنتها ، في كل انحاء العالم .

وهذا الأمر لم يكن غريباً في الكنيسة الكاثوليكية ، بل حصل نظيره ، من قبل ، سنة ١١٣١ ، على اثر شقاقٍ شجر بين الكرادلة بشأن انتخاب بابا جديد بحضور الكردينال غليلموس (وهذا هو غير اسقف صور) معتمد الكرسي الرسولي في سوريا[١] ، فانتخب بعض الكرادلة البابا الشرعي اينوشنسيوس الثاني ، ويقال له زخيا ، وبعضهم الآخر انتخبوا انكليطوس الثاني بابا آخر غير شرعي (اي دخيل) .

وهذا التفسير يطابق كل المطابقة لفحوى الفصل الذي جعل عنوانه ، كما رأينا : في موت نور الدين وتركه الموصل ميراثاً لاحد اقاربه الدمويين[٢] . وكل تخريجٍ غير ما ذهبنا اليه ، او تفسيرٍ لما في موضوعات هذا الفصل من اضطراب ، وضعف لحمةٍ ، ومخالفة للعنوان ، يبدو غير منطقي ، ولا يوضح الاسباب التي أدت الى هذا الاضطراب[٣] .

وهكذا يبين جلياً ، من كل ما قلناه عن غليلموس ، ان الموارنة

---

(١) وهذا ظاهر من رسالةٍ كتبها ابن القلاعي سنة ١٤٩٤ الى البطريرك سمعان الحدثي ، كما ذكرها العلامة الدويهي في كتابهِ « الاحتجاج » المحفوظ في المكتبة الواتيكانية ، رقم ٣٩٥ من القسم السرياني ، ص ٩٢ و ٩٨ . ويقول ابن القلاعي في هذه الرسالة انه استقى روايته هذه من مخطوطٍ قديم لا يرتقي الشك الى تاريخيتهِ ابداً ، محفوظٍ في خزانة الكتب في بكركي ؛ وفي الواتيكان معاً ؛ (راجع تاريخ المطران ديب المشار اليه ، ص ٩٨) ؛ وانظر لباب البراهين الجلية للمطران دريان ، ص ٣٠١ ، حيث يذكر فحوى هذه الرسالة ويعقب عليها باستفاضةٍ ، وكذلك ص ٣١٢ .

(٢) راجع ما قلنا عن هذا الموضوع ، ص ١٦١ فصاعداً .

(٣) انظر السلسلة التاريخية لبطاركة الطائفة المارونية ، للآباتي طوبيا العنيسي ، ص ١٩ ، في الحاشية ؛ وتاريخ المطران بطرس ديب ، ص ٩٨ .

كانوا منذ نشأتهم حراصاً على معتقدهم الكاثوليكي القويم ، ولم يجنحوا البتة الى اية هرطقة ، بل بعكس ذلك كانوا يفتخرون ، على تمادي الاجيال ، بتعلقهم الوحيد باهداب الدين وكرسي روما الخالدة على مدى الادهار . وغليلموس كان ، بعد البطريق ، الينبوع الذي استقى منه الاخبار كل المؤلفين من افرنج وسواهم ، فبنوا على ضلالٍ ، واصبحت اقوالهم جميعها كشهادةٍ واحدة ، لانها مبنية على اصلٍ واحد . نذكر من هؤلاء :

يعقوب دي فتري (+ ١٢٤٠) . فهذا المؤرخ(١) أُقيم مطراناً على عكا سنة ١٢١٨ ثم كردينالاً سنة ١٢٢٩ . ولرفعة مركزه ومقامه في الكنيسة الكاثوليكية ، كان لكتاباته العديدة تأثير كبير في نفوس المؤلفين الذين جاؤوا بعده ، ينهلون من معينه الزاخر ، نظير مؤلف المخطوط المحفوظ في المكتبة الايطالية في مدينة تورينو سنة ١٢٤٧(٢) ، والكاتب مارينو سانودو (Sanudu)(٣) ، والمؤرخ نيقولا غلاسبرجر(٤) ، والكردينال ماريس سنوتس البندقي الذي وضع كتاباً باللاتينية اسماه « اسرار المؤمنين من الصليبيين » وقدّمه في اوائل القرن الرابع عشر للبابا يوحنا الثاني والعشرين(٥) وغيرهم .

فهؤلاء كوّنوا في الغرب ، ولاسيما في روما ، بيئةً تعتقد ان

---

(١) كَتَبَ تاريخ اورشليم باللاتينية : « Historia hierosolimitana » c,77, t. 1, Hanovre, 1611, p. 1093 - 94.

وقد ذكره المطران دريان في لبابه ، ص ٣١٦ – ٣١٧ ؛ والمطران ديب في تاريخه ، صفحة ٩٩ وقد فنّدا اقواله .

(٢) راجع المطران ديب ، ص ١٠٣ .

(٣) راجع المطران ديب ، ص ١٠٣ – ١٠٤ .

(٤) وهذا المؤرخ (Glassberger) كتب باللاتينية ايضاً . انظر عنه المطران ديب ، صفحة ١٠٤ – ١٠٥ .

(٥) انظر المطران دريان في لبابه ، ص ٣١٨ .

قسم مع البابا الشرعي اسكندر الثالث ، وذهب القسم الآخر مع فيكتور الرابع . وقد انتهى أمر هذا الانشقاق بوفاة خلفاء فيكتور هذا ، سنة ١١٨٠ في الغرب [١] . ومعلوم ان بعض كاثوليك الشرق تابعوا البابا الشرعي وتشيعوا له ، وآخرين غيرهم ، كقول غليلموس نفسه[٢] ، ذهبوا مع البابا فيكتور اللاشرعي . »

---

(١) انظر : Hefele-Leclercq, « Histoire des Conciles » t. V. Paris, 1913, p. 1112.

(٢) في تاريخه المشهور ، كتاب ١٨ فصل ٢٩ ، راجعه في مجموعة مين ، عمود ٧٤١ – ٧٤٢ . وقد نشر العلامة دريان ، في لبابه ، جميع ما قاله غليلموس بهذا الخصوص ، في صفحة ٣٢٢ – ٣٢٤ ، وقابله بما رواه البطريرك الدويهي ، فقال عنهما انهما يتوافقان في المعنى تماماً ، واستطرد يقول : « ولكنّ غليلموس توقف عند ذكر الصلح الذي تمّ بين الامبراطور فريديريك والبابا اسكندر المشار اليه ، في نحو سنة ١١٧٧ . وبعده قفز غليلموس الى الكلام ، في ثلاثة فصول متتابعة ، عن حادث وقع في اول الخلاف الذي جرى في الكنيسة بين البابا الشرعي ومزاحمه فيكتور ، وهو حادث مجيء الكردينال يوحنا الى مدينة جبيل ، الى آخر ما كان من دخوله مملكة اورشليم بوصفه معتمداً رسولياً ، مما يدل على ان غليلموس تابع كتابة تاريخه هذا بعد حصول الصلح المشار اليه في الكنيسة باسرها ، وهذا امر غريب . والاغرب (يقول دريان) ان يكون غليلموس وقف ، في كلامه عن هذا الموضوع ، عند هذا الحد ، مع انه قد حضر المجمع اللاتراني في سنة ١١٧٩ بصفته مطران صور ، وجُعل فيه كاتب الوقائع ، كما هو مشهور . وقد كان الغرض من عقدهِ اصلاح ما كان قد اختل في الكنيسة الجامعة بسبب هذا الشقاق ، فتقرَّر فيه انتخاب البابا الحقيقي الشرعي اسكندر ، وتقرّر ايضاً ان يطلب يمين الطاعة من كل اساقفة الكنيسة ، شرقاً وغرباً لاجل تقرير السلام ومحو كل اثر لهذا الشقاق المذموم . »

ولم يروِ غليلموس شيئاً من ذلك الا نتفاً وردت في كتابهِ الثامن عشر في الفصلين ٢٦ و ٢٩ .

واما الدويهي فقد روى ذلك في الموضع المذكور ، ص ٣٥٦ من الفصل السابع ، قائلا : « ولما انقشعت غيوم الانشقاق من بين المسيحيين ، امر البابا اسكندر بعقد مجمع برومية هو مجمع لاتران حضره ٣٠٠ اسقف ، فقرّروا ان يكون رؤساء الكهنة ورعاياهم خاضعين للبابا اسكندر ، فحلفوا له بالطاعة ، ونادوا باسمهِ ، وكان ذلك سنة ١١٧٩ ، وفيها كان ابرام الهدنة بين صلاح الدين وبلودوين ملك القدس . وكان من جملة من حضَرَ المجمع برومية مطارنة صور ، وقيصرية ، وطرابلس وبيت لحم . . .

٥ – والخلاصة ان غليلموس اسقف صور لما بلغه هذا الخبر المبهج ، وهو وجوب تأدية فعل الخضوع والطاعة للبابا الجديد ، بعــد تلك الاضطرابات التي اقلقت الكنيسة وكان قد طالع تاريخ ابن البطريق ، وتشبّع بما جاء فيــه عن الموارنة ، ولاسيما فيما يتعلق بادّعائه الباطل بخصوص التوحيد في المشيئة كما رأينا ، توسّع في الموضوع الذي كان هو بصدده ، بدون ما تدقيق ، لكثرة إنشغاله بما كان حاصلا ، وكتب عن « جماعة السريان المؤمنين » اي الموارنة ، وعددهم يتجاوز الأربعين الفاً ، « انهم رجعوا عن ضلالة مارون التي تسكعوا فيها نحو خمسمائة سنة ، وتبعوا تعليم الكنيسة الرومانية وتقاليدهم المقدسة » بدلاً من ان

وعند عودتهم ، حلف امامهم هيماريك بطرك انطاكية ، وروسا الامصار الشرقية ، باداء الطاعة للبابا اسكندر دون غيره . واقسم ايضاً مع المذكورين اعيانُ الموارنة المقيمين في بيت المقدس (والاصح بل المعقول ان يكون كل اعيان الموارنة) ، ورفعوا واجب الطاعة له على يد هيماريك الافرنجي ، بطريرك انطاكية » . ذلك « لانهم كما قال دريان ، ص ٣٢٥ ، كانوا في حدود بطريركيته . وهذا ما حسبه غليلموس ارتداداً اولياً ونهائياً ورواه كما بلغه تعليقاً ، في غير محلهِ ، على الفصل الذي ذكرناه . »

اما لماذا لم يسجّل غليلموس هذه الحوادث في تاريخه هنا ، وقد استحق لموضع فضلهِ ومقدرتهِ في التأليف والكتابة ان يُقام كاتب وقائع المجمع اللاتراني ، « فلاسباب هامة شغلته عن كل امرٍ ، واضطرته الى الاقامة في روما وغيرها كما رأينا ، مدةً طويلة ، حتى قيل انه توفي فيها ، وعاد لا يهتمّ بامر تاريخه اهتمامه الاول ، بل صار يعلق ما كان يصله من الحوادث تعليقاً كمفكراتٍ ، بقصد ان يعتني بها وبتنسيقها عند سنوح الفرصة الملائمة ، على ما يقتضي الذوق السليم . فلم يسمح له الزمن بذلك ، حتى بقي كل شيء على علاته ، والا فلا يفهم كيف وقع له مثل ما وقع حتى الان من قلة الضبط ، والتدقيق ، واستقصاء الحوادث ، مما لا عذر فيه لكاتب نظيره . »

وعليه « فلا غروَ اذا كان روى عن الموارنة ما رواه ، على علاته ، بدون ان يتحقق في حقائقهِ . ولا ندري من ثَمّ ما المانع من تصديق رواية العلامــة الدويهي القائلة « بان الموارنة اشتركوا مع الافرنج في سورية في تأدية يمين الطاعة للبابا اسكندر الجديد عــلى يد هيماريك البطريرك اللاتيني الانطاكي » ، وهذا ما عدّه غليلموس ارتداداً ، وليس هو بالحقيقة ارتداداً بل انما هو تأدية الطاعة والخضوع . » (راجع دريان ص ٣٢٥) .

الشعب قليل العدد ، بل كان يقال انهم انما يتجاوزون الاربعين الفاً ، يقطنون مشارف لبنان ووهاد الجبل في اسقفيات جبيل والبترون وطرابلس ، كما قلنا غير مرة ، وكانوا رجالاً اشداء مدربين على حمل السلاح ، وقد أفادوا اصحابنا في المواقع المتواترة التي حصلت لهم مع الاعداء ، وكانوا هداةً لهم يرشدونهم سواء السبيل ، في طرقات لبنان الوعرة المسالك ؟ » [١] . لعمر الحق ، ان ذلك لمن الغرائب التي لا يدركها العقل البشري بسهولة [٢] !

ومما لا ريب فيه ان « جماعة السريان المؤمنين » الذين يذكرهم غليلموس هم الموارنة انفسهم ، كما اثبت الاب العالم لامنس اليسوعي [٣] ، والكاتب القدير ريستلهوبر في كتابهِ عن « تقاليد فرنسا في لبنان » [٤] ، والكاتب الآخر الفرنسي راي [٥] ، والمؤرخ دودو في تاريخه الفرنسي [٦] حيث يقول :

« ان الموارنة كانوا جنوداً مدربين على حمل السلاح ورمي السهام ، وهم اول من اتصلوا بالافرنج فالفوا معهم عنصراً ذا اهميةٍ كبرى في الجيوش اللاتينية . وقد اجمع المؤرخون من عرب وافرنج على انهم كانوا منذ اول الفتح الصليبي حتى اخره في سوريا عوناً للجيش

---

(١) انظر المصدر نفسه .

(٢) انظر المطران ديب في المحل نفسه ، ص ٩٢ ؛ والمطران دريان في الموضع نفسه ايضاً ، ص ٣١٩ .

(٣) في كتابه عن سوريا المطبوع في بيروت سنة ١٩٢١ ، المجلد الاول ، ص ٢١٢ .

(٤) R. Ristelhueber, « Les traditions françaises au Liban » Paris, 1925, p. 49 et 53.

(٥) E. Rey, « Les colonies franques de Syrie au XII et XIIIe Sc. » Paris, 1883, p. 33 et 356.

(٦) G. Dodu, « Histoire des institutions monarchiques dans le Royaume latin de Jerusalem » (1099 — 1291), Paris, 1894 p. 211.

الفرنسي . فاسقف صور يروي عنهم انهم كانوا رجالا اشداء في الحرب ، لهم مقدرة وبطش . والمؤرخون العرب يتكلمون عنهم فيقولون انهم كانوا العون القوي للكونت ريمون دي سان جيل (Gilles) في حصار انطاكية والاستيلاء عليها [١] . »

٤ — واذا كان ذلك كذلك ، ولا يمكن ان يكون إلا كذلك [٢] ، فكيف نفسّر قول غليلموس ، عن الموارنة ، انهم رجعوا الى حضن الكنيسة الرومانية على يد بطريرك اللاتين الثالث هيماريك او أموري ، وقد كان غليلموس معاصراً لهذا الحادث ؟

يجيبنا العلامة المطران دريان في لبابه [٣] عن هذا السؤال ، وقد تابعه سيادة المطران بطرس ديب ، في تاريخه عن « الكنيسة المارونية » [٤] ، فيقولان نقلاً عن العلامة البطريرك الدويهي الشهير [٥] ، ما ملخصه : « ان رجوع الموارنة في ذلك الزمن على يد البطريرك اللاتيني انما كان من قبيل ما حصل في سنة ١١٣١ ، وذلك انه على اثر وفاة البابا ادريان الرابع ، في اول ايـــلول سنة ١١٥٩ ، وقع انشقاق ، في الكنيسة الرومانية ، بين الكرادلة ، على انتخاب البابا الجديد ، فتشايع

---

(١) راجع هذه المصادر في تاريخ المطران ديب ، ٩٤ .

(٢) اي لا يُعقَل ان يرتدّ شعب عظيم ، ناعم بالاستقلال والحرية المطلقة ، فجأة ، وكله ، بالهـامٍ الالهي ، دون سابق مسعى ، ودون توسط عللٍ ثانوية في الامر ، وخصوصاً في بلادنا الشرقية ، حيث لم يبقَ غير الموارنة شعبٌ محافظاً على تعلقه المتـين بكرسي روما الخالدة ، لان كل الكنائس الشرقية انشطرت الى قسمين : شطر رجع الى كنيسة روما فاتحد بها ، وشطر ظل على معتقداتهِ التي تغاير الاخرى حتى يومنا هذا .

(٣) ص ٣٢٠ وما بعدها .

(٤) ص ٩٧ وما يليها .

(٥) انظر « كتاب الاحتجاج عن التهم الموجهة ضد الموارنة » المطبوع في بيروت ، فصل ٧ ، ص ٣٥٦ وما بعدها .

مجدداً الى روما لعرض الامر على ذوي الشأن هناك . وعندما حطّ رحاله فيها رأى حالة الامراء المسيحيين في الشرق تدعو الى القلق ، والاضطراب ، لان صلاح الدين كان قد نقض الهدنة ، واخذ يسعى لخلع الامراء المذكورين ، قصدَ الاستيلاء على عروشهم ، وكاد حلمه يتحقق .

ومعلوم ان غليلموس هذا ، بعد انكسار الجيوش الصليبية ، ترك الاراضي اللبنانية ، متوجهاً الى اوروبا لطلب النجدة . فهذا كله مما يدل على ان هذا الاسقف لم يتمكن من مخالطة الموارنة ولم يعرفهم الا عن بعد ، وعمن كانوا معهم في الحروب الصليبية وقصّوا عليه اخبارهم ، فعرف انهم « كانوا جماعة من السريان المؤمنين ، الذين يسكنون فوق جبيل ، كما يقول هو نفسه[١] ، والبترون ، وطرابلس ، وقد هبطوا الى ملاقاتهم لاجل تهنئتهم ، وعرض خدماتهم عليهم ، فرحّبوا بهم ، وتلقوهم بعواطف الحب الاخوي ، واتخذوا منهم هـداةً ليرشدوهم الى آمن الطرق وأيسرها في تلك الجبال الوعرة التي كانت تعترضهم[٢] . »

٣ — ويظهر جلياً ايضاً خطأ هذه الشهادة التي أتى بها غليلموس ، اذا ما نظرنا اليها بعين الانتقاد ، ودققنا فيما تزعم « عن رجوع الموارنة في نحو سنة ١١٨٢ كلهم اجمعين الى وحدة الكنيسة المقدسة ، وقبولهم الايمان الارثوذكسي ، وتقاليد الكنيسة الرومانية ، بعد رفضهم تلك الضلالة التي ظلوا متسكعين فيها نحو خمسمائة سنة ، وذلك بالهامٍ الهي ، دفعةً واحدة ، على يد اموري بطريرك انطاكية اللاتيني الثالث ؟ ! »

---

(١) في كتابه الـ ١٢ الفصل الـ ٣١ ، في معرض كلامه عن وصول الافرنج الى فوق طرابلس ، ووصف حاله وحال جماعة السريان المؤمنين الذين جاؤوا لملاقاتهم .

(٢) انظر عن هذا الموضوع : L. Bréhier, « Dict. Apol. de la foi cath. » au mot « Croisades » t 1. col 822 – 23 ; L'Eglise au moyen-âge ; Les Croisades, Paris, 1921. p. III ; Hist. littéraire de la France, ibid. (cfr. Dib, p. 90 – 91.)

فهل سجّل التاريخ يا ترى حادثاً ما لارتداد شعبٍ عظيم ، فخورٍ بتقاليد اجداده ، حريصٍ على عادات بلاده ، أنوفٍ برجاله وشجاعة ابنائه ، دفعةً واحدةً ، بالهامٍ الهي ، من دون أية مساعدة ؟ ودون سببٍ ومقدمات ؟ !

لماذا نزَل الالهام الالهي على الموارنة باجمعهم فجأةً ، يومَ غُلِب الافرنج على امرهم ، وضايقهم خصمهم ، صلاح الدين الايوبي اشد المضايقة ، واسترجع منهم اكثر البلاد التي كانوا قد مدّوا سلطتهم عليها ؛ ولم يهبط عليهم يومَ كان الافرنج في أوج انتصاراتهم ، وفي عز صولتهم وفتوحاتهم ، فيذهبوا الى اموري كتلةً واحدة ، ويعملوا ما ذكره غليلموس من امر رجوعهم الى الكنيسة الرومانية ؟ !

لماذا نزَل هذا الالهام المفاجيء على الموارنة بعد اختلاطٍ دام ثمانين عاماً مع الافرنج يخالفونهم في العقيدة حسب زعم غليلموس ، ويتجنبون المعاطاة معهم بهذا الأمر ، في حين ان الموارنة ، حسب قول غليلموس نفسه في كتابه السابع[1] ، منذ اول الامر ، اي حال وصول الافرنج الى بلادهم في سنة ١٠٩٩ ، اتصلوا بهم اتصالاً وثيقاً ، ودخلوا تحت حكمهم وسيطرتهم ، واختلطوا بهم كل الاختلاط ، وانجدوهم في حروبهم[2] ، كما ذكر غليلموس حيث قال : « لم يكن جمهور هذا

---

(١) في الفصل الحادي والعشرين ، راجعه في مجموعة الاب مين في الموضع نفسه ، عمود ٣٩٨ — ٣٩٩ .

(٢) وقد شهد بهذا الجميل للموارنة سائر مؤرخي الافرنج ، كما اعترف المؤرخ رستلهوبر في كتابه (Traditions françaises au Liban) ، ص ٤٩ ، ولاسيما دودو ، في تاريخه عن المنشآت الامبراطورية في دولة اورشليم اللاتينية (Dodu, Histoire des institutions monarchiques dans le royaume latin de Jérusalem.) ، ص ٢١١ ، حيث قال : « لفت الرماةُ الموارنة اليهم انظار الصليبيين ، فكوّنوا منهم احسن فرق مشاتهم . وقد أجمع المؤلفون الشرقيون والغربيون على ان الموارنة كانوا للصليبيين ، مدة احتلالهم لسوريا ، من اكبر المساعدين » .

كما تراءى له ، وكتب كل ما يعرفه عنهم بدون تدقيق ، ثم أُضيف الى متن الفصل بدون تغيير شيءٍ من عنوانه . »

٢ ــ ان الاسقف غليلموس لم تكن لديه قط فكرةٌ بالتنقيب عن المستندات السريانية والعربية التي تؤدي المعنى المطلوب من كلمة التوحيد في المشيئة كما كان يفهمه الموارنة ، فقد قال في مقدمة كتابه المشار اليه[١] : « انه استند في الكلام عنها الى التقاليد لعدم وصولهِ الى شاهدٍ عيان ، الا في بعض الحوادث . » وقال ايضاً : « انه أخذ معلوماتـهِ بشأنها عن افتيشيوس (اي سعيد) بن البطريق بطريرك الاسكندرية » . ولم يكن المطالع المنقّب في حاجةٍ الى قولهِ هـذا ليعرف انه استقى من ينبوع ابن البطريق ، فذلك معلوم ظاهرٌ من تلك العبارات عينها التي كان يستعملها البطريق نفسه . فشهادته هذه لا قيمة لها مطلقاً ، وهي غير جديرة بان يعتمد عليها الا بقدر ما لكلام سعيد بن البطريق من حرمةٍ . وهذا الحكم على غليلموس نطق به المؤرخ الشهير بارونيوس[٢] .

وبطلان شهادته هذه واضحٌ من قولهِ : « ان الموارنة كانوا منذ خمسمائة سنة قد تبعوا ضلالة رجل مبتدع اسمه مارون ومنـه اطلق عليهم اسم موارنة ، مستشهداً على ضلالة مارون بما جاء حسب زعمه

---

(١) راجع المصدر نفسه في مجموعة مين ، عمود ٢١٢ .

(٢) بقولهِ : Verum traditiones quas secutus est Tyrius, non raro errori obnoxiae fuere, constatque etiam eum Euthychio fabularum pleno soepe adhaesisse. (cf. Baronius, Annales eccl. ed. Theiner, t. XIX, Bar-le-Duc, 1869, p. 513)

ومعنى ذلك « إنه من العدل ان يقـال ان التقليدات التي اتبعها غليلموس كانت مغلوطةً ، ومن الثابت انه استند بروايته الى تاريخ سعيد البطريق الطافح بالحكايات والاباطيل . ص ٥١٣ .

في اعمال المجمع السادس الذي عقد ، على قوله ، ضدهم ونالهم فيه حكم الشجب » . وهذا الكلام عارٍ عن الصحة تماماً ، ولا اثر له ابداً ولا ذكر البتة في اعمال المجمع السادس ، ولا في اي مجمع مسكوني آخر[١].

وهذه الرواية ما اخذها غليلموس عن الموارنة ، اذ ليس في تواريخهم وتقليدهم ما يشير اطلاقاً اليها ، بل من سعيد البطريق ، كما صرّح هو عينه في مقدمته ، ومن مؤلف كتاب « الحملة الصليبية لاجل فتح بيت المقدس واسترجاع كنيسته » واسمه البيروس دايكس (D'Aix) ، ولم يأت اورشليم قط ، وكتابه معروف بوفرة الاغلاط التي وردت فيه[٢].

وعليه، فهذه الشهادة ان دلت على شيءٍ فانما تدل على ان غليلموس لم يعرف الموارنة عن كثبٍ ، ولم يتمكّن من مخالطتهم ، والتدقيق في احوالهم ، وأمر ديانتهم ، وتقليدهم ، وذلك لانه في تلك الحقبة من الزمن التي يدّعي فيها ارتجاع الموارنة الى الكنيسة الرومانية كان هو منهمكاً باسفارٍ عديدة ، وامورٍ أخرى متنوعة : فانه بعد ان توجّه الى روما لحضور المجمع اللاتراني الثالث المنعقـــد تحت رئاسة البابا اسكندر الثالث في سنة ١١٧٩ ، عاد الى القسطنطينية حيث مكث ردحاً عند الامبراطور البيزنطي مانوئيل كومنين (Manuel Comnène) ، ومنها عاد الى صور، وما كاد يبلغها حتى مات بطريرك اورشليم أموري، فنشب عندئذٍ عراكٌ بينه وبين هرقل اسقف قيصرية على هذا المنصب السامي ، ولكنّ هرقل تغلّب عليه ، وانتخب بطريركاً سنة ١١٨٠ ، اي بعد عشرة ايام من وفاة البطريرك السابق . فصعب الامر على غليلموس الصوري ، فأعلن عـدم شرعية البطريرك المنتخب ، وسافر

(١) راجع المطران ديب في الموضع نفسه ، ص ٨٩ .

(٢) انظر : Auguste Molinier, « Les sources de l'histoire de France » t. II. Paris, 1902, p. 285 (cfr. Dib, ibid, p. 90).

الاول ولا بهذا العنوان ، ثم شرع بالكلام عن الموارنة ، وختم الفصل به ، فكانت اجزاءُ كلامهِ مفككة ، لا لحمة بينها ولا رابط معنوي ، قال في الختام :

« وفي هذه الاثناء بينما كانت المملكة تتمتع بالسلام الموقت (الهدنة) ، فان طائفة من السريان القاطنين في فينيقية (اي الموارنة) حول قمم لبنان بما يلي مدينة جبيل ، قد حصل لها تغيير كبير في الحالة التي كانت عليها ، لانهم كانوا قد تبعوا مدة خمسمائة سنة ضلالةَ رجل مبتدع اسمه مارون ممن اتخذوا منه اسم موارنة ، وقد تغرَّبوا عن كنيسة المؤمنين ، ولكنهم الآن رجعوا الى رشدهم بالهام الهي ، وهبّوا من خمولهم فجاؤوا الى هيماريك[١] البطريرك الانطاكي وهو الثالث من بطاركة اللاتين . . . قد رجعوا الآن الى وحدة الكنيسة الكاثوليكية ، مستعدين ان يتمسكوا بتقاليد الكنيسة الرومانية ، ولم يكن جمهور هذا الشعب قليل العدد ، بل كان يقال انهم يتجاوزون الاربعين الفاً ، يقطنون مشارف لبنان ووهاد الجبل في اسقفيات جبيل والبترون ، وطرابلس ، كما قلنا غير مرة[٢] ، وكانوا رجالاً اشداء ، مدربين على السلاح ، وقد افادوا اصحابنا جداً في المواقع المتواترة التي حصلت لهم مع الاعداء . اما ضلال مارون واتباعه فهو ، وقد كان قبلا كما يقرأ في المجمع السادس الذي عقد على ما هو مشهور ضدهم وقد نالهم فيه حكم الشجب ، أَن في المسيح فعلا واحداً ومشيئةً واحدة ... »

وشهادة غليلموس هذه[٣] ، وقد اخذها عن سعيد البطريق ، أصبحت

(١) وهذا البطريرك يقال له ايضاً « أموري » الذي خلف رودلف من سنة ١١٤٢ الى ١١٩٦ سنة وفاته (انظر ديب في الموضع نفسه ، ص ١٠٦) .

(٢) راجع الكتاب الثاني عشر من تاريخه المشار اليه ، فصل ٢١ .

(٣) انظر عن حياة غليلموس ما جاء في تاريخ الآداب الفرنسية : Histoire

بعده معيناً يرتوي منه كل المؤرخين ، ولاسيما الافرنج فيما يتهمون به الموارنة بشأن المونوثيلية . ولذا يجب الاستقصاء في درسها ، والتنقيب عنها ، اذ فيها امور كثيرة تلفت نظر العلماء ، وتستلزم انتباهم ، منها :

١ — ان انتقال المؤلف فوراً من خبرٍ الى خبر بدون ان يكون للثاني علاقة بالاول ، وسياق كلامه في هذا الفصل ، يوجبان الريب في صحة نسبة الفصل اليه ، ولاسيما الفقرة التي تتعلق بالموارنة[١] ، « لانه وضع عنوان الفصل : في موت نورالدين وتركهِ الموصل ميراثاً لاحد اقاربه الدمويين » وقد تكلم عنه في اولهِ ، وبعد ان فرغ منه ، قفز الى الكلام عن خبر الهدنة دون علاقةٍ تربطها بالخبر الاول الذي عنون الفصل به ، وهو محور الكلام وعمدته على ما يرى المتأمل ، مع ان المؤلف كان قد تكلم عن الهدنة في الفصل الاول من هذا الكتاب ، وفي الفصل الثاني منه بما فيه الكفاية . فمن المستغرب ان يعود الى ذكرها (اي الهدنة) في هذا الفصل دون اشارةٍ الى كلامه السابق .

ثم قفز ثانيةً الى الكلام عن الموارنة ، وختم الفصل بهِ . يقول العلامة دريان : « وعندنا انه كان قد كتب هذا الفصل بحسب عنوانهِ ، ثم بلغه بعد حينٍ خبر انضمام الموارنة الى الافرنج ، في امر اداء القَسَم بالطاعة للبابا الشرعي[٢] ، كما جرى في سنة ١١٣١ ، فعلّقه غليلموس

littéraire de la France, t. XIV, Paris, 1817, p. 590 ; et L. de Mas Latrie, « Les Patriarches Latins de Jerusalem, dans « Revue de l'Orient latin » t. I. (1893) p. 18.

(١) كقول العلامة دريان في لباب البراهين الجلية عن حقيقة امر الطائفة المارونية ، ص ٣١٤ .

(٢) قال « الشرعي » لانه انوجد كما سنبين ، في ذاك العهد باباوان احدهما شرعي وهو اسكندر الخامس ، والاخر « غير شرعي » واسمه فيكتور الرابع .

الى ان قال : « ان هرقل كان مارونياً . . . وان هنوريوس بابا رومية تبع مقالة مارون . وان يوحنا الذي خلفه حرم مارون واتباعه لتمسكهم بالطبيعتين والمشيئة الواحدة ، وان المجمع السادس الذي عقد في القسطنطينية انما عقد تزييفاً لبدعة مارون واتباعه ، الى غير ذلك من مثل هذه الترهات الظاهر بطلانها [١] . »

وسنبين ، بعيد ذلك ، ضلال ابن البطريق [٢] الفاضح وخرافاته التي كان لها في المغرب الصدى البعيد ، فاعتمد عليها كثيرون ممن جاؤوا بعده لتسطير الاخبار عن الموارنة . وعنه أخذ المسعودي المؤرخ العربي الشهير [٣] ،

---

(١) وهنا تابع المطران دريان كلامه عن ضلال البطريق في الموضع نفسه قائلًا : « وقد إقتفى آثار سعيد البطريق في هذه الرواية جمهور من مؤرخي السريان، والروم، واللاتين، منهم غليلموس اسقف صور كاتب تاريخ الصليبيين المشهور، وجرجي بن العميد، وعبدالله ابن الطيب . . . وعن غليلموس هذا خاصةً اخذ هذه الرواية جمهورٌ من كتبة الفرنجة على علاتها . وبالجملة ان مصدر هذه الحكاية الملفقة انما هو سعيد البطريق . هذا ، وان كل من له المام في التاريخ لتلك الايام يرى بأقل تبصر بطلان هذه الرواية من كل جهة ، ويقطع بانها محض اختلاق وفرية ، ولاسيما انه لم يتمكن من ان يجد احداً قد سبقه اليها، ولا في كتب المؤرخين الثقة قبل القرن العاشر ما يسندها او يصلح برهاناً وحجةً لها بأحد الوجوه ، ولا في مجموعة اعمال المجامع اي أثرٍ لذكر مارون ولا الموارنــة . ومن اراد مزيد بيان في هذا الصدد فعليه بمطالعة القسم الثاني من تاريخ الدويهي ؛ والمكتبة الشرقية للسمعاني مج ١ ص ٥٠٦ ؛ والبطريرك بولس مسعد في الدر المنظوم ، والمطران الدبس في روح الردود ، في امكنة عديدة ، وغيرهم . »

(٢) انظر المطران بطرس ديب ، في كتابه المذكور ، ص ٨٦ ، عن المستندات الكثيرة بشأن سعيد بن البطريق .

(٣) في كتابه « التنبيه والاشراف » ص ١٥٤ من طبعة باريس . (راجع ما كتبه عنه العلامة جورج غراف في كتابه : « Die Christlich — arabische literatur bis Zur froenkichen Zeit » (p. 41). فيقول المسعودي في الموضع المشار اليه ما نصه : « العشروق هو موريق : ملك عشرين سنة وظهر في ايامه رجل من اهل مدينة حماه من اعمال حمص يُعرَف بمارون، اليه تنسب المارونية من النصارى وامرهم مشهور بالشام وغيرها ، واكثرهم بجبل لبنان وسنير ، (اي انتيلبنان وهو طرف جبل دمشق الشمالي) وحمص واعمالها كحماة وسيزر ومعرة النعمان . وكان له دير عظيم يعرف شرقي

والاسقف غليلموس الصوري اللاتيني [١] . فكانت آراؤهم مبنيَّة على فسادٍ ومستمدةً من ينبوع واحد يتفجَّر بالفساد ، فهي اذاً فاسدة ، وبابطالها تبطل كل التهم التي وجَّهها الى الموارنة مؤلفون متعددون في عصور مختلفة ، لانهم جميعاً نهلوا من ذاك الينبوع العكر .

سادساً : **شهادة غليلموس اسقف صور اللاتيني** : ومن الذين بنوا آراءهم على الوهم لاستنادهم الى كلام بن البطريق ، غليلموسُ الصوري ، الذي كتب تاريخ «الحملة الصليبية» الاولى من سنه ١٠٩٩ — لسنة ١١٨٤. فبعد ان تكلم في الفصل الثامن [٢] عن « موت نور الدين وتركهِ الموصل ميراثاً لاحد اقاربهِ الدمويين » ، متقيداً بعنوان الفصل نفسه، إنتقل فوراً الى الكلام عن خبر الهدنة [٣] ، وهي لا علاقة لها بالخبر

حماة وشيزر ، ذو بنيان عظيم ، وكان مارون أحدث آراء ابان بها عمن تقدمه من النصارى في المشيئة وكثر متبعوه . . . واحسن ما رأيته للملكية في تاريخ الملوك والانبياء والامم والبلدان كتاب سعيد البطريق المعروف بابن الفراش المصري بطريرك كرسي مار مرقس بالاسكندرية ، وقد شاهدناه بفسطاط مصر . »

« فهذا الكلام كما يرى المتأمل قد أخذه المسعودي عن البطريق الذي عاصره وجالسه ، وطالع كتابه ، على ما يظهر من مدحه اياه ، فلا حاجة والحالة هـذه لاعادة الكلام في امر هذه الرواية المبتسره لان مصدرها واحد ، وقد فنّدنا غلطه ورفضناه . » (انظر دريان ص ٢٠٩ من الموضع عينه) .

(١) ان غليلموس هذا ولد في اورشليم عام ١١٢٧ تقريباً، وتلقى علومه في الغرب، وعـاد منه سنة ١١٦٢ ، وجُعل اسقفاً سنة ١١٧٤ ، وحضر المجمع اللاتراني سنة ١١٧٩ وكان كاتباً لوقائعهِ ، وكتب تاريخه عن حملة الفرنج وجهادهم ، وفتوحاتهم ، وكل احوالهم في سورية وفلسطين ، منذ سنة ١٠٩٩ حتى سنة ١١٨٤ ، وتوفي بعد ذلك بقليل لانه كان قد شرع بتأليف كتابه الـ ٢٣ من تاريخه اللاتيني الشهير : « Historia rerum in partibus transmarinis gestarum, l. XXII, Voir Migne, P. L. »

(٢) انظر تاريخه المشار اليه ، كتاب ٢٢ فصل ٨ ؛ في مجموعة مين للآباء اللاتين، عمود ٨٥٥ — ٨٥٦ .

(٣) يشير المؤلف هنا الى الهدنة التي عقدها صلاح الدين الايوبي مع الافرنج الى سنتين في عام ١١٨٠ (انظر ديب ، ص ٨٦) .

تبرأوا منهم تمام التبرؤ ، حتى لا يبقى محل ليخلطهم بهم اهل البدع الاخرى والرأي العام في ذلك العصر »[١] وسنعود الى هذا الموضوع انشاء الله .

خامساً : اما **شهادة سعيد بن البطريق** ، بطريرك الاسكندرية الملكي الشهير[٢]، فيعتبر صاحبها «اول من لفّق بدعة المونوتيلية ضد الموارنة، مدفوعاً بعوامل النفور، والحقد، والحسد، واثبتها في تاريخه الذي فقد في هذا الزمن كل اعتبار وثقة عند العلماء، لما شحنه من الاخبار الملفقة، والشهادات البعيدة عن الصواب، والاقوال التي لم يكتبها احد سواه من قبله . » فمن جملة ما ابتكر عن القديس مارون والموارنة ما مؤداه[٣] :

---

(١) انظر دريان في لبابه ص ١٩١ ، حيث اثبت ايضاً ان الرأي العام في سورية لم يكن يميز بين الفريقين ، بل كان يحسبها فئة واحدة فقط ، فيقول ان فرق النصارى هي النسطورية ، واليعقوبية ، والخلقيدونية أو الملكية ، كما جاء في رسالة عبدالله بن اسماعيل الهاشمي الى عبدالمسيح بن اسحق الكندي (طبعة لندرة ص ٧) ، وفي قول الاسقف حبيب ابي رايطة اسقف تكريت اليعقوبي من كتبة القرن التاسع ، والمعاصر للاسقف ابي قرة . (راجع ايضاً كتابه عن « اصل المردة الجراجمة والموارنة » حيث فند هذا الزعم الذي نحن بصدده، موردًا ستة براهين تنقضه تماماً ، ص ٤٩ — ٥٣) .

(٢) ان سعيدًا هذا اسمه افتيشيوس، نشأ في فسطاط مصر وظهر في اواخر القرن التاسع واوائل القرن العاشر ،وكتب تاريخه الذي شحنه بالاغلاط التاريخية كما سنرى،مبتدئاً فيه بالتكوين الى ان انتهى الى سنة ٩٣٣ مسيحية التي صار فيها بطريركاً على الاسكندرية .

(٣) راجع تاريخه المطبوع في بيروت ، ج ١ ، ص ٢١٠ الذي نشره الاب شيخو سنة ١٩٠٥ ، في مؤلفه : « Corpus scriptorum christianorum ort. Scrip. arabici, Series III, t. VI. » – وقد أبان مؤلف كتاب « المحاماة عن الموارنة وقديسيهم » الاغلاط التي سقط فيها سعيد البطريق ، ص ٣٩٦ ، مما تبطل القيمة التاريخية لهذا المصنف القديم (راجع نظيرها في « الجامع المفصّل في تاريخ الموارنة المؤصّل » للدبس صفحة ١١٣ — ١٢٠) ، فقال : « كان سعيد البطريق مشاقاً بل هرطوقياً ، وكان عدوّ الكنيسة الرومانية وكل من هم متحدون بها بجامعة الايمان والتعليم والرأي والطقوس كالموارنة وغير . . . » وقال : « ان باكوكيوس الذي نقل تاريخ البطريق من العربية الى اللاتينية مع حرصه على الاعتذار عنه فهو يقول في مقدمة الترجمة ما تعريبه

« كان في عصر موريق (القيصر الروماني من سنة ٥٨٢ الى سنة ٦٠٢) ، راهب اسمه مارون ، يزعم ان لسيدنا يسوع المسيح طبيعتين ومشيئة واحدة وفعلا واحداً . فافسد مقالة الناس ، واكثر من تبعه في مقالته هذه تلاميذه والقائلون قوله من اهل الروم ، فسموا التابعين له ، والقائلين بمقالتهِ المارونية ، « مارونيين » . فلما مات مارون ، بنى اهل مدينة حماة ديراً بحماة سموه دير مارون ، ودانوا بدين مارون . »

وقد تطرّف سعيد في ذلك الى ان دعا ايضاً ، كقول العلامة دريان [١] ، كل من تبع مذهب المشيئة الواحدة ، وانتصر له مارونياً كسرجيوس ، وبيروس ، وبطرس ، وبولس ، بطاركة القسطنطينية ، وقورش ، وبطرس ، من بطاركة الاسكندرية ، ومقدونيوس ، وسرجيوس ، ومكاريوس ، بطاركة انطاكية . »

بالحرف الواحد : « ان كان تاريخ سعيد يشتمل على خرافات كثيرة في القصص القديمة فهذه المعرة غير منحصرة فيه وحده بل هي لا حقة بالسواد الاعظم من كتبة التواريخ القديمة لمخالفته لمؤرخينا فيما يرويه من قصص الافرنج » (ص ٣٩٨).

وقال (ص ٤٠٠) : ان لاكويان في فهرست المجلد الثالث من كتابه « الشرق المسيحي » بمعرض كلامهِ عن الموارنة يصف البطريق فيقول : « اما سعيد فلا يستحق التصديق البتة لمكان افتئاته وكذبه وتزويره وقد خالف كل تواريخ القرون الثلاثة التي سبقته . وقد ورد في تاريخ البطريق امورٌ كثيرة غير هذه تلفت نظر العلماء ، وتبطل قيمته التاريخية حتى لدى خصوم الموارنة الحديثين الذين اعتمدوا في اثبات آرائهم عليه وحده ، كالكاتب الفرنسي جانين الذي سبق ذكره ، والاب شابو الذي ألّف كتاباً يهاجم فيه الموارنة نشره سنة ١٩٥١ في الجزء الثاني من المجلد الـ ٤٣ من « Mémoires de l'Institut Nat. de France » عنوانه « Les origines de la legende de S. Jean Maron » حيث يقول بعد ان اورد شهادته بشأن مارون والموارنة في عهد موريق الملك الروماني : « لقد نسب البطريق جوراً وظلماً الى القديس مارون الناسك ما يعتقد به الموارنة في القرن العاشر . فان هذه الشهادة غير صحيحة ولذلك ننكرها عليه ونرفضها تماماً . . . » (راجع المطران ديب في الموضع نفسه ، ص ٨٨).

(١) في كتابه « اصل الجراجمة والمردة والموارنة » ص ٤٧ .

كما يحصل غالباً ؟ ان الملاحظة التي أَبداها العلامة السمعاني[١] بعد ان اطلع على النسخة المحفوظة عند المطران افتيموس المذكور ، في صور ، تستدعي إثارة هذا الريب ، لان العلامة السمعاني ذكر ان ابا قرة كتب كثيراً عن الهرطقات ، ومنها المونوتيلية ، ولم يذكر شيئاً قط عن ورود اسم « الموارنة » في هذه المخطوطة ، خلافاً لعادته المطردة ، الامر الذي يدعونا الى الارتياب العظيم ، ويحملنا على الاعتقاد بأنّ اسم الموارنة وُضع في النسخة الحديثة بدلاً من اسم المونوتيلية ، إما سهواً وإما عمداً . وهذا الغلط سهل الوقوع في نسخ المخطوطات .

ثم ، على افتراض ان ابا قرة ذكر الموارنة حقيقةً في هذه المقالة ، فليس لكلامهِ كبير اهمية ، «لان اسقف حرّان هذا لم يختلط قط بالموارنة ، ولم يكن عائشاً معهم ، وفي محيطهم ، ليطّلع تماما على عقيدتهم الدينية ، ولاسيا ان المناظرات التي كانت تقوم في سوريا بشأن المشيئة والمشيئتين بلغت من العنف حداً اختلطت معه الاقوال ، وسيطرت الاهواء على العقول ، فامتنع على المتناظرين انفسهم فهم الحقائق ، وسبر غورها ، ولان ورود بعض عبارات على لسان ابي قرة بلهجةٍ سمجةٍ عنيفةٍ حيث يقرّف الموارنة (اذا صحّ انه ذكرهم باسمم) تقريفاً اشد مما يقرّف به النساطرة واليعاقبة ، وخاصةً حيث قال : « سكرت سكراً لم تصحُ بعده وجعلت تشتمهم كالكلب الكلب » مما لا يناسب البتة آداب هذا الكاتب العالم ولا فضيلته ، ولا يصح ان ينسب اليه بوجهٍ من الوجوه[٢] . »

وعلاوةً على هذا ، « فاذا درسنا مضمون هذه النصوص اليسيره درساً مجرداً دقيقاً وجدناها خاليةً من التدقيق ، وغير متوافقة وحصافة

---

(١) في المكتبة الشرقية ، ج ٢ ص ٢٩٢ .

(٢) انظر المطران ديب ودربان في المواضع نفسها .

هذا الفيلسوف الحكيم . وهذا مما يؤكد الريب في صحة هذه الفقرات المضطربة . « فان الكاتب قال اولاً بصراحة : اما المجمع الخامس فليس احدٌ يحامي عن الاراسيس التي حرمها » . ثم قال بعد ذلك : « فما بالك يا ماروني قبلت المجمع الاول والثاني والثالث مسترسلاً منبسطاً » دون ان يذكر الرابع والخامس اللذين يقبلهما الموارنة بلا اشكال[١]. ثم قال بعد ذلك : « فانت ان نقمت على المجمع الخامس والسادس لان الملوك جمعتها » فاذا ارتبنا والحالة هذه في صحة نسبة هذا الكلام الى العلامة ابي قرة لا نكون متعنتين كما قد يقال »[٢] .

واخيراً نقول مع العلامة دريان : « ان كلام ابي قرة لا يضر بقضيتنا ، ولو ثبتت نسبته اليه ؛ فان الخلقيدونيين الموارنة بعد ان انفصلوا عن الخلقيدونيين المكسيميين بسبب المشيئة والمشيئتين وحصل ما حصل بينهما من المشاحنات والحرب العوان مما ادّى الى الافتراق والتباغض الشديد ، لا يستغرب اذا رأينا بعض كتّاب المكسيميين يغالون في تقريفهمْ الى هذا الحد ، ويتكلمون عنهم بهذا المعنى دون تدقيق : ومع ذلك ففي استمرارهم على تسميتهم اياهم بالموارنة فيه محل للنظر عند أُولي البصائر : والا كان الاجدر بهم لو اعتبروهم من اشياع المونوتيلية ان يسموهم مرةً واحدة مونوتيليين من قبل الاحتقار ، حتى يظهر للملأ انهم المحرومون في المجمع السادس ، فلا يضطر بعض الملكية ان يبدلوا ، في ترجمة اعمال هذا المجمع ، لفظة « مونوثيليين » بلفظة « موارنة » ، مما لم يحلم به آباء المجمع السادس . وهكذا كانوا قد

---

(١) راجع ما ذكرناه قبلاً عن العالم الفرنسي الاب ناو بخصوص الموارنة واعتقادهم الراسخ بالمجمع الرابع والخامس ، في كتابه المشار اليه ص ٣٤٨ – ٣٥٠ و ٣٦٧ – ٣٨١ و ٣٤٣ – ٣٤٤ و ٣٧٧ ؛ وانظر المطران ديب في الموضع نفسه ، ص ٥٣ و ٨٤ ، وراجع ما قلناه في هذا الكتاب عن هذا الموضوع الهام .

(٢) راجع دريان في لبابه ، ص ١٩٠ .

كتبت في العربية والسريانية وترجمت الى اليونانية[١]، جاء فيها ذكر للموارنة[٢] هذا نصه :

« كان للكلمة الاله جميع التركيب الانساني بجميع هنداسهِ الذي هو خزانة ومعدن جميع الحركات الانسانية . فلذلك ، الافعال التي بدت منه هي للكلمة ، ولا نرى ان القوى التي كانت في التركيب الانسي بطلت لان الكلمة هو كان المدبر والمحرك لها وان كان قد يرى ذلك جند الموارنة ... »

ثم ورد ايضاً ذكر للموارنة في مقالته التاسعة حيث عدّد ابو قرة اصحاب البدع ومن جملتهم الموارنة ، وذلك بدون ان يسبق فيعرّف جوهر هذه البدع ومقوماته ليطلع القاريء عليها ويفهم ما يراد بهم . ثم بعد ان يقول : « ليس احد يحامي عن الاراسيس (اي الهرطقات) التي حرمها المجمع الخامس[٣] » يعود فيتكلم عن مكاريوس وقورش وسرجيوس وعن المجمع السادس، موجّها الى الموارنة تهماً باطلة ابرزها

---

(١) انظر اللباب للمطران دريان ص ١٨٣ حيث يصرّح بانه طالع النسخة اليونانية المحفوظة في مجموعة الاب مين (Migne) المختصة بآباء اليونان، ولم يعثر فيها على ذكر اسم الموارنة مطلقاً .

(٢) انظر المقالة الثانية لابي قرة ، ص ١٢٤ .

(٣) « من المعلوم ان المجمع الخامس حرم بدعة مؤلمي اللاهوت وبطرس القصار زعيمهم وحرم زيادة الصلب على التريساجيون بالمعنى الضال . وقد رأينا ان الموارنة قد استمروا على استعمال زيادة « يا من صلبت لاجلنا ارحمنا » واتهموا بالجنوح الى الهرطقة من جراء ذلك ، وقد بيّنا في هذا الكتاب بطلان هذه التهمة لاستعمالها عند الموارنة بالمعنى الكاثوليكي الصحيح حتى ان الكرسي الرسولي نفسه قد رضي عنه . فنرى والحالة هذه ان قول ابي قرة هنا « ليس احدٌ يحامي عن الاراسيس التى حرمها المجمع الخامس » ما فيه من البرهان على عدم اعتبار هذا الضلال للموارنة من اصحاب هذه البدعة الوخيمة ولو استعملوا هذه الزيادة ، الا اذا قيل انه لم يكن يعرف الموارنة او كونهم يستعملونه حتى يتعرض لهم ، فتامل ، » انظر دريان في الموضع نفسه، ص ١٨٦ .

إتهامهم برفض المجمع السادس قائلاً : « ما بالك يا ماروني قبلت المجمع الاول والثاني والثالث مسترسلا منبسطاً ولم ترَ لك مع رأيهم رأياً كما امرك الروح القدس فلما بلغت الى المجمع السادس كأنك قد نسيت تعليم الروح القدس وسكرت سكراً لم تصح بعده . »

وبعد ذلك رجع ابو قرة يوجّه الملامة نفسها الى الموارنة ويقول[١] : « فانت يا ماروني ان نقمت على المجمع الخامس والسادس بان الملوك جمعتها فبئس ما صنعت حيث قبلت المجمع الرابع والمجامع التي قبله لان كل مجمع من هذه المجامع انما جمعه ملك . »

هذا ما جاء عن الموارنة في مقالات ابي قرة ذكرناه بالتفصيل ليسهل على اهل التحقيق درسه والتنقيب عليه . قال العلامة دريان[٢] وتابعه العلامة المطران بطرس ديب[٣] في البحث عن صحة هذه الروايات ، ما مؤاده : « ان المخطوط الذي وجدَه الباشا في دير المخلص بالقرب من صيدا واعتمده في الطبع انما هو حديث العهد . فقد نسخهُ سنة ١٧٣٥ اسقف ملكي يُدعى باسيليوس فينان عن نسخة قديمة العهد كتبت على ما يظهر سنة ١٠٥١ بعد المسيح وكانت في الاصل ملك الراهب اغابي في دير مار الياس بجبل اللكام ثم اتصلت بالمطران افتيموس الصيفي ، وهي منسوخة في ذاك العهد عن نسخة كانت في دير القديس سابا في نواحي القدس الشريف . وهذه التفاصيل الدقيقة مما تدلّ على اهمية هذا المخطوط التاريخية » .

ولكن هل يمكننا اثبات ان النساخ لم يتصرّفوا بنقل هذه الفقرات

---

(١) انظر مقالة ابي قرة التاسعة ، ص ١٧١ .

(٢) في لبابه . . . ، ص ١٨٧ ؛ وفي الجراجمة ، ص ٤٩ — ٥٣ .

(٣) في تاريخ الكنيسة المارونية ، ص ٧٩ — ٨٤ .

بعض المواقع من طقوسها ، كما في عيد الرسل ، او يوم الجمعة العظيمة او غيرها » .

والموارنة قد استعملوها بهذا المعنى ايضاً كما هو ظاهرٌ من كتبهم الطقسية نفسها[١] ، ومن اقوال العلماء[٢] ، والاحبار الرومانيين العظماء[٣] ، ومن اعتراضات[٤] الموارنة لدى المجمع المقدس على كل من كان يحاول اتهامهم بهذه البدعة[٥] .

---

(١) راجع دريان ، والدبس ، والمطران ديب ، في المواضع المشار اليها هنا .

(٢) راجع المكتبة الشرقية للسمعاني مج ١ ص ٥٠٢ وما يليها حيث اجاد السمعاني باثبات عدم تاريخية هذه الشهادة المضطربة .

(٣) انظر ذيل المجمع اللبناني، صفحة ٣٢ ، من الترجمة العربية الحديثة .

(٤) راجع دريان في لبابه ، صفحة ١٠٣ وما بعدها .

(٥) طالع ما كتبه بهذا الصدد حديثاً سيادة المطران بطرس ديب في تاريخ الكنيسة المارونية ، صفحة ٧٢ – ٧٩ . ونضيف الى ذلك ما اوجزناه عن المثلث الرحمة المطران يوسف دريان من البراهين الكثيرة التي اوردها ، في لباب البراهين الجلية ، ص ١٠٩– ١١٥ ، تفنيداً لهذا القول الباطل ، فنقول :

اراد بعض المتغرّضين ، ومنهم المطران يوسف داود السرياني في كتابهِ ، جامع الحجج الراهنة ، ص ١٩٢ وما يتبع ، ان يزجّ الموارنة في هذه الهرطقة من مجرد اطلاعهِ على ذكر اسم « الموارنة » فقط في رسالةٍ يقال ان القديس يوحنا الدمشقي كتبها الى أسقف دمشق المدعو بطرس ، وقد ورد فيها هذه العبارة : « اقسم بالثالوث الاقدس المتساوي في الجوهر اني كذا اعتقد بلا مكر . . . ولست اشترك مع اخر لا يعترف بهذا الايمان وخاصةً مع الموارنة . . . واني لا اقبل احداً من المانويين دون راي قداستك . . . » .

« على انه يعارض ذلك ما اوردنا قبلا في الحاشية وما نقوله هنا : لقد وضع الدمشقي كتاباً خاصاً بالهرطقات وابان فيه ضلالهم بأجلى بيان ، ولم يشر فيه البتة الى الموارنة ، ولا ذكرهم اطلاقاً : الامر الذي دعا علماء الموارنة ، ومن جاراهم ، بالبحث عن هذه المسائل، الى القول بان هذه الشهادة ليست للقديس يوحنا ، لانـه لا يُعقل ان يكون هذا العلامة العظيم المعدود بين اساطين البيعة المقدسة ، والمعروف بالرصانة ، وحب افادة القريب ، ان يكون قد اخترع عرضاً كلمة ليست من لغة المؤمنين الذين يكتب لهم ، ولا اقل تصور عندهم في معناها ، وهي «مارونيزومن» اليونانية اللفظ ، المشتقة من اسم

وهناك شهادة **رابعة لتاودورس ابي قرّه** اسقف حران الذي عاش في القرنـــين الثامن والتاسع للمسيح [١] **وردت في** مقالات له

مارون او الموارنة ، بدون ان يسبق فيعرّف لهم من هم هؤلاء الموارنة ، ومـا هي بدعتهم ، مفضلًا الموت على ان يهمل نظيرهم ، حتى انه يحسب شرهم هـذا افظع واشنع من كفر سائر اهل البدع التي كانت على زمانه . »

« ومعلوم ما في هـذا القول من الغلو الفاحش الذي لا يصحّ ان ينسب الى القديس العظيم يوحنا ، مع ان جلّ ما كان يتهمهم بهِ ، اذا صحّت الشهادة المذكورة ، هو انهم كانوا يضيفون الى التريساجيون عبارة الصلب . وعلى كل حـالٍ ، ومع افتراضنا صحة هذه الشهادة الغير المسلَّم بها ، فلا يمكن ان يتهم الموارنة بجنوحهم الى الهرطقة ، وزيغانهم عن العقيدة الكاثوليكية ، لان هذه الزيادة على التريساجيون التي اعتادوا ان يضيفوها ، على تمـادى الاجيال ، كانوا يستعملونها بالمعنى الكاثوليكي السليم كما رأيت في الحاشية السابقة ، ولهذا فلا حرج عليهم ولا تثريب .

ثم ان السمعاني الشهير اعطى برهاناً آخر على عدم احقية هذه الشهادة وصوابيتها في مكتبة الناموس (ك ٥ ف ٢٠) ذكره العلامة دريان ايضاً في لبابه (ص ١٠٩ عدد٥٢) فقال : « ان كلمة مارونيزومن التي معناها عن اليونانية « نتمورن او نصير نعمـل كالموارنة » والتي وردت في كلام القديس يوحنا هي في كل النسخ المخطوطة القديمـة العهد المحفوظة في مكتبة باريس الاهلية وسواها ، هي « بارونيزومن » بالباء في اولها وليس بالميم ، ومعناها « نهذي كالسكارى » الامر الذي يحلُّ كل صعوبـة ويلاشي كل تأويل ؛ وليس بعيداً ان تكون يد مجرمة قد حرّفت هذه اللفظة لرغبةٍ في النفس .

« ثم ان هذا القديس العظيم الذي لم يترك هرطقة الا اشبعها درساً وتفنيداً ، وابان كل معايبها ، لئلا يعلق بها احد سوى المتعصبين لها ، لم يذكر اسم موارنة في كل ما صنفه من التآليف أي ذكر يشير الى انهم كانوا من اهل الضلال ، وهو لا يقدر ان يجهلهم لانه قضى في بلاده الشامية ردحاً من حياتهِ ، وجرت في ايامه تلك المجادلة الشهيرة في الشام امام معاوية ، بين الموارنة واليعاقبة ، كما سبق وصفها فيما ذكرنا اعلاه . وهذا مما يؤكد كلامنا ، ويدحض اوهام الخصوم والمعترضين» .

(١) طبع مقالات هذا الاسقف ، الأب قسطنطين الباشا احد رهبان دير المخلص في بيروت سنة ١٩٠٤ ، وترجمها الى الالمانية العالم جورج غراف سنة ١٩١٠ ، وجـدّد طبعها سنة ١٩٠٥ الأب قسطنطين المذكور ، ثم طبعها الآبـاء شيخو ومعلوف والباشا سنة ١٩٢٠ في المباحث اللاهوتية العشرين لعلماء العرب المسيحيين (ص ٧٥ — ١٠٧) . انظر عن هذا الموضوع العالم يوحنا اريندزين (Jo. Arendzen) عن : Theodori Abu Kurra de cultu imaginum libellus, 1897, p. VII — XIII. »

العاصمة ، ومن ثمَّ قبل المجمع ، وقبل ظهور بدعة المونوتيلية ايضاً باكثر من قرن . ومما يثبت ذلك ان العلامة كوتيلار قد نشر فيما بعد هذه المقالة عينها في الكتاب الثالث من تأليفه في « آثار الكنيسة اليونانية » ص ٣٧٧ ، عن نسخةٍ معتبرةٍ جداً ، ولا أثر ابداً لذكر الموارنة فيها ، مما يدل صراحةً على أنَّ هذا الكلام عنهم قد دسَّته في نسخة كمبيفيس يدٌ مجهولة في زمانٍ متأخر ، فلم يبقَ من قيمة له على الاطلاق[1] . »

وشهادة ثانية للقديس جرمانوس بطريرك القسطنطينية[2] ذكرها ناشر كتاب « جامع الحجج الراهنة » ، نقلا عن تاريخ لبنان للاب مرتينوس اليسوعي الذي لا يزال مخطوطاً بيد المؤلف عينه ، ومحفوظاً في خزانة الآباء اليسوعيين الافاضل في بيروت ص ٢٧٢٧ .

على أن هذه الشهادة ايضاً لا تثبت على النقد لان صاحبها ، وهو من اوائل القرن الثامن ، كتب (٧١٥ - ٧٢٩) وهو بعيدٌ عن بلاد سورية والموارنة بعداً شاسعاً ، ولاسيما بعد استيلاء العرب عليها وقطع كل علاقة بينها وبين عاصمة الروم ، بحيث لا يمكن ان يكون قد عرف هؤلاء القوم الذين يكتب عنهم ولا تقصَّى امرهم ، ولا عرف عوائدهم عن قرب ، ولا طقوسهم ، ولا معتقدهم . فلا يستغرب ان يكون والحالة هذه قد توّهم ما يرويه عنهم دون الحقيقة ، خالطاً بينهم وبين اليعاقبة ، او مقتبساً ذلك عن غير خبير بأمرهم ومذهبهم فأثبته على علاتهِ ، لانه يدّعي انهم رفضوا المجمع الرابع ، وهو الخلقيدوني الذي

---

(١) راجع كل هذا في تاريخ المطران دريان ، ص ٩٣ وما يليها .

(٢) وردت في كتابهِ « الهرطقات والمجامع » المحفوظ في مجموعة آلاباء اليونان لمين ، مج ٩٨ عمود ٣٩ — ٨٨ .

دافع عنه الموارنة بارواحهم ، ودعوا لاجل تمسكهم به خلقيدونيين او سندوسيين ، كما رأيت [١] .

وشهادة **ثالثة للقديس يوحنا الدمشقي** ، في اواخر القرن السابع ، ناتجة عن زيادة « يا من صلبت لاجلنا ارحمنا » على التريساجيون [٢] ، التي جرى استعمالها في الكنيسة منذ نشأتها ، وكانت قبل ذلك جارية الاستعمال عند السريان، حسبما روى سنة ٥٣٢ القديس افرام الآمدي بطريرك انطاكية (٥٢٩ — ٥٤٥) قائلا : « ان هذه التقديسات قد وجدت في كتب السريان من قبل بطرس القصار زعيم فرقة الثيوفسقيين (اي مؤلمي اللاهوت) من فرق المونوفيزية ، مستعملة على هذا الوجه، وهو « قدوس انت يا الله ، يا قوي ، ويا ايها الغير المائت الذي صلب لاجلنا ، ارحمنا » وانها اذ ذاك كانت توّجه للاقنوم الثاني فقط ، وبهذا الوجه لاجناح في استعماله البتة ، وقد استعملتها الكنيسة الجامعة في

---

(١) راجع هذا في اللباب ، للمطران دريان ، في الموضع نفسه ؛ وفي الجامع المفصل للدبس ، صفحة ١٥٤ ؛ وفي تاريخ المطران ديب ، صفحة ٧٠ — ٧٢ حيث يذكر المصادر العديدة عن هذا الموضوع .

(٢) « ان التريساجيون كلمة يونانية تسمَّى بها التسبحة الملائكة التي هي قدوس الله ، قدوس القوي ، قدوس الغير المائت ، ارحمنا . فهذه التسبحة توَّجه إما الى الثالوث واما الى الاقنوم الثاني حسبما استعملتها الكنيسة اللاتينية . فبحسب التوجيه الاول يكون معناها : « ايها الثالوث الاقدس الذي صلبت لاجلنا ارحمنا » . وهذا ضلال مبين، قصده زعيم بدعة موءلمي اللاهوت ونعوذ بالله منه . واما ان يكون معنى العبارة : « ايها المسيح الملك الذي صلبت لاجلنا ارحمنا » وهذا الكلام لا جناح فيه وقد استعمله الآباء القديسون . وبحسب هذا التوجيه الاخير لا يحصل اية شبهة للضلال اطلاقاً . فالموارنة والحالة هذه ، اذا وجدت هذه الزيادة عندهم ظاهرةً في كتبهم الطقسية ، فلا يمكن ان توءخذ الا بمعناها الصحيح هذا ، لانهم كانوا خلقيدونيين وخصوماً الداءَ لكل اصحاب المونوفيزية من كل صنفٍ ، ولذا فلا يصحّ ان يتهموا بكونهم نزعوا ، ولو طرفة عين، الى بدعة موءلمي اللاهوت ، وهي اسوأ فرق المونوفيزية (راجع دريان في لبابه ص ٩٦ — ١٠٧ ؛ والمطران ديب في تاريخه المذكور ، ص ٧٣ — ٧٨) .

والتاسع بل الى ما بعد القرن الثالث عشر، كما اثبت ذلك العلامة المطران بطرس ديب في تاريخه عن الكنيسة المارونية[١]، رداً على كل زعم يتشدّق بـه اي معترضٍ[٢] على المارونية واستمساكها بعرى الدين القويم، على تمادي الاجيال، بالرغم من كثرة الفتن والحروب التي مرّت بها كما رأينا وسنرى.

وبعد إيراد هذه الوقائع والشهادات التاريخية الثابتة على النحو الذي رأيت، لا بدّ لنا من الوصول الى النتيجة التي اعلنها المثلث الرحمة المطران يوسف دريان[٣] عن هذا الموضوع، وهي: «اولاً ان الموارنة منذ نشأتهم حتى اواخر القرن السابع، على الاقل[٤]، قد حافظوا على الايمان الكاثوليكي وكانوا من اخص انصار المجمع الخلقيدوني، والمجمع المسكوني الخامس، الذي ثبّت المجمع الخلقيدوني والخلقيدونيين، وهم الموارنة في سورية، وعزّزهم، بحيث لا يمكن القول اطلاقاً انهم لم يكونوا يقبلون هذا المجمع الخامس المقدس، وبأولى حجة المجمع الرابع الذي هو الخلقيدوني نفسه. وثانياً ان الموارنة كانوا خصوم المونوفيزيين، وبالاخص اليعاقبه في كل وقت، وفي كل امر، بحيث لا يمكن ان

---

(١) صفحة ٥٩؛ وكذلك سيادة المطران بطرس صفير، في كتابه صفحة ١١٠ – ١١٩؛ انظر تاريخ الكنيسة للعالم دانيال روبس، صفحة ٣٨٦؛ وايضاً: P. Vincenzo Vanutelli O. P., « Il Monte Libano » Roma, 1885, p. 182 — 199.

(٢) كالمطران يوسف داود السرياني في كتابه الحجج الراهنة، صفحة ٩٤.

(٣) في كتابه « لباب البراهين الجلية في امر الطائفة المارونية »، صفحة ٩١-٩٢.

(٤) وقد صحّح بصواب هذه العبارة المطران ديب، في تاريخه المذكور، صفحة ٥٩ على الوجه الآتي: «حتى ما بعد القرن الثالث عشر» مستنداً في ذلك الى قول التلمحري الذي ذكرناه فيما سبق. طالع العالم دانيال روبس، في تاريخه المرقوم، صفحة ٢٨٦ حيث يثبت اعتقاد الموارنة الكاثوليكي، على تمادي الاجيال، حتى يومنا هذا، وانظر ما كتبناه قبلاً بهذا الخصوص، ومـا سيجيء عنه في العدد القادم؛ وطالع ايضاً مجلة ايكليزيا « Ecclesia » الفرنسية الصادرة في باريس، عدد ٥١ من سنة ١٩٥٣ ص ١٩

يُشتبَه في انفصالهم عنهم تمام الانفصال ، على الدوام ، وعدم جنوحهم اليهم بوجهٍ من الوجوه ، كما زعم بعض المتأخرين » . ولنذكر هنا **الاعتراضات ونردّ عليها بايجاز** ، قائلين :

* * *

ومن ثمّ غدا من السهل جداً رد اعتراضات الخصوم ، وتفنيد آرائهم ، الدالة على ادعاءاتهم بان الموارنة ما كانوا يقبلون المجمع الرابع والخامس وخصوصاً هذا الاخير ، استناداً الى بعض نصوصٍ قديمة أو آثارٍ تاريخية يمكن شرحها بدون ما صعوبةٍ ، وتحويل معناها خلافاً لما يدعيه الخصوم .

ومن جملة هذه الشهادات المضادة لعقيدة الموارنة **اولاً شهادة لتيموطاوس** القسطنطيني ذكرها المؤرخ كمبيفيس [١] ، يدّعي فيها « ان الموارنة كانوا يرفضون المجامع : الرابع ، والخامس ، والسادس ، ويضيفون الصلب على تسبحة التريساجيون ، ويقولون بمشيئة واحدة وفعل واحد في السيد المسيح » .

على انه من الثابت الاكيد « ان هذه الشهادة لا يمكن اطلاقاً ان تكون لتيموطاوس المذكور ، لانه من المعلوم تاريخياً ان تيموطاوس هذا انما كان في اواخر القرن الخامس واوائل السادس ، وتغلّب على كرسي قسطنطينية سنة ٥١١ بعد طرد مقدونيوس بطريركها ، وقد كتب هذه الرسالة على ما يقال اذ كان بعد كاهنا لكنيسة هذه

---

(١) انظر مجموعة المجامع لمين عن آباء اليونان، مج ٨٦ عمود ٦٥ رقم ٥٣؛ وتاريخ هرطقة المونوتيلية لكمبيفيس (Combéfis) المطبوع في باريس سنة ١٦٤٨ ص ٤٦٤ ؛ والسمعاني في مكتبته الشرقية مج ١ صفحة ٥٠٩ . وانظر : S. Vailhé, origines religieuses des Maronites dans les Echos d'Orient, t. IV p. 159; et J. Tixeront, Precis de Patrologie, Paris, 1920 p. 390.

الشهادة نفسها ، وعلى انهم كانوا يدافعون عنها بحرارةٍ واعتزاز ، لا ترهبهم في المحافظة عليها تهديداتٌ ولا اضطهادات مهما كان نوعها [١] .

ولدينا ايضاً شهادةٌ **رابعة** خطيرة ، لا تقل قيمةً عما تقدمها من المستندات التاريخية الثابتة ، تدل بوضوحٍ على ان الموارنة واليعاقبة كانوا على خلافٍ مستحكم الحلقات في المعتقد ، حتى ان اليعاقبة انفسهم كانوا يقرفون الموارنة ويدعونهم ، كقول مطرانهم اليعقوبي حبيب بن خدمة ابي رايطة [٢] اسقف تكريت (Tagrit) (وتكريت هذه او تغريت هي مدينة ما بين الموصل وبغداد) ، من كتبة القرن التاسع ، « خلقيدونيين او هراطقة » لانهم يتبعون بحسب تعبيرهم نفاق المجمع الخلقيدوني [٣] .

وهذه الشهادة رواها غريغوريوس ابن العبري [٤] ، مبيّناً ان الاختلاف بين اليعاقبة والموارنة استمرَّ في عهده ايضاً ، فكتب عن العالم توفيل الرهاوي المتوفى عام ٧٨٥ ما عرّبه عن السريانية العلامة دريان في كتابه [٥] بالحرف الواحد :

« وفي هذا الزمان [٦] ، اشتهر توفيل ، ابن توما الرهاوي المنجّم الماهر

---

(١) انظر المطران ديب ، في الموضع نفسه ، صفحة ٥٦ — ٥٩ .

(٢) راجع كتب ابي رايطة اللاهوتية بين المخطوطات العربية في المكتبة الاهلية بباريس ، تحت رقم ١٦٩ (صفحة ٨٦ — ٨٧) ؛ راجع دريان في لبابه ، صفحة ١٩٢ حيث نشر كامل رسالة ابي رايطة التي ذكرها المطران يوسف داود السرياني في كتابه جامع الحجج الراهنة ، صفحة ٥٠٨ .

(٣) المطران ديب ، صفحة ٥٨ ؛ وانظر قبلًا ص ١٤١ .

(٤) في تاريخه السرياني المعروف باسمه ، المطبوع في باريس سنة ١٨٩٠ ، طبعة بدجان (Bedjan) .

(٥) لباب البراهين الجلية . . . صفحة ٩٠ و١٠ بعدها .

(٦) اي زمان المهدي الخليفة العباسي الذي تولى الخلافة في سنة ٧٧٥ ، ومات في سنة ٧٨٥ للمسيح .

الذي تبع هرطقة الموارنة[١] . » وجاء في كتاب ابن العبري ايضاً[٢] ما نصه : « وكان توفيل هذا على مذهب الموارنة الذين في جبل لبنان من مذاهب النصارى[٣] . » وكان توفيل متضلعاً من علم الرياضيات والموسيقى وعلم النجوم ، ومشهوراً بسعة الاطلاع على الادبين اليوناني والسرياني . وكان يروي الشيء الكثير من الالياذة ومن سوفوكل حتى صار يعدّ من اكبر ادباء عصره قاطبةً ، وقد وضع تاريخاً في دولة الخليفة المهدي في بغداد ، ونقل الى السريانية الياذة هوميروس التى كان السمعاني الشهير قد عثر في ايامه على نسخةٍ منها وضاعت . . .[٤] .

ففي هذه الشهادة الدليل الكافي على اثبات البون الشاسع في المعتقد بين اليعاقبة ، الذين يحرمون المجمع الخلقيدوني ، كما رأينا ، وبين الموارنة الذين يناضلون عن العقيدة الكاثوليكية المشروحة فيه ، والتي من أجلها اضطهدهم خصمُهم ، ودعاهم باسم خلقيدونيين[٥] استهزاءً بهم ، لكنهم ظلوا يحافظون على هذا المعتقد القويم ، متباهين به ، في القرن الثامن

---

(١) قوله « هرطقة الموارنة » انما يريد به كما سيجيء انه كان من اشياع المجمع الخلقيدوني الذي يتمسك به الموارنة كما لاحظنا . ذلك لأن اليعاقبة يلعنونه ويحرمونه ويسمون هراطقة كل من يتمسك به ، بدليل ما يقول عن نفسه وقومه بأنهم « مستقيمو الايمان » في الفقرة التي تلي كلامَهُ عن الموارنة ، (انظر دريان في الموضع نفسه ، ص ٩٠) .

(٢) «مختصر الدول» الذي كتبه في العربية سنة ١٨٩٠ ، ص ٢١٩-٢٢٠ .

(٣) يتحصل من كلامه هذا الاخير ان الموارنة ، ويعني بهم موارنة عصره الذين كانوا في القرن الثالث عشر ، وقد انحصروا في جبل لبنان ، انهم كانوا على اختلاف تام في المذهب مع اليعاقبة ، وسوف نرى في ما نراه من الآثار التاريخية ، ما يدعم هذه القضية الظاهرة ، (راجع دريان في الموضع نفسه ؛ وايضاً المطران ديب ، ص ٥٩) .

(٤) طالع « مختصر الدول » للعبري ، طبعة صالحاني ص ٢١٩ ؛ والدبس في الجامع المفصَّل ، ص ١٦٢ ؛ والسمراني في كتابِهِ ، ص ٣٢ .

(٥) راجع ص ١٦١ من هذا الكتاب .

كما يقول الاب ناو نفسه[١] ، لان مما يجب اليه الانتباه « ان خصمهم هذا اللدود لا يقرّفهم بضلالٍ من حيث الاعتقاد مطلقاً بل بما يخالف الاعتقاد بضلاله . » اجل يقرفهم لانهم استمروا ثابتين على الايمان القويم ، متمسكين بعرى الدين وعقائد المجمع الخلقيدوني ، الذين بذلوا دماءهم محافظةً عليه ، وعلى طاعة البابا لاون ، الذي نادى بهذا المجمع المقدس ، وقد وافقهم على ذلك جمٌّ غفير من المؤمنين في نواحي حماة ، وحمص ، وقنسرين ، والعواصم ، ومنبج حتى الرها ، كما رأينا .

ولدينا : **ثانياً** : شهادة بطريرك اليعاقبة نفسه السيد ديونيسيوس التلمحري ، في القرن التاسع ، ذكرها عنه ابن العبري ، من كتبة القرن الثالث عشر ، في تاريخه السرياني المعروف باسمه[٢] . وقد روى فيها « انه في عهد الملك هرقل ، نحو سنة ٦٢٨ ، حدث بين رهبان دير مار مارون واليعاقبة مشاحنات فانتزع الاولون من ايدي اليعاقبة اديارهم وكنائسهم برضى الملك الذي غضب على الآخرين لانهم أبوا الاعتراف بحقيقة المجمع الخلقيدوني ، وكتب الى كل المملكة قائلًا : إذا وجد

---

(١) انظر الاب ناو ، ص ٣٤٣-٣٤٤ ؛ وايضاً المقالات العشر للكفرطابي المنشورة في مجلة المنارة ، سنة ١٩٣٩ ؛ والمطران ديب في تاريخه ص ٥٢ – ٥٣ ؛ والمطران دريان في كتابهِ الجراجمة ، ص ٣٥ .

(٢) ايّ تاريخ ابن العبري ، قسم اول ، ص ٢٧٠-٢٧٤ ؛ أنظر عنه المطران ديب في الموضع نفسه ، ص ٥٤ ، حيث أثبت مواصلة اعتقاد الموارنة بالكثلكة ومدافعتهم عن المجمع الخلقيدوني ، مبرهناً على ذلك من شهادة التلمحري (٨١٨-٨٤٥) نفسها المذكورة في تاريخ ابن العبري (المتوفى سنة ١٢٨٦) والتى نقلها عن المؤرخ الكبير مخايل السرياني (١١٦٦ – ١١٩٩) وذكرها في تاريخه الذي ترجمه الى الفرنسية الاب شابو سنة ١٨٩٩-١٩١٠ في باريس ، ج ٢ ص ٣٥٧ – ٥٢٩ ، وج ٣ ص ٣٠١ . وقد ذكر هذه الشهادة ايضاً من قبل المطران دريان في لبابه ، ص ٨٧ وما بعدها ، وص ١٣٥ – ١٣٩ حيث اثبت صدق روايات ابن العبري لاعتماد هذا الاخير على مؤرخين ثقةٍ تقدموه كما قال هو عن نفسه في تاريخه المشار اليه ؛ وفي كتاب الجراجمة . . . ص ٣٦ – ٣٧ .

من لا يسلم بالمجمع المذكور يجدع انفه ، وتصلم اذناه ، ويؤخذ بيته ... »[١] . وهذا دليل قاطع على ثبات الموارنة في ايمانهم الكاثوليكي ، ومحافظتهم على تعليم المجمع الخلقيدوني المقدس .

ثالثاً : نجد شهادةً اخرى اهم من الثانية وهي التي ذكرناها في معرض كلامنا عن قداسة البطريرك الاول يوحنا مارون ، نشير اليها الآن إشارةً لخطورتها من الناحية التاريخية ، وهي التي اكتشفها العلامة الالماني نُلدكه[٢] ، جاء فيها ما يلي :

« في سنة ٩٧٠ للاسكندر وهي السنة السابعة عشر لملك قسطنت[٣] في شهر حزيران اتى اسقفا اليعاقبة تاودورس وسبوخت[٤] الى دمشق وتجادلا امام معاوية مع اصحاب مارون في امر الايمان . ولما أُفحِم اليعاقبة ، أمر معاوية ان يقدموا له عشرين الف دينار وامرهم ان يلزموا الصمت وجرت العادة مذ ذاك على اساقفة اليعاقبة ان يدفعوا لمعاوية مثل هذا المبلغ من الذهب لئلا يرخي بهم اليد فيضطهدهم ابناء الكنيسة » اي الموارنة .

وهذه الشهادة تدل على ثبات الموارنة على العقيدة الكاثوليكية في تلك العصور ، ولاسيما في اخر القرن السابع ، كما هو ظاهر من

---

(١) انظر المطران ديب في المحل نفسه، صفحة ٥٥ حيث يستند الى : « Chronicon ecclesiasticum, t. 1 (ed. Abbelos — Lamy), Louvain, 1872, col. 269 — 274.

(٢) راجع صفحة ٨٨ — ٩٠ من هذا الكتاب .

(٣) اي قسطنت الثاني الذي ملك من سنة ٦٤١ الى سنة ٦٦٨ للمسيح .

(٤) اما تاودورس هذا على ما لاحظ الاب ناو هو بطريرك اليعاقبة كما جاء في تاريخ العبري . واما سبوخت فهو اسقف قنسرين اليعقوبي كما ذكره ابن العبري ايضاً في تاريخه ، صفحة ٢٧٦ و ٢٨٢ .

ولنا علاوةً عما ذكرنا براهين قاطعة على ثبات الموارنة في عقيدتهم الكاثوليكية ، جيلاً بعد جيل الى يومنا هذا . منها :

اولاً – رسالتان سريانيتان لا يتطرق الشك الى تاريخيتهما اطلاقاً وجدهما المستشرق الفرنسي الاب ناو ، الذي سبق ذكره ، بين المخطوطات السريانية القديمة المحفوظة في المتحف البريطاني بلندره ، في كتابٍ سرياني خطّ في القرن الثامن [١] ، يرتقي تاريخ عهدهما الى ما بين القرن السادس والسابع ، كما أثبت الاب ناو نفسه مبرهناً على صحته من الوقائع التاريخية الراهنة [٢] في مقدمةٍ علقها على هاتين الرسالتين ، عندما نشر ترجمتها سنة ١٩٠٣ في مجلة شركة القديس لويس للموارنة التي كانت تطبع في باريس .

فاحدى هاتين الرسالتين رفعها « الرهبان الارثوذكسيون الموارنة أبناء البيعة المقدسة الكاثوليكية الى فرقة الحلقى اتباع بطرس [٣] التي

---

ils devinrent sous la direction même de leur Patriarche, les défenseurs d'un bastion chrétien que, ni les siècles, ni les déchainements de la force, ne devaient briser : comme Abraham, les Maronites avaient trouvé dans un pays nouveau la chance de sauver leur foi ; plus tard, au moment du schisme grec, ils refusèrent de s'associer aux erreurs de Cérulaire, et demeureront fidèles au grand principe : « Ubi Petrus, ibi Christus ». Le passage des Croisés dans leur pays, au XI^e siècle, achèvera de sonder les chaines de fidélité qui, jusqu'aujourd'hui, les ont attachés à Rome.... » (p. 386 s.)

(١) تحت رقم ١٢١٥٥ ، صفحة ١٦٣ وما بعدها ؛ ويقول المطران الدبس ، في كتابهِ « الجامع المفصل . . . صفحة ٢٨ – ٣٣ ، ان الاب ناو طبع هذا الاثر السرياني طبعاً فوتوغرافياً واهدى اليه عدة نسخٍ منه ليترجمها ، وبالفعل عرّبها المطران الدبس ونشرها في كتابه المشار اليه ، في الموضع المذكور .

(٢) انظر دريان في لبابه ، صفحة ٦٤ حتى صفحة ٨٧ ، حيث تجد ترجمة هاتين الرسالتين والتعليقات عليها ؛ وفي كتابه الآخر عن الموارنة والجراجمة ، صفحة ٣٣–٥٣ .

(٣) وهو بطريرك اليعاقبة منذ سنة ٥٧٨ الى سنة ٥٩١ ، على ما روى ابن العبري في تاريخه المذكور ، (راجع دريان في لبابه ، صفحة ٦٤ في الحاشية) .

هي احدى الفرق الكثيرة التابعة لاوطاخي وساويروس الذين يخفون اسماءَهم واديارهم كالجواسيس واللصوص . » فهذه العبارة التي يُتوّج بها رأس الرسالة كافيةٌ وحدها للتدليل ، كقول الاب ناو المذكور ، « على ان ذلك يبين بزيادةٍ صحة وايمان رهبان القديس مارون وتباعهم من القرن السادس الى السابع ، والاولية التي كانت لذاك الدير على كل اديار سورية الثانية » .

واما الرسالة الثانية فهي جواب اليعاقبة المونوفيزيون الى الموارنة ، عنوانها « إحتجاج وحل اعتراضات » يطلق فيها اليعاقبة على الموارنة القاباً تهكميةً ، فيسمّونهم « فروع كرم لاون ، واغراس الكرم الخلقيدوني »[١] ويصرّحون بان ساويروس الملحد هو معلمهم وسيدهم « القديس » ؟ فيقولون : « ولما كان أبونا البطريرك القديس ساويروس قد اتبع هؤلاء المعلمين الماهرين ... » ثم يقرّفون الموارنة قائلين لهم : لماذا تقبلون مجمع خلقيدونية جاعلين كل حرمه على رؤسكم » ثم يقرّفونهم ايضاً لانهم (اي الموارنة) استعملوا العصي ضد اليعاقبه... خاتمين رسالتهم الى الموارنة بالعبارة الاخيرة الآتية :

« انتهى كتاب حل الاعتراضات الغير المعقولة ، اعتراضات الرهبان الموارنة الذين في ارض آفامية » .

فهذه الردود التي وجهّها اليعاقبة الى الموارنة في القرن السابع ، وقرّفوهم فيها بأنهم « استعملوا العصي ضدهم » تعود على الموارنة بالفخر ،

---

(١) راجع الاب ناو ، في الموضع نفسه ، صفحة ٣٤٣-٣٤٤ ، وقد ذكره سيادة المطران ديب في تاريخه المشار اليه ، صفحه ٥٣ ؛ والمطران دريان في المحل الذي اشرنا اليه اعلاه .

اورشليم ، وفي صور ايضاً ، وحكم الآباء المجتمعون فيهما على ساويروس بالضلال ، ورشقوه بالحرم الكبير .

وبناءً على ذلك امر الملك الصالح بانزال العقاب بساويروس وكل من تبع اعماله وتعاليمه كما اسلفنا . فهرب هـذا المضلّ الى مصر في زي راهب حقير لئلا يعرفه احد فيقتله ، ومات هناك بين سنة ٥٣٩ و ٥٤٢ ، وأُقيم مكانه على انطاكية بولس القويم الايمان[١]. وفي عهد الملك يوستين الصالح وعهود خلفائه : يوستينيانوس (٥٢٧ — ٥٦٥) ، ويوستين الثاني (٥٦٥ — ٥٧٨) ، وتيباريوس الثاني (٥٧٨ — ٥٨٢) ، وموريسيوس اي موريق (٥٨٢ - ٦٠٢) ، انتصرت المباديء الكنسية الخلقيدونية ، بالرغم عما بذلت الملكة تاودورة زوجة يوستينيانوس الملك من جهود ، لمساعدة البدعة الاوطاخية سراً ، عاملةً بحذق ورئاء على استمالة زوجها الى التخفيق من شدة الوطأة على الاوطاخيين[٢].

وبعد ملك دام نحو عشر سنوات ، خلفه ابن اخته يوستينيانوس الكبير صاحب الشرائع المشهورة المنشورة في آخر كتاب الهدى . فامر بتوقيف كل الاساقفة المشتبه بايمانهم وحبسهم في الاديار ، سواء كانوا في سوريا ام في مصر . وهذه كانت نهاية اليعقوبية الى زمان[٣] . وفي عهده عقد المجمع المسكوني الخامس في القسطنطينية سنة ٥٣٦ ، ولم يشر هذا المجمع ولا سواه اطلاقاً الى ان الموارنة كانوا يجنحون

---

(١) انظر الجامع المفصل للدبس ، صفحة ٢٦ ؛ والعالم دانيال روبس في الموضع نفسه ، ص ٣٨٣ وما بعدها .

(٢) راجع جانين ، الموضع نفسه ، صفحة ٤٥٩ ؛ ونيكسيران ، صفحة ١١١ من الكتاب الثالث ؛ ودانيال روبس في كتابه : « L'Eglise des temps Barbares, p. 382. »

(٣) انظر جانين في الموضع نفسه ، صفحة ٤٥٨ .

الى اي معتقد يخالف اعتقاد الكنيسة الكاثوليكية الجامعة المقدسة ، بل بالعكس توجد رسائل وعرائض معلقة في ذيل المجمع القسطنطيني السابق وقد اشرنا اليها اعلاه ، يحتوي بعضها على وثيقة ايمان رهبان مار مارون التي انفذوها الى البطريرك مينا الذي رسمه البابا في روما بطريركاً على القسطنطينية كما ذكرها العلامة الدويهي في تاريخه عن الموارنة باسهاب [١].
وقد احسن القول في هذا الصدد العالم الفرنسى المشهور دانيال روبس في كتابه « تاريخ الكنيسة في زمان البربر » حيث وصف ثبات الموارنة في عقيدتهم الكاثوليكية ، ونضالهم ضد اصحاب البدع على اختلاف انواعها ، وتمسكهم بتعاليم المجمع الخلقيدوني ، على تمادي العصور ، اسوةً بشفيعهم ومؤسسهم العظيم ، القديس مارون [٢] .

---

(١) راجع الدبس في الجامع المفصَّل ، صفحة ٢٦ .

(٢) وهذا كلامه بالفرنسية : « Au moment où le VI Concile œcuménique liquida le monothélisme, des groupes de fidèles de la region de Taurus **réfusèrent** d'en accepter les décisions. Avaient-ils de sécrètes sympathies pour les thèses condamnés ? On l'a soutenu, mais sans preuve aucune. Plus probablement furent-ils mal renseignés sur les termes exactes des canons. C'est un sentiment très noble de **fidélité absolue** aux décisions des conciles qui les amena à prendre une attitude d'ombrageux refus. Sur le bord de l'Oronte, dans la plaine d'Apamée et de Cyr, une Cammunauté monastique s'était fondée autour du tombeau d'un grand anachoréte du V[e] siècle, S. Maron. Ce furent les moines de cette Communauté qui constituèrent, au cœur des luttes théologiques, le bastion de la foi le plus sourcilleuse. Chalcédoniens fervents, ils refusèrent de se rallier à des positions qu'ils tenaient pour hérétiques, et ils constituèrent un Patriarcat indépendant, à la fois ennemi des monophysites-jacobites et méfiant envers l'Eglise officielle. Courageusement ils tinrent tête à toutes les pressions exercées sur eux. Obligés, par l'invasion musulmane, de quitter les belles plaines, ils préférèrent tout abandonner plutot que de se soumettre ou de pactiser avec les infidèles. Réfugiés dans les montagnes du Liban,

وقتل منهم ٣٥٠ راهباً ، وهم الشهداء الذين تعيِّد لهم الطائفة المارونية في ٣١ تموز باسم تلاميذ مار مارون ، وكان ذلك عام ٥١٧ تقريباً (١) .

وبعد هذه الحوادث المؤلمة ، واستتباب الامن ، اجتمع الرهبان الذين نجوا من القتل ، ورفعوا عريضةً الى الملك انسطازيوس أو انسطاس نفسه يشكون فيها مما لحق بهم من الحيف والدمار ، وطلبوا منه ان ينصفهم ، ويردَّ اليهم حقوقهم المهضومة ، غير مفتكرين انه هو هو الذي سمح لساويروس بفعل ما فعل جوراً وعدواناً (٢) .

واذ رأوا ان الملك لم يحفل بهم ، رفعوا عريضةً ثانية الى الحبر الاعظم البابا هرمزدا (٥١٤ — ٥٢٣) ضمَّنوها شكواهم المرة ، ودفاعهم القويم عن المعتقد الكاثوليكي ، مع وصف ما قاسوه من اضطهادات الهراطقة (٣) ، وهي تَحمل ميئتي امضاءٍ ، وانفذوها اليه مع راهبين من اخوتهم هما يوحنا وسرجيوس (٤) . وقد اجابهم البابا برسالةٍ وجَّهها في العاشر من شهر شباط سنه ٥١٨ الى « القسوس والشمامسة ورؤساء الاديار الذين في سوريا الثانية وسائر الارثوذكسيين الساكنين في اية ناحيةٍ من الشرق ممن لهم اشتراك مع الكرسي الرسولي » (٥) .

---

(١) انظر ما قلناه قبلا بهذا الشأن ، ص ٧٨ وص ٨٣ .

(٢) انظر دريان في لبابه ، ص ٣٣ ؛ وما اشرنا اليه فيما سبق ولاسيما في ص ٨٥ .

(٣) راجع منسى في مجموعته المشار اليها ، في الموضع نفسه ، عمود ٤٢٥ — ٤٢٩ .

(٤) وهذه العريضة مع الجواب محفوظتان في مجموعة اعمال المجمع الخامس الذي عقد في القسطنطينية على عهد بطرير كنا ميناس سنة ٥٣٦ ويمكن مراجعتها في المجلد الثاني من سنة ٤٥١—٥٥١ ، وهما منشورتان في الجامع المفصَّل للدبس ، ص ٢٠ وما بعدها ؛ وفي لباب البراهين الجلية لدريان ، ص ٢٤ — ٣١ ؛ وفي تاريخ الكنيسة المارونية للمطران ديب ، ص ٥٢ — ٥٤ و ٥٧ و ٥٩ .

(٥) انظر ملخصها في تاريخ الموارنة للبطريرك العلامة اسطفان الدويهي ص ٤٤ ، وهي مكتوبة باللاتينية في مجموعة اعمال المجامع لمنسي ، ج ٨ عمود ٤٢٩ ، وخصوصاً ١٠٢٣ — ١٠٣٠ (راجع المطران ديب في تاريخه المذكور ، ص ٤٣ ؛ والدبس في الموضع نفسه ، ٢٢) .

كما ان قداسة البابا المشار اليه كتب رسالةً ضافية الذيل الى الملك انسطازيوس يحثّه فيها على اصلاح ما افسد في بيعة الله[١] وارسلها مع وفد، الى القسطنطينية، اودعهم ايضاً صحيفة مجمعية تتضمن الاقرار بعقائد الايمان لتفرض على جميع الرؤساء لاعتمادها والسير بموجبها. ولكن الملك رفض قبول الرسالة المبيّنة ضلال المونوفيزية، ونفى معتمدي البابا، واصرَّ على معتقده[٢]. واما خليفته يوستين الصالح العبادة (٥١٨ — ٥٢٧) فباشر حالاً باصلاح ما افسده سلفه. فاعلن الحرب على الاوطاخيين اعلاناً صريحاً بدون تمييزٍ بين مذهب وآخر، وخلع تيموطاوس بطرك القسطنطينية الدخيل، ونصَّب مكانه يوحنا المستقيم الرأي، وارجع الاساقفة الكاثوليك الى كراسيهم[٣]، وعقد مجمعاً خاصاً في العاصمة برئاسة بطريركها الجديد يوحنا الثاني، حضره ٤٢ اسقفاً. فانتهز اكليروس انطاكية ورهبانها الفرصة وارسلوا عرائض شكوى على ساويروس، وبينها عريضةٌ من رهبان آفامية باسم «زينوب القس رئيس دير القديس مارون في سورية»، يبسطون فيها وثيقة ايمانهم الصحيح مع شكاويهم مما حلّ بهم من اضطهادات قاسية[٤].

فبحث المجمع في هذه العرائض، وحكم بالحرم على ساويروس وكل من لفّ لفه، ورفع المجتمعون صورةً من قرارهم الى الحبر الاعظم، والى بطريركيتي انطاكية، واورشليم، فعقد حينئذٍ مجمع خاص في

(١) راجع ما قلنا اعلاه، صفحة ١١٧ — ١١٨، بهذا الخصوص.

(٢) انظر لباب البراهين الجلية، صفحة ٢٨.

(٣) انظر جانين، صفحة ٤٥٨؛ وتيكسيران، ج ٣، صفحة ١١٠.

(٤) طالع هذه العرائض في مجموعة اعمال المجامع لمنسي في المجلد الذي ذكرناه مراراً لغاية الآن. وقد ذكرها المطران دريان في الموضع المشار اليه، صفحة ٢٨ — ٢٩؛ والدبس في الجامع المفصل، صفحة ٢٦، نقلاً عن البطريرك الدويهي الشهير، باسهاب وتفصيل.

« هذا وإننا نضرب صفحاً عن الخدمات العديدة التي قدّمها الموارنة للروم الكاثوليك في تعاقب السنوات ، لاسيما الخدمات التي قام بها العلامة الماروني اسطفان عواد ، عندما أجرى المصالحة بين مطراني الروم الكاثوليك جراسيموس ومكسيموس سنة ١٧٣٥ [١] ، كما نضرب صفحاً عن توسط السيد يوحنا العسيلي الماروني لارجاع المطران مكسيموس حكيم من المنفى ، بعد ان قضى فيه خمسة شهور وحطّ عن كرسيه ، لحفظ كنيسته من اغتصاب الارثوذكس لها [٢] . ولا نذكر ما صنعه البطرك يوسف التيان لانهاء الخلاف الكبير بين المطران صروف والبطرك أغابيوس مطر بشأن الرهبنة التي انشأها الاول ، وفصل بلاد جبيل عن ابرشية بيروت ، وكيف ان رومية ايدت حكم البطرك الماروني في هذه الدعوى [٣] ؛ ولا عن الاضطراب والقلق في الافكار ، بسبب ما نشره المطران جرمانوس آدم مطران حلب للروم الكاثوليك بشأن سلطان البابا على الكنيسة الجامعة ، وتصدى بطرك الموارنة العلامة يوسف التيان له ، ودحضه [٤] ، وانتصار البابا للبطريرك الماروني ، ورزل كتب آدم ، وحرم آرائهِ ولو بعد وفاته بثلاث سنوات [٥] . كل هذا وغيره كثير ، نضرب عنه صفحاً ، ونكتفي بما قدمناه [٦] ، » تدليلا على ان المارونية والملكية كانتا ، على حد تعبير كتاب

---

(١) انظر ارشيف البطريركية المارونية ، مج ٢ ، صفحة ٧٠٨ ، وايكو دريان ، مج ٩ ، صفحة ٣٦ .

(٢) طالع المجلة السورية ، صفحة ٩١ .

(٣) راجع مجلة ايكو دريان ، مج ٥ ، صفحة ٢٦٥ .

(٤) انظر ارشيف البطريركية المارونية ، مج ٢ ، صفحة ٩٧٤ .

(٥) راجع ايكو دريان ، مج ٥ ، صفحة ٣٤٠ .

(٦) عن السمراني ، في كتابه المذكور ، صفحة ١٨٩ — ١٩٠ .

الهدى [١] ، فرقةً واحدة ، وبعدئذٍ انفصلتا ، وكوّنت كلٌّ منهما طائفةً مستقلةً كاملةً كما رأينا .

٩ً ـ هل ابتدع الموارنة ؟

من الراهن المشهور أن رهبان دير مار مارون كانوا من أخص المتمسكين بتعليم المجمع الخلقيدوني ، والمنتصرين له حتى الدم في القرنين السادس والسابع [٢] ، فاحتملوا في سبيل عقيدتهم ضروب الاضطهاد والاستشهاد . وقد جاء في مجموعة اعمال المجمع المسكوني المنعقد في القسطنطينية [٣] ، ان ساويروس الملحد حضر الى انطاكية ، منذ سنة ٥١٢ ، وبمعونة بطريرك القسطنطينية الدخيل [٤] ، عمل على طرد افلابيانوس القديس بطريرك انطاكية الشرعي ، وجلس مكانه عنوةً بامر الملك انسطاس ، واخـذ من ثم يبث تعاليمه المضلة ، مجاهراً بحرم المجمع الخلقيدوني ورسالة البابا ، ويضطهد اهل الايمان الكاثوليكي ، ومن جملتهم رهبان دير مار مارون في ناحية آفامية ، فنكل بهم تنكيلاً ، وهدم اديارهم ،

---

(١) الهدى ، ٣٧ ؛ انظر كتابنا عن « الملكية والمارونية » ، صفحة ١ – ج .

(٢) انظر ما اثبته بهذا الخصوص العالم الاب ناو في مقدمته على المخطوط الاثري الذي نشره في مجموعة الآثار المارونيـة في باريس ، سنة ١٩٠٣ ، ص ٣٤٨ – ٣٥٠ و ٣٦٧ – ٣٨١ ؛ وراجع ما اثبتناه بهذا الشأن في كتابنا هذا ، ص ٧٨ ، في الحاشية ، وص ٨٥ ؛ ثم ص ٨٨ و ٨٩ في الحاشية .

(٣) راجع منسي في مجموعة المجامع مج ٨ عمود ٤٢٥ – ٤٢٩ و ٩١١ و ٩١٢ .

(٤) وكان اسمه تيموثاوس ، وكان قبلاً خازن المدينة فصار بطريركاً على القسطنطينية بقوة الملك انسطاس ودهاء صديقه ساويروس الذي بالغ في اضطهاد رهبان دير مارون واتباعهم الذين كانوا اول نواة للطائفة المارونية في تلك الاعصر الخوالي .

الارتدادات الى حظيرة الكنيسة الجامعة ، عرضوا للباب العالي في الدولة العثمانية ، ان كل الهاجرين ديانتهم لاعتناق الكثلكة اصبحوا من رعايا البابا ، ومن تباع الافرنج (اي الفرنسيين خصوصاً والاوروبيين عموماً) ، وكانوا يرمون من وراء ذلك الى ان يوقعوا في الاذهان ان الاشتراك مع الكرسي الرسولي ، والاعتراف بسلطة البابا العليا معناه الانضواء حقاً الى الكنيسة الكاثوليكية ، وان « اسم افرنجي او كاثوليكي لا يعنيان غير معنى واحد ، في الجور والبلص » ، ومعناه ان من كان كاثوليكياً او افرنجياً فهو خارج عن سلطة السلطان[1]. وكان ذلك يسرّ الباب العالي طبعاً ، ويؤدي الى إصدار « الاوامر السلطانية » باعتقال اولئك المجرمين الكاثوليك وزجهم في السجون ، وتثقيل كواهلهم بالمغارم ، وضبط الكنائس[2]. وظل الروم الملكيون يتكبدون المظالم والاضطهادات حتى سنة ١٨٣٨ التي فيها استحصلوا من السلطان محمود على براءَة تخوّلهم إدارة شؤونهم المدنية .

كما انه واضحٌ جليّ ايضاً ما نال الموارنة من المظالم والتنكيل ، ولاسيما في حلب ودمشق ، عقاباً لهم على حمايتهم اللاجئين من ابناء الكنيسة الملكية في بلادهم ومساعدتهم بشتّى الطرق ، وعلى تسهيل الارتداد للارثوذكس الى الدين الكاثوليكي . نكتفي الآن بذكر حادثةٍ واحدة ، وقعت في عهد البطريركين المعهودين ، كيرللوس السادس وسيلفستروس ، عام ١٧٢٥ — ١٧٢٦ ، لتكون دليلاً ساطعاً على صدق ما نقول .

---

(١) راجع : « Documents inédits » مج ١ ، ص ٢١٥ ، و ٥٤٨ وما يليها ؛ وكتاب « السلاسل التاريخية في الابرشيات السريانية » للفيكونت دي طرازي ، ص ٢٣٥ ؛ واليد المارونية ، ص ١٢٧ — ١٣٢ .

(٢) في سنة ١٧٨٥ ضُبطت كنائس الروم الكاثوليك في صيدنايا ، الواقعة شرقاً بشمال الشام ، وسُلّمت بأمر نائب دمشق محمد باشا الى البطريرك دانيال الارثوذكسي . وعددها اربع : كنيسة المجامع ، كنيسة مار بطرس ، كنيسة مار اندراوس وكنيسة مار توما ، (طالع اليد المارونية ، ص ١٣٠) .

« فقد مرَّ بنا أن الملكيين ينهزمون في ذلك العهد من مدن سورية الى لبنان . والسواد الكبير منهم قد احتموا عند الرهبان الموارنة. وقد شكا سيلفسترس الموارنة الى سليمان باشا والي طرابلس . ومما قال في ذلك : « يساعدون ويحمون الملكيين الذين خرجوا على اوامري واوامر السلطان » . فعجَّل ذلك الوزير بارسال كتيبةٍ من الجند لاعتقال البطريرك الماروني والملكيين المحتمين عنده . ومشت تلك الكتيبة ليلا في طريق جبة بشري ، منقسمة الى فرق ثلاث : الاولى الى دير قنوبين مركز البطريرك ، والثانية الى دير قزحيا ، والثالثة الى دير مار ليشع بشراي خاصة الرهبان الحلبيين . وهذه بلغت هدفها قبل الفجر تفاجيء الدير . فتسارع الرهبان الى تخبئة الملكيين ضيوفهم ، مع البطريرك الذي كان قد انسلّ اليهم، محتمياً في مخبأ تحجبه الصخور واكتشافه عسير جداً . واخذ الجنود يتسقطون ويتلمسون في ذلك الدير على ضوء الفوانيس ، حتى أعياهم التفتيش عبثاً عمن كانوا ينشدون ، فارتدوا اخيراً الى الرهبان يصبّون عليهم جامات الكيد والتعنيف ليعرفوا اين اختفى المشكوون . وبعد محاولات ومناورات على غير جدوى ، اقتادوا الرئيس وواحداً من رهبانهِ اسيرين الى طرابلس . وما بلغوا نصف الطريق حتى رُزِقَ الأسيران مَن افتداهما بالمال .

« اما الفرقة الاولى فانحدرت الى قنوبين ، ولم تظفر بمطلبها . واما الثانية فاذ كادها ان تخفق ايضاً في ايجاد ضحاياها في دير قزحيا ، إقتادت الى طرابلس رئيس الرهبانية العام ومجلس مدبريها ، فطرحهم سليمان باشا في السجن ، واصرّ على اسرهم حتى يدفعوا ١٢ ألف غرش . فاضطروا الى دفع ذلك المبلغ مكرهين ... »[١] .

---

(١) انظر تاريخ الرهبانية اللبنانية ، مج ١ ، ص ١٢٣ ؛ والدر المنظوم للبطريرك بولس مسعد ص ٨١ ؛ واليد المارونية التي اخذنا عنها هذا الحادث ، ص ١٣٨ — ١٤٠ ؛ والسمراني ، في الموضع نفسه ، ص ١٨٥ وما بعدها .

خوري موارنة جون ، الاب انطونيوس ، ان يذهب الى دير المخلص حيث كان البطرك اتناسيوس ويقرأ عليه وعلى الاساقفة والرهبان براءَةَ البابا بالالغاء والربط ، وبدؤها « كم هو عزيز دائماً Quam cara «semper» . فامتثل كاهن الموارنة لأمر القاصد الرسولي ، وكان ذلك في ٤ تموز سنة ١٧٦١ [١] .

ولم يمضِ طويل وقت ، بعد اخذ وردّ ، حتى انتهى الامر : ذلك ان مكسيموس عاجلته الوفاة في تلك الاثناء ، فاجتمع الاساقفة وانتخبوا خلفاً له اثناسيوس دهان بطريركاً انطاكياً مصطبغاً باسم تاودوسيوس السادس ، واعترفت به روميه واولته تثبيتها [٢] ، وهكذا انتهى كل شيء لخير الكنيسة ، وازدهار الطائفة الملكية الكاثوليكية .

وللطائفة الملكية نحو ٣٨٥ كنيسة و ٢٥ ديراً و ٢٠٠ مدرسة ، واكليريكية للكهنة المتزوجين مركزها في عين تراز ، ومدرستان للاكليروس العلماني يتلقى فيهما العلوم الدينيـة : المدرسة الصغرى في رياق بلبنان ، والمدرسة الكبرى في القدس ، وعددهم نحو الثلاثمائـة كاهن يخدمون في خمس عشرة ابرشية متفرقة [٣] في بلادنا الشرقية . ولطائفة الروم الكاثوليك ايضاً عدة رهبانيات للنساء وللرجال كالرهبانية الباسيلية المخلصية (١٦٨٧) والشويرية (١٦٩٧) والحلبية (١٨٢٩) وجمعية البولسيين (١٩٠٣) [٤] .

ومما يجدر الانتباه اليه ان الطائفة الملكية قد « انجبت نقولا صائغ

---

(١) طالع ارشيف مطرانية الروم الكاثوليك في بيروت ، عدد ٧ و ١٨ ؛ ثم اليد المارونية ؛ والسمراني ، في المواضع المذكورة .

(٢) ايكو دريان ، مج ٥ ، ص ٨٦ وما يليها .

(٣) راجع « تاريخ الكنيسة » المطبوع في مصر سنة ١٩٥١ ، ص ١٣٥ – ١٣٦ .

(٤) انظر المرجع نفسه ، ص ١٣٤ – ١٣٥ .

وعبدالله زاخر ، فكانا مفخرةً ومجداً : الاول بكتاباته واعماله على توحيد الرهبانية الشويرية ، والثاني بمباحثه الجديدة الشهيرة . والاثنان حظيا من الموارنة بالنصيب الكافي من المساعدات الجليلة على احقاق مآتيهما . وبأي مقام كان الرأي بأصلهما الكاثوليكي او الارثوذكسي وارتدادهما ، فمن المؤكد الراهن ان الخوري بطرس التولاوي ، نائب البطريرك الماروني ، في حلب ، كان له الفضل والتأثير على ثقافتهما العلمية والدينية ، ما هو غني عن اي اثبات وجدال[1]. » وكان لهذين العلامتين اليد الطولى ، في تفنيد مزاعم الارثوذكس[2] ، وفي حركة الارتدادات المتتابعة ، لا يُخيفهما تهديد ، ولا اضطهاد يقوم به اعداؤهما الالداء .

وغني عن البيان ما اصاب الملكيين من الاضطهاد ، من اخوانهم الارثوذكس ، بسبب الارتدادات الكثيرة ، منذ القرن السابع عشر . فان هؤلاء الارثوذكس ، قصدَ التحدي للملكيين ، وإيقاف جري

---

(١) المشرق ، مج ٣ (عام ١٩٠٠) ، ص ٣٦٠ و ٣٧٠ ، و ٧١٩ و ٩١٥ . (راجعه في اليد المارونية ، ص ١٠٨-١٠٩) . ومن اراد الاستفاضة بذكر اعمال هذين العالمين ، والجهود التي بذلاها في سبيل الدين ، وارتداد الارثوذكس ، وتفنيد مزاعمهم ، ورغب في معرفة الصداقة المتينة التي كانت تربط زاخراً برهباننا الحلبيين الموارنة في دير اللويزة حيث كان يتردّد اليه بتواتر ، ويقضي فيه غالب الاحيان اكثر ايام الاسبوع ، برفقة العلامة المطران جرمانوس فرحات ، كما صرّح هو نفسه في رسالة كتبها في عام ١٨٤٠ حسبما جاء في مجلة ايكودريان ، مج ١١ ، ص ٢٨١ ، فعليه بمطالعة اليد المارونية ، ص ١٠٨ - ١١٤ ؛ وتاريخ الكنيسة للاب السمراني ، ص ١٧٤ - ١٨١ .

(٢) جاء في مجلة الايكو دريان (مج ٥ ، ص ٨٤ ؛ ومج ١١ ص ٢٤٣) بهذا الخصوص ما تعريبه : « وحول عام ١٧٢٣ عُقد في القسطنطينية مجمع ضد الملكيين حضرهُ جميع الرؤساء الارثوذكس ، ومنه انفجرت قنابل الاضطهاد حاميةً ، فعلم زاخر بالنبأ ، وهو في دير سيدة اللويزة للرهبان الموارنة الحلبيين ، وفي الحال جمع اضاليل ذلك المجمع وألف منها كتاباً سمّاه « التفنيد للمجمع العنيد » . فكان اثراً اصاب من النفوس في جميع الانحاء السورية وتر الشعور والتأثير البليغين » طالع اليد المارونية ، ص ١١١ - ١١٢ .

ولم يمضِ طويـل زمنٍ حتى ارتدّ البطريرك ايضـاً ، وتبعه بعض اساقفتهِ [١] . وكان المطران افتيموس بعد هذه المناظرة ، يردّد علناً امام الجميع : « الكنيسة الحقيقية [٢] هي كنيسة الافرنج وكنيسة الموارنة » [٣] . وارسل كيرللوس الخامس الى روميـة صكّ إقراره بالايمان طالباً درع التثبيت ايضاً، وتوفي في حضن الكثلكة عام ١٧٢٠ [٤].

وخلفه اثناسيوس الرابع فأعلن رغبته بالاتحاد مع رومية ، ولكن ذلك لم يستمر طويلا ، فانه حين وفاته عـام ١٧٢٤ ، أبى الاقرار بالايمان الكاثوليكي [٥] .

وبعد موته اجتمع بعض الاساقفة في دمشق ، وانتخبوا خلفاً له الاب ساروفيم طاناس ، في اليوم العشرين من شهر ايلول ١٧٢٤ ، متخذاً اسم كيرللوس السادس ، وقد اعلنت رومة صحة انتخابهِ سنة ١٧٢٩ ، ومنحته درع التثبيت سنه ١٧٤٤ ، على يد مطران بابـل اللاتيني [٦] . ولكنّ الروم الارثوذكس في حلب خرجوا عليه ، ورفضوا الطاعة له ، وانتخبوا بدلهُ بطركاً ، مطران قبرس ، سيلفستروس . وقد اعترف به بطرك الفنار وبطرك اورشليم . فجاء

---

(١) انظر : « Echos L'Orient » مج ٤، صفحة ٣٢٧ ؛ وايضاً « Revue de l'Orient Chrétien» مج ٣ ، صفحة ٨ ومـا يليها ؛ والمشرق ، مج ٤ ، صفحة ٦٤٩ ؛ والدبس في الجامع المفصّل ، صفحة ٣٦٦ .

(٢) انظر : Besson, La Syrie et la terre Sainte au 17 sc. p. 160 et suiv.

(٣) راجع السمراني في الموضع نفسه ، صفحة ١٧٢ .

(٤) راجع غبريل ، في المحل نفسه ، مج ٢ ، قسم ١ ، صفحة ١٣٥ — ١٣٦ .

(٥) طالع مجلة ايكودريان مج ٤ ، صفحة ٣٣٠ ؛ وغبريل في الموضع نفسه ؛واليد المارونية ، صفحة ١٠٣ .

(٦) غبريل ، المرجع نفسه في المكان عينه .

من اسطمبول مسلحاً « بفرمان سلطاني » يعترف به « وحده » بطريركا على انطاكية ، ويخوّله ايضاً ان يوقف مزاحمه الكاثوليكي او ينفيه مع اتباعه[١] . « ثم جاء الى دمشق الشام ليحطّ البطريرك كيرللوس عن كرسيه ويسلمه الى القضاء ، فأسرع كيرللوس بالهرب الى لبنان ، طالباً حماية البطرك الماروني ، فحماه بطركنا يعقوب عواد ، واحسن ضيافته ، واوصى به سفير فرنسا في اسطمبول . ولما اطلع البطرك سيلفستروس على حماية بطرك الموارنة لخصمهِ ، إستشاط غضباً ، وحقد على الموارنة وبطركهم ، وعمل جهده عند والي طرابلس للتنكيل به وارهاقه ، وتمَّ ذلك فعلاً كما سنذكره بعيده . وكان البطرك كيرللوس يتكلم علناً عن مساعدة الموارنة له[٢] . »

وعندما احسَّ كيرللوس بدنو اجله ، تنازل عن البطريركية سنة ١٧٥٩ لابن اخيه الصغير ، اغناطيوس جوهر ، الراهب المخلصي[٣] ، الذي اتخذ اسم البطرك اتناسيوس . حينئذٍ بادر بعض الاساقفة فرفعوا الامر لرومية ، فحكم البابا اكليمنضوس ١٣ ببطلان التنازل والانتخاب ، بما انه خلو من رضى الكرسي الرسولي ، ورشق جوهراً بالمنع الكنسي ، وارسل البابا الى لبنان قاصده الاب عبد الاحد دي لانشيش (Lanceis) الدومينيكاني ، مزوّداً بكل التفويضات اللازمة ليصلح الامور[٤] . فلم يفلح . فذهب الى صيدا وطلب الى

---

(١) ايكودريان مج ٥، ص ١٨؛ اليد المارونية ، ص ١٠٤؛ «Lett. édifiantes» مج ١ ص ٤٦٩ .

(٢) السمراني ، ص ١٧٢ — ١٧٣ ؛ راجع غبريل ، المرجع عينه ، مج ٢ ص ٥٦٤ قسم اول ، وص ١٣٦ قسم ثان ؛ ومجلة ايكودريان ، مج ١٦ ، ص ٥٤٣ .

(٣) ولم يكن عمره وقتئذٍ الا ٢٧ سنة ، أنقص بكثيرٍ مما يجب لارتقاء الاسقفية ، كما تفرض القوانين ، (انظر مجلة ايكودريان ، مج ٥ ، ص ٨٦) .

(٤) راجع روفائيل دي مرتينيس ، « الحق البابوي في نشر الايمان » مج ٤ ، قسم اول ، ص ٤٩ — ٥٧ .

ولكنهم اتخذوا طقوس الكنيسة القسطنطينية طقساً لهم . ومعلوم ان الطقس اليوناني ، ويقال له البيزنطي ، نشأ في القسطنطينية منذ القرن الرابع الى العاشر ، وكانت لغته باديء الامر اليونانية القديمة ، ثم تُرجم الى اللغات التي دخل بلادها ، ومنها اللغـة العربية التي اصبحت لغة الروم الكاثوليك الطقسية منذ الفتح العربي [١] ، وقد اتخذوا مباده الاساسية من انطاكية بواسطة كبادوكيا [٢] .

ومعلوم ايضاً ان الروم الملكيين الكاثوليك « لا يؤلفون كنيسة وطنية محصورة بل هم جزء من الكنيسة الجامعة . ولكن عندما انفصلت البطريركية القسطنطينية عن كرسى رومية الرسولي في القرن التاسع ، ثم في القرن الحادي عشر ، بقيت البطريركيات الملكية متحدة به مدةً طويلة على الوجه الذي كان معمولاً به في ذلك الزمان ، حيث كانت المواصلات صعبة وقليلة . ثم جاءت الحروب الصليبيـة فكان من نتائجها أن حملت المسيحيين الوطنيين واكليروسهم على التباعد عن كرسي رومه ، والاقتراب من كرسي القسطنطينية ... فخفّت العلاقات طبعاً بين الملكيين وروميه الخالدة ، حتى كادت تتلاشى ، برغم قبولهم الاتحاد الذي قرّره مجمع فلورنسا سنة ١٤٣٩ [٣] » .

« ثم جاء الفتح العثماني في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ومنح بطاركة القسطنطينية كل السلطة على مسيحيي السلطنة . فاضطر الملكيون في بطريركيات الاسكندرية وانطاكية واورشليم الى الالتجاء

---

(١) راجع « تاريخ الكنيسة » المطبوع في القاهرة سنة ١٩٥١ ، بعناية الجمعيـة الكاثوليكية للمدارس المصرية ، صفحة ١٢٨ .

(٢) انظر مجـلة « Echos d'Orient » مجلد ٩ صفحة ٣٣٢ ، (راجع اليـد المارونية ، صفحة ٩٧) .

(٣) طالع « تاريخ الكنيسة » المذكور صفحة ١٣٠ .

في امورهم عامةً الى اصحاب الكرسي القسطنطيني ، وهكذا انقطعت العلاقة فعلًا بينهم وبين كرسي رومة . وفي هذه الاثناء انتقل بطاركة انطاكية الى دمشق ، فصارت هذه المدينة مركزاً لهم[١] » .

« وظل بطاركة الروم السوريون منفصلين عن رومية حتى أواخر القرن السابع عشر ، عندما ارتدّ البطريرك كيرللوس الخامس واتحدّ مع رومية . وقد تمَّ ذلك على يد بطرك الموارنة اسطفان الدويهي . واليك تفصيل ذلك : « جرى بين البطركين الدويهي وكيرللوس عدة مجادلات دينية في مواضيع مختلفة ، لاسيما عن القربان الاقدس . فقال الدويهي ان الاستحالة الجوهرية تتم حالاً بعد الكلام الجوهري ، وادّعى كيرللوس أنها لن تتم الا بدعوة الروح القدس ، كما يعتقد الارثوذكس اليوم[٢] . »

« وحدث أن كان الدويهي سنة ١٦٨٣ في دير القمر ، عاصمة لبنان في ذاك العهد ، وكان حاكم لبنان الامير أحمد بن معن[٣] . فاتى البطريرك كيرللوس مع أربعة من مطارينه حيث كان الدويهي ، وجرى البحث عن الاستحالة الجوهرية بحضرة الامير . فاظهر الدويهي من قوة الحجة ، وجلاء الشروح والبيّنات ، ما افحم مناظرهُ كيرللوس واضطره الى الاعتصام بالسكوت[٤] . فكانت النتيجة من المباحثة المذكورة ارتداد احد مطارينهِ ، افتيموس صيفي ، الى الكثلكة[٥] .

(١) راجع الموضع نفسه ، صفحة ١٣٢ .

(٢) انظر تاريخ « الكنيسة المارونية » للاب السمراني ، صفحة ١٧٠ — ١٧١ ; « واليد المارونية » صفحة ١٠١ — ١٠٢ .

(٣) الخوري غبريل « تاريخ الكنيسة المارونية » مجلد ٢ ، قسم اول ، صفحة ٥٢١

(٤) انظر غبريل ، المرجع عينه ، صفحة ٥٢٣ .

(٥) انظر « Lettres édifiantes » مج اول ، صفحة ٨٧ وما بعدها ; (راجعها في اليد المارونية ، صفحة ١٠٢) .

وطبيعتين بلا انقسام ، ولا تغير ، ولا تجزء ، ولا اختلاط ، ولا انفصال ، وليست المشيئتان متضادتين بل المشيئة البشرية تتبع بلا مقاومة وتخضع لمشيئته الالهية القادرة على كل شيء »[١] « وقد ثبّت البابا لاوون الثاني أحكام هذا المجمع ، فانتصر الكاثوليك ، وسكت اصحاب المشيئة الواحدة الى ايام الملك فيلبيك بردان المونوتيليتي (٧١١ — ٧١٣) ، الذي عقد مجمع اساقفة ، وألغى فيه المجمع السادس الشهير ، وكتب الى البابا رسالة يقول فيها انه مونوتيليتي ، فرفض البابا رسالته . وبعد مدةٍ عُزل الملك بردان ، فخلفه انسطاس الثاني الكاثوليكي المعتقد سنة ٧١٣ ، فقبل المجمع المسكوني وساد السلام في الكنيسة . غير ان بدعة التوحيد في المشيئة بقي لها أثر ، فمحاه المجمع الثامن المسكوني ، اي القسطنطيني السادس ضد فوتيوس (٨٦٩ — ٨٧١) فطفئت نارها »[٢] .

ثم يستنتج البحاثة المدقق الآباتي العنيسي قائلاً : « بينما كانت الحروب الدينية مضطرمةً بين الاحزاب في كل نواحي المملكة البيزنطية ، انتهز العرب الفرصة ، وفتحوا انطاكية[٣] سنة ٦٣٧ ، واستولوا على سائر مدن سوريا ، وفلسطين ، وتبسطوا في العراق ، وبلاد فارس حتى مصر[٤] ، فتشتت اذ ذاك شمل المؤمنين ، فجعل

---

(١) انظر المصدر نفسه ؛ وحراسيموس مسره في الموضع عينه ، ص ٣١٧ — ٣١٨ ؛ وانظر : — Mansi, Conciliorum amplissima collectio, t. X p. 1029 ; 32 ; 1157 — 58 ; et t. XI p. 639 — 40 ; 683 — 88 ؛ وفازيليف في الموضع المذكور اعلاه ؛ وتيكسيران في المحل نفسه .

(٢) راجع « سلسلة البطاركة » للآباتي العنيسي ، في الموضع نفسه حيث يذكر انه اخذ هذه المعلومات التاريخية الصادقة عن مجموعة المجامع لمنسي وعن تاوفان في مين .

(٣) وكان خاضعاً لها حين فتحها العرب ١٥٣ اسقفية ، وكان فيها ٣٦٠ كنيسة ، وكان يتخلل سورها ٤٥٠ برجاً كما روى كنتو في تاريخه عنها .

(٤) راجع ص ٦٢ — ٦٣ من هذا الكتاب .

البطريرك الانطاكي اقامته في القسطنطينية ، وهرب الاساقفة الى القرى . اما القطيع الصغير المعروف باسم « الموارنة » والمتمسك بتعليم المجمع الخلقيدوني المقدس ... فقد اختار له راعياً هو مار يوحنا مارون [١] الذي قادهم الى لبنان وانشأ فيه طائفةً مستقلةً كاثوليكيةً مارونية لها ايرارخيا منظمة ، وهو كان البطريرك الاول على الطائفة المارونية في لبنان [٢] » كما رأيت .

* * *

د — واما الفرقة **الرابعة** فهي **الملكية** ، وقد ذكرها الهدى [٣] مع مَن ذكر مِن الفرق الدينية ، كما بيَّنا في هذا الكتاب [٤] . وحيث اننا لم نقل بعدُ كلمة عنها ، رأينا تكملةً للموضوع ان نثبت عنها هنا موجزاً مقتضباً ، فنقول :

الملكية او الروم الملكيون الكاثوليك هم المسيحيون المقيمون في بطريركيات الاسكندرية واورشليم وانطاكية [٥] الذين اتبعوا ، كالموارنة [٦] ، تحديدات المجمع الخلقيدوني ، الملتئم في القرن الخامس (٤٥١) ،

---

(١) انظر ديونيسيوس التلمحري ، في كرونيكون ميخائيل ، م ٤ ، ص ٤٦٧ .

(٢) انظر العنيسي في الموضع المذكور؛ وراجع ما قلناه في هذا الكتاب، ص٨٧-٩٧ .

(٣) ص ٣٧ .

(٤) ص ٩٩ ، ١٠٥ ، ١٠٧ و ١٠٩ .

(٥) ان البطريرك الملكي، وان كان بطريرك انطاكية ، فقد تعين منذ عام ١٧٧٢ ان يكون ايضاً مدبراً رسولياً على اسكندرية واورشليم ، ولذا اصبح الملكيون ، المقيمون في بطريركيتي الاسكندرية واورشليم ، يتعلقون بالبطريركية الانطاكية ، كما قال الاب شارون ، في تاريخ البطاركة الملكيين ، (مج ٣ كر ٢ ، ص ٤٣٣) . وقد منح البابا غريغوريوس ١٦ البطريرك مكسيموس مظلوم انعاماً شخصياً ، قلَّـده به لقب بطريرك انطاكية واسكندرية واورشليم ، (الموضع نفسه ، ص ٤٣٤) ؛ (انظر اليد المارونية في ارنداد الكنائس الشرقية ، الترجمة ، صفحة ١٠٠) .

(٦) « كانت الملكية والمارونية فرقةً واحدة ورأيهما في الاتحاد والجوهر والاقنومية رأي واحد » كما جاء في الهدى ، صفحة ٣٨ . راجع كتابنا، « نبذة تاريخية عن الملكية والمارونية » الذي طبعناه في حلب سنة ١٩٦١ ، صفحة ١ .

ليرسم اساقفةً وكهنةً وشمامسة . فحنق قسطنت على البابا مرتينوس واستدعاه الى قسطنطينية على يد كليوبا اكسرخس رافنّا (١)، ثم نفاه الى الخرسونيسو في القريم (Crimée) حيث توفي سنة ٦٥٥، وشتّت شمل الكاثوليك (٢) . »

---

par le Tipe de la foi... S. Martin ayant uni le Type à l'Ecthèse dans la même réprobation, une crise terrible se resulta. Fou de colère, le tyran bysantin fit enlever le pape, vieux et malade, par l'armée de Ravenne et le fit amener à Constantinoble où il le tint trois mois au secret... et enfin, n'osant pas le tuer, il l'envoya mourir sur les bords de la Crimée...». p. 384.

(١) واكسرخس انما هو حاكم ست مدن في ايطاليا ، عاصمتها رافنّا التي كانت تابعةً للمملكة القسطنطينية من عام ٥٦٨ الى عام ٧٥٢ .

(٢) وبعد موت هرقل الملك سنة ٦٤١ خلفه ابنه من امرأتهِ الاولى أودوسيا ، وكان اسمه قسطنطين الثالث ولم يحكم بعد وفاة والده الا اشهراً معدودات ومات مسموماً . فشغل العرش مكانه بضعة اشهرٍ ايضاً هرقلون ابنه من امرأتهِ الثانية مرتينا ، وخلع في خريف سنة ٦٤١ ، ونودي بقسطنت الثاني حفيد هرقل (٦٤٢-٦٦٨) . ودفعاً للخصام ألغى مرسوم حدهِ واصدر بدلاً منه مرسوماً آخر معروفاً باسم طيبقوس اي الصورة والمثال كما رأيت ، وكان ذلك في سنة ٦٤٨ التي فيها توفى البابا تاودورس وخلفه مرتينوس الاول كما بيّنا . وكان ايضاً قبل ذلك بمدة قد مات سرجيوس وخلفه بيروس على القسطنطينية ، ومات قورش وخلفه بطرس على الاسكندرية ، وهولاء جميعهم كانوا من اصحاب البدعة الحديثة .

ثم خلف قسطنت الثاني المذكور ابنه قسطنطين الرابع المعروف باللحياني سنة ٦٦٨ - ٦٨٥ ، وبموت هذا الملك انتهت الحقبة المجيدة لهذه السلالة الهرقلية .

ومن هذه السلالة ايضاً الامبراطور الاخير يوستينيانوس الاخرم الذي رقي العرش مرتين : الاولى من سنة ٦٨٥ الى سنة ٦٩٥ ، والثانية من سنة ٧٠٥ الى سنة ٧١١ . فهذا الامبراطور قد حُطّ عن عرشه عام ٦٩٥ وجدع انفه وقطع لسانه ، ولكن ليس على قدر يمتنع معه من الكلام ، ونفي الى القريم ، ومنها قدّر له الهرب الى ملك الخزر الذي زوجه باخته . وقد توصّل بعدئذٍ بمساعدة البلغار الى تسنم العرش ثانية فانتقم من خصومه اشد الانتقام بحيث اثار عليه هذا الظلم ثورةً شديدة أودت بحياتهِ وحياة اسرته جمعاء . فجاء بعده الملك لاون الثالث الشهير موسس الدولة الاسيوية ، (انظر مجلة المنارة الغراء عدد ٢ من سنة ١٩٤٦ صفحة ٨٢) .

وبعد موت قسطنت الثاني خلفه قسطنطين الرابع بوغوناطس اي اللحياني (٦٦٨ — ٦٨٥) . فكتب عــام ٦٧٨ الى البابا دُمنوس يلتمس منه ان يرسل رجالاً حذاقاً لتعاطي الامور الدينية . ولكن قبل وصول الرسالة الى رومية كان البابا قد مات ، فخلفه أغاتون المعروف بالدبلوماسي (٦٧٨ — ٦٨١) . فهذا البابا عقد مجمعاً في رومية مؤلفاً من ١٢٥ اسقفاً سمّى فيه المندوبين وارسلهم الى القسطنطينية برسالتين ، احداهما من قبله ، واخرى من قبل المجمع [١] .

« وفي ايلول سنة ٦٨٠ الى ايلول سنة ٦٨١ التأم المجمع السادس المسكوني ، وهو القسطنطيني الثالث ، وكان فيه ١٧٤ أسقفاً [٢]. فقبل هؤلاء المجتمعون الرسالة التي يعترف بها البابا اغاتون بمشيئتين في السيد المسيح ، وحرموا بدعة القائلين بالمشيئة الواحدة على اختلاف صورها [٣]. اما مكاريوس بطريرك انطاكية فأبى ذلك ، فحرمه المجمع ومن تابعه ، وحرم ايضاً الموتى : تاودورس اسقف فاران ، وقورش بطريرك الاسكندرية ، وسرجيوس ، وبيروس ، وبولس ، اساقفة القسطنطينية ، حتى هونوريوس [٤] . وقد قريء اعتراف ايمان المجمع ، في الجلسة الـ ١٨ ، سنة ٦٨١ ، هكذا : « نؤمن بمسيح وابن ورب ووحيد واحد هو هو نفسه بطبيعتين واقنوم وشخص واحد وبمشيئتين وفعلين

---

(١) انظر دانيال روبس ، في الموضع نفسه ؛ والآباتي العنيسي في المكان المشار اليه اعلاه ؛ وفازيليف في المجلد الاول ، ص ٢٠٠ — ٢١٧ .

(٢) وقد خضر المجمع ، كما ترى ، قليلٌ من الاساقفة بسبب الحروب واستيلاء العرب على اكثر بلاد الشرق ، مما يدلّ على ان هذه البدعة الجديدة لم تدخل بشكلها المعروف الى سوريا . وكان حاضرًا في المجمع جرجس بطرك قسطنطينية ومكاريوس بطرك انطاكية وكلاهما على مذهب المونوتيلية ، واما بطرك اورشليم واسكندرية فقد أنابا عنهما بعض الكهنة بسبب الحروب كما أسلفنا .

(٣) راجع روبس ، في الموضع نفسه ، ص ٣٨٤ .

(٤) وذلك لانه تراخى عن اطفاء نار البدعة ، لا لانه تبع البدعة .

لنا من الكتب والمقالات العديدة بهذا الموضوع [١] .

« ثم كتب سرجيوس الى البابا هُنوريوس (٦٢١ — ٦٣٨) يقول له ان الخلاف انما هو « لوغوماخيا » اي جدال بالكلام او اختلاف بالالفاظ . فالأوفق ان لا يقال فعل واحد ولا فعلان في المسيح لئلا يلزم عن ذلك طبيعة واحدة او مشيئتان : الواحدة منهما تناقض الاخرى ، بل ينبغي ان يقال ان كل الافعال الالهية والانسانية تصدر بلا انقسامٍ عن الكلمة الذي صار جسداً [٢] . فوافقه هنوريوس على قوله ، ففرح سرجيوس بموافقة البابا له وألّف المقالة التي تدعى « إكتسي » (Ecthèse) اي الشرح . فمَنَع فيها ان يقال فعل او فعلان ، بل اوجب ان يقال مشيئة واحدة في السيد المسيح . فراق ذلك الملك هرقل فامر الاساقفة ان يوقعوا على الاكتسي ، فامتثل امر الملك اساقفة الشرق المجتمعون في مجمع قسطنطينية سنة ٦٣٨ او ٦٣٩ على عهد سرجيوس ، وفي مجمع آخر على عهد بيروس (فور) خلف البطريرك سرجيوس [٣] . واما البابا يوحنا الرابع (٦٤٠ — ٦٤٢) والبابا تاودورس

---

(١) انظر دريان في لبابه ، ص ٥٦ ؛ والمؤرخ « Vasiliew » في المجلد الاول من تاريخه الفرنسي ص ٢٦١ — ٢٩٣ ؛ والمؤرخ « Paulet » في المجلد الاول ايضاً من تاريخه ، ص ٢٣٢ — ٢٣٤ .

(٢) لقد قيَّض الله لكنيسته المقدسة في هذا العصر ظهور القديس مكسيموس المعترف الذي ناهض ، مع القديس صفرونيوس ، هذه البدعة بكل حزم وغيرة ، وله محاورات شهيرة مع بطريرك القسطنطينية بيروس ، فأفحمه بها وردَّه عن ضلاله ، ولكنه رجع اليه فيما بعد ومات مصرّاً عليه ، وخلفه بولس وكان ايضاً مونوتيليّاً ، ولم يأت القديس مكسيموس ولو بالعرض على ذكر الموارنة فيمن ذكرهم بين اصحاب البدع ، مما يدل على انهم ، كما سنرى ، لم يجنحوا الى الهرطقة اطلاقاً .

(٣) يقول المؤرخون المسيحيون ، ومن بينهم المونسنيور بيو بسكيني ، ونيكسيران ، ودانيال روبس في المواضع نفسها ، انه ما كاد يذاع هذا المنشور حتى أقام المؤمنين واقعدهم ، وقد ناهضه خاصةً اساقفة افريقيا وعقدوا مجمعاً (كما ذكر العلامة دريان في

(٦٤٢ — ٦٤٩) واساقفة الغرب ، فأبوا ذلك عليه وتمنعوا . فمن اجل تمنعهم هذا ، ألغى الملك قسطنت الثاني (٦٤٢–٦٤٨) الاكتسي . فتابع البابا اساقفة افريقيا، وسرجيوس مطران قبرس، ومكسيموس راهب قسطنطيني (توفي في المنفى سنة ٦٦٢)، الا بولس بطريرك القسطنطينية. فكتب اليه البابا تاودورس ان يرفع الاكتسي عن ابواب الكنيسة ، فأبى بولس عليه ذلك بل اقنع الملك قسطنت الثاني بان يعتاض عن الاكتسي بنشر اعتراف ايمان جديد يسكّن الاحزاب ، فأنشأه الملك سنة ٦٤٨ ودعاه « طيبقوس » اي المثال [١] قال فيه : « ينبغي ان لا يُناظر ابداً في مسألة مشيئة او مشيئتين » .

« غير ان البابا مرتينوس الذي خلف تاودورس (٦٤٩ — ٦٥٣) عقد مجمعاً في رومه حضره ١٠٥ اساقفة . فحرم فيه الاكتسي والمثال، وتاودورس اسقف فاران ، وقورش بطرك اسكندرية ، وسرجيوس ، وبيروس ، وبولس اساقفة القسطنطينية ، وأرسل اعمال المجمع الى قسطنت الملك [٢] ، واقام اسقف فيلادلفيا نائباً له في الشرق ، وقلّده السلطان

لبابه صفحة ٥٧) حرمت فيه هذه البدعة مع منشور هرقل ، ومثل ذلك جرى في رومية . حينئذٍ كتب هرقل الى البابا يوحنا الرابع ، كما روى باجيوس في تاريخ سنة ٦٤٠ ، رسالةً يقول فيها ما مؤداه : « لم انشيء هذا الشرح ولم آمر به وانما الذي انشأه هو سرجيوس البطرك الذي حملني على توقيعه واذاعته . . . » . ولم يصل المنشور الى سوريا حيث كانت الحال فوضى ، كما روى العلامة دريان في الموضع نفسه ، « لان العرب كانوا قد استولوا عليها جميعها ، وقد قلّصوا ظل الروم عنها ، ولم يكن على انطاكية بطريرك يدير شوون هذه الكرسي، فاقام سرجيوس عليها مقدونيس سنة ٦٤٠، وكان على مذهبه ايضاً ولكنه والحمد لله لم يستطع ان يأتي الى انطاكية في تلك الظروف الحرجة بل استمر في قسطنطينية الى آخر حياته ، مما يدل على ان هذه البدعة لم تُعرف لذلك العهد في سوريا » كما سنرى .

(١) انظر دانيال روبس في الموضع نفسه ، صفحة ٣٨٣ — ٣٨٤ .

(٢) راجع المصدر نفسه ، في الموضع المذكور ، حيث يقول : « A Rome le Pape S. Martin 1er organisa la resistence au monothélisme... Devant les oppositions, Constant II, en 648, remplaça l'Ecthèse

الواحدة في السيد المسيح، كالملك انسطازيوس الذي، بعد ان فشل في التوفيق بين الاوطاخيين والخلقيدونيين ، مال الى بدعة اوطاخي ونصرها بكل قواه على الكاثوليك ، منزلاً بهم افدح الاضطهادات .

وقد اتى بالبرهان على هذه الاختلافات البحاثة الآباتي طوبيا العنيسي، حيث قال [١] :

« وسبب ذلك انه بعد ان حرم المجمع الخلقيدوني بدعة الطبيعة الواحدة (٤٥١) ، شرع اصحابها ، منذ ذاك الحين ، بالمناظرة في امر الفعل والارادة في السيد المسيح ، اي هل يجوز ان يقال في المسيح فعلٌ واحد ومشيئة واحدة كما يقال طبيعة واحدة فيه ؟ فتمادى الجدال حتى اوائل القرن السابع . فاتفق ان الملك هرقل (٦١٠ – ٦٤٢) كان محتاجاً الى التوفيق بين الاحزاب الدينية [٢] لكي يحصل له منهم

يذيع حرم نسطور واوطاخي وكل تعاليمهما ويعلن في الوقت نفسه إبطال المجمع الخلقيدوني، ظناً منه انه بهذا العمل يُرضي الفريقين ويصلح ذات البين بينهما معاً فتستريح المملكة من هذه المحاربات الدينية التي شغلت علماء المملكة واقلقت مفكريها . فأشهر سنة ٤٨٢ أمره هذا في منشور اسماه « التوفيق » « Edit d'Union » . بيد انه لم يُجدِ فتيلا ولم يشفِ غليلًا ، بل زاد في غضب الفريقين وكوَّن حزباً ثالثاً على ما جاء في منشوره . (انظر تيكسيران ، في المواضع نفسها ؛ والمؤرخ : Vasiliew في تاريخه الكنسي ، مج ١ ، صفحة ١٩٧ – ٢١٧) .

(١) في سلسلة البطاركة ، ص ٩ – ١٤ .

(٢) يقول جراسيموس مسره في « تاريخ الانشقاق » صفحة ٣١٤ ، « ان مملكة الروم حين استلم زمامها القيصر هرقل كانت محاطة من كل جهة بالحروب الخارجية والقلاقل الداخلية التي نشأت عن انقسام شعب المملكة الى طوائف متعددة وكان هرقل يرى هذه الحال ويسعى في ضم كلمة الطوائف وجمعها الى طائفة وكنيسة واحدة . . . واذ كان من المستحيل وقتئذٍ ان تتبع احدى الطائفتين الاخرى استنبطت عقيدة متوسطة بينهما وهي الاعتراف بطبيعتين في المسيح لهما مشيئة واحدة وفعل واحد » .

على عضدٍ واعانة في الحرب التي كانت ناشبة بينه وبين الفرس [١] . »

« فبينما كان هو عائداً من الحرب الفارسية إلتقى بقورش اسقف فاسيد في كلخيد ، فعرض عليه امر الصلح الذي لا يتمّ الا على هذه الصورة ، وهي ان يقال : « لما كان في المسيح اقنوم واحد الهي لا بدّ ان يكون فيه مشيئة واحدة ولكن الهية وانسانية » [٢] . فقبلها قورش سنة ٦٢٦ وتابعه عليها سرجيوس بطريرك قسطنطينية وتاودورس اسقف فاران . فسمّى حينئذٍ هرقل قورش بطريركاً على الاسكندرية سنة ٦٣٠ ، فأخذ قورش يسعى في ردّ اهل مصر ، اتباع الطبيعة الواحدة ، الى بدعة المشيئة الواحدة . فقاومه بشدةٍ الراهب صفرونيوس الكاثوليكي المذهب الذي صار في سنة ٦٥٤ بطريركاً على اورشليم . وذلك لزيادة علمهِ وفضلهِ وقداستهِ . وما عتم ان عقد مجمعاً خاصاً في كرسيه وحرم فيه هذه البدعة ومن يعلّمها وينتصر لها ، ولم يفتر بعد ذلك عن محاربتها بالقول والكتابة والعمل ، كما يشهد ما تركه

---

(١) انظر مختصر ناريخ الكنيسة للخوري البستاني ، ص ٢٧٥ : وتاريخ سوريا ، للدبس ، ج ٥ ، ص ٥٤٦ ؛ ودانيال روبس في الموضع نفسه ، ص ٣٨٢ ؛ ودريان في لبابه حيث يذكر ، ص ١٢٥ ، حادثة نهب الفرس لخشبة الصليب المكرم من اورشليم مع اسر تسعين الف مسيحي .

(٢) ويقول اليعاقبة ان اتناسيوس بطريركهم لقّن هرقل هذه الصورة ، كما ذكر الآباتي العنيسي في الموضع نفسه . واما جراسيموس مسره فيقول في الموضع الذي اشرنا اليه « ان من الارجح ان يكون البطريرك القسطنطيني هو المستنبط لهذه البدعة الجديدة التي انما هي ذات البدعه المونوفيزية ، ولكنها متنكرة بهيئـة أخرى وباسم اخر ولا تختلف عن اصلها الاول الا في بعض الشيء فقط » (انظر مختصر تاريخ الكنيسة للخوري البستاني ، ج ١ ، ص ٢٨٨) . وامـا المطران دريان فيؤكد آن من المعروف لدى الجميع ان سرجيوس هو أول من تظاهر بهذه البدعة الجديدة وعلّمها على هذا الشكل المشروح في الربع الاول من القرن السابع (راجع لبابه ، ص ٥٣ و ١٣٨) . ويؤيد هذا القول الاخير العالم الفرنسي روبس ، في الموضع نفسه ، ص ٣٨٣ ، وغيره كثيرون .

شطرين : انطاكية وهي التي صارت فيما بعد « السريان اليعقوبيين » ، واسكندرية تبعاً لبطريركية الاسكندرية في مصر ، وهي التي سمّاها العرب بعد فتوحاتهم العظيمة « بالكنيسة القبطية » . وما تزال منهما بقايا متشتتة ليومنا هذا . ومعلوم انه لولا الفتح الاسلامي لكانت اليعقوبية هذه قد امتدت الى كل الانحاء الشرقية ، فقد كان الاسلام عليها ضربةً قاضية ، وهي لم يمضِ عليها نحو مئة سنة ، فأخر انتشارها كثيراً [١] .

ثم ان مشايعي المونوفيزية كانوا قد تسرّبوا في **الحبشة** منذ القرن الخامس ، وبثّوا هناك تعاليمهم المضادة للدين القويم ، ولاقوا انصاراً يتبعونهم ، ويشدّون ازرهم ، فأسسوا كنيسةً يعقوبيةً تتبع في كل امورها الدينية بطريركية الاسكندرية للاقباط في مصر ، وقد عُرفت باسم « الكنيسة الحبشية » وهي ما تزال الى اليوم [٢] .

ومما يجدر اليه الانتباه ان اسم البدعة اليعقوبية ، أو اليعاقبة « قد شاع كثيراً في كل الانحاء منذ القديم حتى صار يُطلق باتساع المعنى على كل فرع من الفروع المتقدم ذكرها ، بقطع النظر عما بين كل فرقةٍ منها من خلاف ، ولكن الاسم الذي يجمع هذه البدع حقيقة انما هو « المونوفيزيون » . ولم تزل هذه البدعة منتشرةً بين السريان وهم المعروفون **باليعاقبة** ، ويتبعهم قسم من نصارى الملابار في الهند ارتدوا اليهم من النسطورية ، وبين **الاقباط** ويتبعهم الاحباش ، وبين **الارمن** وهم المعروفون بالغريغوريين . ولكل فئةٍ من هذه الثلاث

---

(١) انظر الابوين دي كليرك في كتابه ، الكنائس الشرقية المتحدة ، (C. de Clercq, Les Eglises unies d'Orient) ص ١٣٦ و ١٤١ ؛ والاب جانين في الموضع المذكور اعلاه ، صحفة ٨ – ٩ وصفحة ٤٥٩ ؛ والمطران دريان في لباب البراهين الجلية ، صفحة ٥٠ .

(٢) راجع جانين في الموضع نفسه .

بطريرك واساقفة وطقوس على حدة ، ولا تشترك احداهما مع الاخرى الا بروح هذه الهرطقة . وقد رجع من كل فئةٍ منهم قسمٌ الى حضن الكنيسة الكاثوليكية ، فمن الاولين السريان الكاثوليك ثم الاقباط الكاثوليك ثم الارمن الكاثوليك على ما هو مشهور ، جعل الله الرعية واحدةً لراعٍ واحد »[١] .

ومما لا ريب فيه ان **الملوك الشرقيين** على اختلاف مذاهبهم ونزعاتهم الدينية بذلوا قصارى جهدهم ، حيناً في التوفيق بين مختلف الآراء والكنائس الشرقية ، واحياناً في التقريب بين الكنيستين الكاثوليكية والمنشقة ، واحياناً اخرى في تقويض البدع واثبات الكنيسة الحق . وذلك لتوطيد سلطانهم فوق الكنائس على اختلافها وجعلهِ يعمّ اصقاع الشرق كافةً ، ولاسيما في تلك الاجيال التي كانت الهرطقات فيها تهدّد اركان المملكة بالخراب والفوضى ، لعظم شأنها وقوة تباعها وتعصبهم . فمن سنة ٤٥١ الى سنة ٥١٨ كان كرسي انطاكية مثلاً ينتقل ، دوراً بعد دور ، من يد بطريرك كاثوليكي الى بطريرك هرطوقي ، حسب رغبة الملوك البيزنطيين الذين كانوا إما يساندون مجمع خلقيدونية ويخضعون لاوامره المقدسة[٢] ، كالملك مرقيانوس الحسن العبادة ، والملك يوستين الصالح وغيرهما كما سنرى ، او يناوئون احكامه ، رغبةً في التوفيق ، وتوطيد دعائم السلام ، بين ابناء المملكة ، كالملك زينون الذي كان على الرأي القويم[٣] ، ومجاراةً للقائلين بالطبيعة

---

(١) انظر المطران دريان في لبابه المشار اليه ، ص ٥٠ ؛ وكتابنا عن الملكية والمارونية ، صفحة ٢٠ .

(٢) راجع المؤرخ الفرنسي « Vasiliew » في تاريخه الكنسي ، مج ١ ، ص ١٩٧ — ٢١٧ ؛ وريمون جانين ، في المحل نفسه ، ص ٤٥٨ ؛ والمؤرخ تيكسيران ، ج ٣ ، ص ١١٠ وما يليها .

(٣) فهذا الملك سعى الى التوفيق بين الخلقيدونيين والاوطاخيين فارتأى حينئذٍ ان

وفي بلاد **مصر** ، وخاصةً في الاسكندرية ، كان مشايعون كثيرون للبطريرك المنحط ديسقوروس ، فقاموا على البطريرك الجديد بروتوريوس (Protorius) وقتلوه سنة ٤٥٧ ، واحرقوا الكنيسة التي كان فيها ، وطلبوا ارجاع بطريركهم المنفي . فعاقبهم الملك مرقيانوس ، ومع ذلك ظلوا على غيّهم مصرّين، وفي عمايتهم متمرغين ، معتبرين زعيمهم كقديسٍ كبير ، وما يزالوا الى يومنا هذا يكرّمونه كثير الاكرام[١].

وفي انطاكية استولى على كرسيها بالتتابع البطاركة مكسيموس (٤٤٩ — ٤٥٥) وباسيل (٤٥٦ — ٤٥٨) وأكاس (Acace) (٤٥٨ — ٤٥٩) ومارتيريوس (٤٦٠ — ٤٧٠) ويوليانوس (٤٧١ - ٤٧٦) ويوحنا كودونات (٤٧٧) واسطفان الاول (٤٧٨ — ٤٧١) وكالنديون (٤٧١ — ٤٨٥) الخ .

اما الاوطاخيون فقد اقاموا بطرس المعروف بالقصّار على كرسيها عام ٤٧٠ ، ولكنه خُلع ثم عاد اليها في عام ٤٧٥ أو ٤٧٦ بعض الوقت ، ثم في عام ٤٨٥ الى ٤٨٨ حيث هلك ، بعد ان حرم المجمع الخلقيدوني ، وابتدع هرطقة يقال لها « مذهب مؤلمي اللاهوت » او هرطقة التريساجيون[٢] ، قصدَ إضلال الناس بان الثالوث تألم بالمسيح ايضاً[٣] . ولكن مرقيانوس الملك الصالح ، لما رأى ان الاوطاخيين يثيرون فتنةً وثورة في بطريركية الاسكندرية على بطريركها القديس

---

(١) راجع الموضع نفسه . وانظر : Tixeront, op. cit. III, في صفحة ١٠٦ — ١٠٧ .

(٢) وهي أن يزاد على التقديسات الثلاث هذه العبارة : « يا مَن صلبت لاجلنا ، ارحمنا » ، وسنرى كلاماً كثيراً عنها فيما بعد .

(٣) راجع الموضع نفسه ؛ وفي دريان صفحة ٩٦ ؛ وانظر : Tixeront, op. cit. p. 105 - 106.

فروثير الذي نُصِّب محل ديسقوروس المنحط عن وظيفتهِ لتمسكه بآراء صديقه اوطاخي ، حاول باديء الامر ان يوفّق بينهم ، ولكنه اضطر ، اذ رأى عنادهم الشديد ، الى ان يجدّد اوامره بحقهم ، فعاقبهم عقاباً شديداً مما زادهم تعصباً وعناداً .

وفي مدينة **الكرنس في ليقية** من أسيا الصغرى قام، اسقف هذه المدينـــة واسمه يليانوس وابتدع « مذهب الخياليين » المتشعب عن المونوفيزية ، وتبعه الارمن سنة ٥٤٥ ودعوا بهذا الاسم ، لاعتقادهم أن جسد المسيح كان من طبعه منزهاً عن قبول الفساد وجميع الآلآم ، بحيث لم يكن يشعر بالجوع والعطش والتعب وسائر الاوجـاع الا خيالياً فقط ، خلافاً لتصريحات الكتاب المقدس [١] .

وفي سوريا قام راهب سرياني آخر اسمه يعقوب البرادعي نسبةً لهذه المدينة [٢] فاغتصب كرسي اسقفية الرها سنة ٥٤١–٥٧٨ واخذ يسعى ليضم الكنائس المونوفيزية الى واحدةٍ ، لعلمه ان بالاتحـــاد القوة . وقـــد سمِّيت بدعته **باليعقوبية** نسبةً له [٣] . وانقسمت الى

---

(١) راجع الموضع نفسه ؛ وفي دريان صفحة ٤٩ ـ ٥٠ ؛ وفي نيكسيران، ص١١١ من الكتاب نفسه .

(٢) وقد تصدّى له افرام الآمذي خليفة افراسيوس على الكرسي الانطاكي (٥٢٩ – ٥٤٥) الذي بنى كنيسة كبيرة في انطاكية عام ٥٣٢ دعا الى نكريسها ١٣٢ اسقفاً كانوا عهدئذٍ في سوريا ، وخلال اجتماعهم عملوا قوانين المجمع الرابع الذي حرم فيه ساويروس ومشايعيه ، (انظر الجراجمة والمردة ، صفحة ٣٣) .

(٣) ابتدأ تاريخ اليعاقبة عام ٥٤٣ في الوقت الذي فيـه سيم يعقوب البرادعي مطراناً . ومنذ ذلك الحين قام يعقوب يفتش عن تباع غُيُر متعصبين لآرائهِ ليرسمهم مطارنةً نظيره فيوّمن بهم إيرارخيا الكنيسة ، اي الرئاسات الكهنوتية المتسلسلة، حيث توجب الحاجة ، وفي كل موضع كان فيه مطارنة كاثوليك لمناوءتهم وايجـاد الفوضى والافتراءات ، (انظر جانين ، صفحة ٤٥٩) .

علاج يداوي به هذا الجرح البالغ في جسم الكنيسة ان يُعقد مجمعاً آخر عاماً لاعادة النظر في هذا الحكم . ففاوض الملك ، وكان وقتئذٍ مرقيانوس الحسن العبادة ، عام ٤٥٠ ، فنادى الملك بالتمامه طبق رغائب البابا ، في خلقيدونية بتركيا ، واراد ان يحضره شخصياً لحفظ النظام تماماً . فبادر الاساقفة اليه ، وكان عددهم ٦٣٠ اسقفاً جاؤوا من كل ناحيةٍ واجتمعوا في كنيسة القديسة اوفاميا ، في اليوم الثامن من تشرين الاول سنة ٤٥١ ، وترأس المجمع باسم البابا نوابه ، وكان حاضراً ديسقوروس ايضاً وجماعته . فنظروا في القضايا اللازمة وحكموا ببطلان كل ما جرى في المجمع المتقدم ذكره ، وارجعوا الاساقفة المنحطين الى كراسيهم وحرموا مذهب اوطاخي وديسقورس ، واعترفوا بان الرسائل التي وجهها البابا لاون الى البطريرك افلابيانوس واوضحها هذا الاخير انما هي مطابقة تماماً لصورة الايمان المشروحة في مجمع نيقية ، والقسطنطينية ، واعتبروها قانوناً للايمان معصوماً من الغلط ، قائلين هذا هو ايمان الآباء والرسل ، وها ان بطرس نفسه قد تكلم ونطق بفم لاون ، فينبغي التمسك بهذا التعليم المقدس لمن اراد ان يكون كاثوليكياً ، والا فليكن محروماً [١] .

وبعد تلاوة صورة الايمان قال الجميع : « انا نصرّح بوجوب الاعتقاد بربٍ واحدٍ يسوع المسيح ، فهو الهٌ حق وانسانٌ حق كاملٌ في كلتا الطبيعتين ومساوٍ للآب في الجوهر حسب اللاهوت ومساوٍ لنا في الناسوت ، مولود من الآب قبل كل الدهور حسب اللاهوت ومولود من العذراء في الزمان حسب الناسوت ، في طبيعتين بدون

(١) انظر تاريخ الكنيسة ، للخوري بطرس البستاني ، ص ٢٥٥-٢٥٩ ؛ والمؤرخ الشهير الايطالي المونسنيور بسكيني في تاريخه الكنسي ج ١ ، ص ٣٠٠ ؛ والمجامع ، لمنسي ج ٦ عمود ٩٧٢ – ٧٣ ، وج ٧ عمود ٩ ، ٢٧ ، ٣٢ .

امتزاج ولا تغيير ولا انقسام ولا انفصال ، وكل طبع منهما حافظ خواصه بتمامها ، وكلاهما يقومان باقنوم واحد هو الاقنوم الالهي ، وهو غير منقسم اطلاقاً ، بل يتأتى عنه مسيح واحد وهو ابن الله الحي كما قيل في مجمع نيقية »[١] . وبعد ذلك حُرِم بطريرك الاسكندرية ، وحطّ عن مقامه ، ونفي الى اسيا الصغرى ، جزاءَ ظلمه وعدوانهِ على البريء ، كما نفي من قبله صديقهُ اوطاخي المضلّ .

ولكن **هذه البدعة لم تنطفء نارها تماماً في هذا المجمع** بالرغم مما قاسى تباعها من تشريدٍ ، ونفيٍ ، واضطهادٍ ، بل كمنت ترقب الفرص .

فبعد عام ٤٥٤ قام راهب من نواحي **اورشليم** ، ممن كانوا في المجمع ولم يذعنوا لاحكامهِ ، اسمه ثودوسيوس ، وجمع حوله عصابةً على شاكلته وأخذ يشرح لهم وللشعب قانون المجمع الخلقيدوني ، على خلاف معناه الحقيقي ، شرحاً يطابق مذهب نسطور ليستجلبهم اليه ، وقد ساعده على نشره اودكسيه ، ارملة الملك السابق تاودوسيوس الصغير التي كانت على مذهب اوطاخي وانتصرت له . فتوصل هذا الراهب ان يُنادَى به اسقفاً على كرسي اورشليم . ولكن الملك مرقيانوس ارسل قوةً طردته .

وفي **العراق** قام الارشمندريت برصوم السرياني ، الذي كان في المجمع ولم يذعن لاقواله ، يبثّ سموم تعليمه بين بعض السكان السريان ، وبعد موتهِ تولى نشر ذلك تلاميذه ، وعلى رأسهم صموئيل في سنة ٤٥٨ .[٢]

---

(١) انظر « المجامع » لمنسي ، مج ١٠ عمود ١٠٢٩ ومج ١١ ، عمود ٦٣٩ — ٦٤٠ ؛ وطالع بيوبسكيني في تاريخه الكنسي المشهور ؛ والمؤرخ نيكسيفران ، ج ٣ ، ص ٨٩ ـ ٩٩ ، من كتابه المذكور .

(٢) راجع الموضع نفسه .

اجل تزعّم هذه البدعة راهب ورئيس دير كبير بالقرب من القسطنطينية اسمه اوطاخي ، يسيّره تحمسه الشديد واندفاعه المتطرف في مضادة نسطور الذاهب الى ان في المسيح اقنومين متحدين اتحاداً غير منفصم . وكان المبتدع الجديد يرمي الى انكار امومة العذراء لابن الله المتجسد من احشائها ، والى المحافظة على الاعتقاد بوحدة الاقنوم الالهي ، فضلّ سبيله ، وسقط في هرطقةٍ نقيضةٍ لبدعة سالفه ، احدثت في الكنيسة قلاقل ليست بأقل من تلك التي اثارها ضلال اريوس ونسطور[1]. فقد اشهر اوطاخي تعاليمه القائلة ان في المسيح طبيعة واحدة فقط ، في عام ٤٤٨ ، اي بعد انعقاد المجمع الافسسي بنحو ١٧ سنة . وكان لاوطاخي كما لنسطور من قبله ، انصار ومعاونون في البلاط الملوكي عند الملك تاودوسيوس الصغير ، منهم الوزير كريزافوس احد كبار الدولة المقربين من الملك وغيره .

وكان الاسقف اوساب الدوريلي صديقاً لاوطاخي ، كما ان بطرك الاسكندرية ديسقورس كان يودّه ايضاً ، ويحميه ، ويدافع عن اقواله

---

(١) يقول الكاتب الفرنسي جانين في كتابه عن « الكنائس الشرقية وطقوسها » المشار اليه ، ص ٩ ، ما يؤيد ذلك وهذا تعريبه : « مما لا ريب فيه ان هذه الهرطقات المتنوعة التي حدثت في الشرق قد اضعفت الكنيسة البيزنطية كثيراً ولاسيما في بطريركيتي انطاكية والاسكندرية ، اذ لم يبقَ فيهما من المؤمنين سوى بضع مئات من الالوف تابعين لها في أمور دينهم ، في حين ان بطريركية قسطنطينية ظلت زاهرةً زاهيةً بعددها العديد ، متباهيةً بكونها هي الاولى بين كنائس الشرق قاطبةً ، وذلك بفضل الحماية التي كان يقوم بها الامبراطور ويقدمها للاساقفة البيزنطيين ، حتى انه اذ آنس من نفسه القوة والنفوذ والسطوة العظمى رفض الخضوع للحبر الروماني ، مدّعياً لذاته السلطان المطلق على كل المؤمنين في الشرق . ومعلوم ان كنيسة القسطنطينية قطعت علاقاتها بروما خمس مراتٍ متتابعة : من سنة ٣٦٣ الى ٣٨٢ وقت انتشار بدعة أريوس ، ومن سنة ٤٠٤ الى ٤١٥ ، ومن ٤٨٤ الى ٥١٨ ، ومن سنة ٦٤٠ الى ٦٨١ بخصوص بدعة المونوتيليتة ، ومن سنة ٧٦١ الى ٧٨٧ بخصوص عبادة الصور ، فلا حاجة الى التكرار . »

المضلة في شأن الطبيعة الواحدة ، في المسيح ، التي امتزجت حسب قوله في الطبيعة الالهية امتزاجاً كلياً حتى تلاشت في لجة اللاهوت العظيمة كقطرة خمر في بحرٍ خضمٍ فضاعت فيه حتى لم يبقَ لها من وجود.

عندئذٍ نهض البطريرك القسطنطيني القديس إفلابيانوس ينصحه اولاً ويقوّم اعوجاجه بالحسنى والمحبة لعلّه يرعوي عن غيّه ، ولكن عبثاً . فهدّده بالحرم والحط لكنه لم يذعن ، بل تمكّن اوطاخي بواسطة اصدقائهِ الكثيرين لدى الملك ان يعقد مجمعاً في افسس عُدَّ فيما بعد مجمعاً لصوصياً لا كنائسياً [١] للنظر في امره . فترأسه صديقهُ الحميم ديسقوروس البطريرك الذي كان عدواً لدوداً للقديس افلابيانوس الذي احتفل برسائل البابا لاون الكبير وبنوابه اجلّ احتفال . وفي هذا المجمع المزور تبرّر بالطبع اوطاخي وأُعيد الى رئاسة ديرهِ ، مخالفةً للحكم الذي كان صادراً عليه فيما مضى ، وشجب افلابيانوس البطريرك علناً وضُرب بقساوة وحُكِم عليه بالنفي بدل اوطاخي ... [٢] .

واذ بلغ ذلك مسمع البابا لاون حزن كثيراً ، ورأى احسن

---

(١) انظر جانين في الموضع نفسه ص٧، حيث يقول : « La Querelle passionna bientôt tous les esprits. Diascore patriarche d'Alexandrie, un monophysite déclaré, réunit à Ephése un soi-disant Concile qui proclama orthodoxe la doctrine d'Eutychès et que l'histoire a justement flétri du nom de Brigandage d'Ephèse en 494. Deux ans après, les rôles étaient renversés. Le Concile Chalcedoine auquel assitaient les légats du Pape Léon rétablissait la véritable doctrine de l'Eglise Catholique, condamnait le monophysisme et déposait le Patriarche Dioscore 451. » : وطالع P. Martin, Les actes du Brigandage d'Ephèse, Paris, 1876 ; Hefele - Leclercq, Histoire des conciles, II, 1, p. 555 suiv. ; et J. Tixeront, Histoire des Dogmes, t. III, p. 80 et suiv.

(٢) راجع تفصيل ذلك في كتاب «لباب البراهين الجلية» للمطران دريان، ص٤٥ وفي Tixeront ، الموضع نفسه ، ص ٨٩ وما يليها .

ولكن القديس كيرللس الشهير، اسقف الاسكندرية، نهض فوراً يدحض اقوال نسطور، واصدر تأليفاً ممتعاً أوضح فيه جلياً حقيقة سر التجسد، واثبت ان مريم العذراء ام لله بقوله : انه وان كانت الامهات قاطبةً لا يشتركن بنوع من الانواع في خلق النفس البشرية، مع ذلك يقال عنهن انهن امهات الانسان كله نفساً وجسداً لا امهات الجسد وحده، وهكذا مريم العذراء وان لم تكن ام الاقنوم الواحد في السيد المسيح فهي مع ذلك ام الله « لان هذا الاقنوم هو الذي به تقوم الطبيعة البشرية المخلوقة في العذراء والطبيعة الالهية المساوية بطبيعة الآب والروح القدس [١] . »

وبعد هذا، عقد المجمع الافسسي المسكوني سنة ٤٣١ في افسس وحرم نسطور ومشايعيه، وامر الملك تاودوسيوس بنفيه اولاً الى بتراس في بلاد العرب. ولما بقي نسطور مصراً على غوايته ولم ينفك عن المجاهرة ببدعته الشنيعة، نفي ثانيةً الى تيبة، في صعيد مصر، حيث مات بعد اعوام.

واما بدعته فلم تتلاشَ بموته بل ازدهرت في كل مكان بسعي مشايعيه والمتعصبين لتعاليمه، وانفصل تباعه في اخر القرن الخامس عن الكنيسة الام تماماً وعاثوا في الارض فساداً. ومنهم برصوم الشهير الذي استولى على اسقفية نصيبين سنة ٤٣٥ وجمهور من تلاميذ مدرسة الرها الشهيرة ومعلميها، وتولوا نشرها في كل مقاطعات الامبراطورية الشرقية ولاسيما في بلاد الكلدان والفرس. ثم في الاجيال التالية (اي في القرن السادس حتى الرابع عشر) انتشرت هذه البدعة كثيراً وامتدت الى جهات متعددة من بلدان العرب، والهند، والصين، والملابار، ومصر، وهي ما تزال الى يومنا هذا في جهات العراق، وما بين النهرين

(١) جانين في الموضع نفسه ص٥٠٣ ؛ ولباب البراهين الجلية، ص٦١ — ٦٢ .

وايران خاصةً ، ويُعرف تباعها بالنساطرة . ولهم بطريرك واساقفة وطقوس على حدةٍ باللغة السريانية الكلدانية [١] .

وقد رجع قسم منهم الى خضن الكنيسة الكاثوليكية من عهدٍ بعيدٍ ، ويعرفون اليوم بالكلدان الكاثوليك . ولهؤلاء ايضاً بطريرك واساقفة وطقوس وهم خاضعون للكرسي الرسولي في كل احوالهم ، وان كانوا مستقلين استقلالاً ادارياً وطقسياً .

فهذه البدعة التي اقلقت الكنيسة في عصرها ، لم يظهر لها والحمد لله اي اثر عند الموارنة ، ولم يتهمهم بها احد [٢] . ولذا فلا حاجة لمزيد الاستفاضة في موضوعها عبثاً .

***

ج — واما **البدعة الثالثة** فهي **المنوفيزية** ومعناهـــا « اصحاب الطبيعة الواحدة » ، نشأت بعد ظهور بدعة نسطور بنحو ثمانية عشر سنة تقريباً ، وكان ذلك رد فعل شديد حمل لواءَه أُوطاخي ، وتشيَّع لها انصار كثيرون في سوريا ، منهم بطاركة ترأسوا عـــلى كرسي انطاكية كما سنرى [٣] .

---

(١) جانين في الموضع نفسه ، ص ٦ ؛ ولباب البراهين الجلية ، ص **٤١** .

(٢) على ان بعضاً ، كالمطران يوسف داود السرياني ، ادّعوا بان الموارنة كانوا يشتركون مع النساطرة ببعض امور الدين ، مستندين الى ان رهبان مارون في غضون الاضطهادات التي انزلها بهم اعداء الدين خلال فتوحات العرب، كتبوا لبطرك النساطرة تيموتاوس الاول (+ ٨٢٣) الذي كان معروفاً في بلاط الخليفة في بغـداد يلتمسون معونته لتخفيف وطأة الاضطهاد . وقد فنَّد هذا الادّعاء تفنيداً المثلث الرحمة المطران دريان في كتابه المشار اليه ، مفرداً له فصلاً كاملاً ، ص **١٦٦ — ١٧٩** فتأمل . وانظر المطران ديب ، ص **١٦٧** حيث يذكر المصادر العديدة التي تتعلق بهذا الشأن .

(٣) راجع ريمون جانين ودريان في المواضع عينها . وانظر بخصوص هـذه البدعة المؤلفين :

J. Lebon, Le monophysisme sévérien, Louvain, 1909; J. B. chabot, Dacumenta ad origines monophy. illustrandas, Paris, 1908 ; Tixeront, op. cit. t. III, p. 105 et suiv. ; et J. Maspero, Histoire des patriarches d'Alexandrie, Paris, 1923, p. 518 - 616.

فيها هزءاً عنيفا بما اخترعت من آراءٍ وبيلةٍ مضلةٍ ، ومفسدةٍ لكل معنى من معاني الرسالة الانجيلية ، وتعاليم السيد المسيح وجوهره الالهي ، حتى كادت تقيم على انقاض الايمان الصحيح هيكلا لابليس الرجيم الذي نفث في صدور مخترعيها هذا الضلال المبين ، المرتكز على انكار الوهية السيد المسيح وانكار مساواتهِ الجوهرية لأبيه الازلي الخ . وقد حرم المجمع النيقاوي سنة ٣٢٥ هذه الهرطقة الرزيلة وكل من يقول بها ، معلناً قانون الايمان الذي تترنّم به الكنيسة مشيدةً بالوهية السيد المسيح فيه .

وبما ان الطائفة المارونية لم تكن قد تكوَّنت بعد ، يومَ نشأت هذه البدعة الوبيلة ، فنكتفي بما قلناه ، تلميحاً دون الاسهاب فيها ، خوف الاملال ، فضلاً عن انها لا علاقة لها بمـا نسبه الخصوم الى الموارنة من ضلال .

☆☆☆

ب — **البدعة الثانية هي النسطورية** المنسوبة الى نسطور[1] ، الذي كان يعلّم أن في السيد المسيح اقنومين ، خلافاً للعقيدة الايمانية

---

(١) كان نسطور فارسي الاصل ، نشأ في اواخر القرن الرابع في مدينة جرمانيقة وهي المعروفة اليوم باسم مرعش من اعمال سوريا . وكان زلق اللسان ، فصيح الكلام ، يستتر تحت رداء الفضيلة روح الكبرياء ، كما صنع من قبله اريوس الملحد . وما كاد يتعين بطريركاً على القسطنطينية ، نحو عام ٤٢٩ ، حتى اخذ ينفث ما كان يبطنه من سموم الكفر والضلال . (انظر الكاتب الفرنسي ريمون جانين ، في كتابه « Les Eglises orientales et les rites orientaux » ص ٦ و ٥٠٠ ؛ وراجع تاريخ الكنيسة للمعلم لومند الفرنسي ترجمة الخوري يوسف البستاني ج ١ ص ٢٥٠ ؛ ولباب البراهين الجلية للمطران دريان ، ص ٣٨ — ٣٩ ؛ وانظر عن هذا الموضوع ايضاً :

M. Jugie, Nestorius et la controverse nestorienne, Paris, 1912 ; Bardenhewer, t. IV. p. 74 ; et J. Tixeront, op. cit. t. III, p. 22 et suiv.

المقدسة القائلة ان في السيد المسيح اقنوماً واحداً لطبيعتين الهيـــة وانسانية ، ولكنه لم يتجاسر على نقض العقيدة الكاثوليكية علناً ومصارحةً بل سار على انكارها كل مرة سنحت له الفرصة بين مريديه واهـل ثقته ثم بين الشعب ، مستعملا كل ضروب الخداع والمواربة والتضليل والفصاحة ، وكان يقول « ان اقنوم المسيح يتميز تماماً عن اقنوم الكلمة ، وان اقنوم الكلمة حلّ في المسيح كما في هيكلٍ حلولاً دائماً واتحد به اتحاداً غير منفصم فكانا اقنومين ، ومن ثم استنتج ان العذراء مريم لا ينبغي ان تدعى ام الله مطلقاً بل ام المسيح »[١] . وهذا لا يتنافى وتعبده للعذراء مريم .

وكان اتباع نسطور يعتقدون بتاريخية المجامع العامة كمجمع نيقية (عام ٣٢٥) ومجمع القسطنطينية (٣٨١) ، واما المجمع الثالث الذي عقد في أفسس (٤٣١) فلم يعتقدوا بشرعيته لانه حرمهم وحرم تعاليمهم المضلة ، وكانوا يعتقدون ان جسد الرب والخمر لا يتقدسان وقت كلام التقديس حسب اعتقاد الكنيسة الجامعة ، بل وقت استدعاء الروح القدس ، ومن ثم اصبح هذا الغلط شاملاً عنـد الكنائس الشرقية ، وينكرون وجود المطهر مع انهم يصلون لاجل الموتى .[٢]

وقد استفاد نسطور من النفوذ الذي كان له في البلاط الملوكي ، فلم يدع ادنى وسيلة لاستمالة الملك اليه فيمكّنه من بث اضاليله بين كل طبقات الشعب .

---

(١) راجع المؤرخ جانين في الكتاب المذكور ص ٦ حيث يقول :

« Vers 429, Nestorius enseignait qu'il y a deux personnes, en N. S., la personne divine et la personne humaine, et que Dieu habite en l'homme Jesus comme dans un temple. C'était détruire le mystère de l'Incarnation et enlever à la Sainte Vierge le titre glorieux de Mère de Dieu. »

(٢) راجع جانين نفسه في الموضع المشار اليه ، ص ٥٠٢ — ٥٠٣ .

الارناؤوطي جنوداً ليمسكوه فلم يعثروا عليه . فصبّوا سيل غضبهم على دير قنوبين حيث السيد البطريرك وسائر اديار الموارنة وقراهم ، وصار عليهم ضيق عظيم . فلما رأى ابو كرم الشر يتفاقم ، ضحّى بذاته لخير وطنه ومواطنيه ، فنزل طوعاً الى طرابلس سنة ١٦٤٠ واسلم نفسه لوالي المدينة ، فسجنه في القلعة ، ثم امر ان يركب جملًا ويسار به من القلعة الى بلدة الميناء ، ويُطاف به في سائر الاحياء لاسقاطه من عين الاهالي ، ثم امر بقتله على الكلاب اي حديدة محنية الرأس . وقد بقي في هذا العذاب يومين ، وقد سمع اعترافه الاب بريسيوس دي رينّ (Britius de Rennes) الكبوشي الشاهد العياني لموته في سبيل الدين والوطن . لان الاتراك كانوا قد اقترحوا على ابي كرم ان يترك دينه ليبقوه حياً ، فأبى مصرحاً بانه يريد ان يموت على ايمان اجداده والكنيسة الرومانية ، ولم يخف من اهوال عذابه ، ولم يخرج من فمه سوى هذا الابتهال للعذراء : ايتها السيدة الفائقة القداسة ، ساعديني »

وقد وصف الاب بريسيوس المذكور تفاصيل الاستشهاد برسالة الى مجمع نشر الايمان المقدس في روما ، قال فيها : « ويوجد اشخاص آخرون لا يفي بهم احصاء ، فضّلوا طوعا مقاساة الموت ، في اماكن شتى ، على إنكار ايمانهم الكاثوليكي الروماني ، واسماؤهم مكتوبة في سفر الحياة . وقد تفرّد اولئك النصارى الصالحون ، بين بقية الكنائس المسيحية الهرطوقية والمنشقة ، بذلك المجد والفضل ، لانهم آثروا احتمال الجوع والعرى والسجون والتعذيبات والقيود ، اشهراً بل اعواماً كاملة ، على إنكار دينهم [١] . »

واخيراً قال الاب السمراني : « والخلاصة ان تاريخ الموارنة هو

---

(١) طالع مجلة المصور الواتيكانية في سنة ١٩٣٥ ، صفحة ٣٢١ ؛ والدويهي ، في الموضع نفسه ، صفحة ٢١٣ – ٢١٤ ؛ والاب روفائيل نخله في المكان عينه ، صفحة ٨٩ .

تاريخ استشهاد متواصل فلم يخلُ جيـــل من عذابٍ ، واضطهادٍ ، وتشريدٍ ، وتبديد ! ... وما الذي ذكرناه سوى نقطة من بحر . وبالرغم من كل ذلك ، ظل الموارنة في كرامتهم ، محافظين على ايمانهم الرسولي وآدابهم المسيحية واتحادهم الدائم بالبابا الروماني رئيس كنيسة المسيح . وانك لن تجد طائفة اخرى سواهم لم تشطرها البدعـــة والانشقاق شطرين : ارثوذكسي وكاثوليكي ، وحتى اصبحت كلمة « ماروني » مرادفة لكلمة « روماني » او « كاثوليكي » ؛ ولهذا لقبَّهم البعض « بشعب الله الخاص »[١] . والآن لنأتي الى ذكر تلك البدع القديمة ونرى مـــا يكون من امرها :

* * *

١ — **فالبدعة الاولى هي الاريوسية** ، كما جاءَ في الهدى[٢] ، المنسوبة الى أريوس[٣] التي ناصبت الكنيسة العداء وهزَّت دعائم الايمان

---

(١) في الموضع نفسه ، ص ٥٩ .

(٢) ص ٣٧ .

(٣) واليك ايها القارىء الحصيف ما قاله المؤرخ الفرنسي الشهير دانيـال روبس في كتابه « L'Eglise des Apôtres et des Martyrs » صفحة ٥٣٢ — ٣٦ :
« Arius, rien en lui n'était insignifiant : ni l'intelligence, ni le caractère, ni la violance, ni l'ambition. Son beau visage émacié, son air d'austérité modeste, la sévérité paisible et vibrante de ses paroles, tout paraissait fait pour séduire ; aussi, nombreuses étaient les vierges passionnées qui l'entouraient. Savant certainement, doué pour la dialectique... Mais si Arius, cet homme de fer, était resolu à la lutte, il y avait, croisant sa lame, une autre lame d'acier : Athanase, un petit diacre de vingt ans dont la frêle apparence cachait une âme indomptable et qui allait être le plus grand adversaire que rencontrât l'erreur. »

وطالع بشأن اريوس وتعاليمه : J. Tixeront, op. cit. p. 22 et suiv. ;

S. Epiphane, Haer. 69, 6. 7. 8. ; Théodoret, Hist. I, 4. ; S. Athanase de Synodis, 16 ; de sententia Dionysii 123 ; contra Arianos, Or. I. 5. 6. 9.

وقد أجاد حضرة العلامة الاب فيليب السمراني بوصف الاضطهاد الذي قاساه البطاركة والرهبان واعيان الموارنة ، في تاريخه الممتع عن « الكنيسة المارونية »[1] حيث قال : « في سنة ١٣٠٢ ارسل أقوش الافرم ، نائب الملك في مدينة دمشق ، جيوشه لمحاربة الموارنة . فهزمه حكامهم في واقعة الفيدار (الف دير) ، بالقرب من جبيل ، وغنموا منه اربعة الآف من الخيل ، واشتهر في هذه الواقعة : خالد مقدم مشمش ، وسركيس وسعاده مقدما لحفد ، وعنتر مقدم العاقورة . فلم ينم اقوش على ضيم ، فارسل بعد خمس سنوات (١٣٠٧) ، لمحاربة الموارنة ، جيشاً من خمسين الفاً فاحتلّ مقاطعة كسروان المنيعة ، فخرب قراها ، وقطع كرومها ، وهدم كنائسها ، وقتل واسر جميع من صادف . فذلّت تلك الجبال المنيعة ، كقول البطريرك الدويهي[2] ، بعد عزتها . »

وتابع السمراني وصفه عما لحق بموارنة قبرس من القتل والتنكيل ، نقلاً عن الدويهي[3] فذكر « ان الاتراك لما استولوا على جزيرة قبرس سنة ١٥٧٠ ، قتلوا من الموارنة ثمانية عشر الفاً ، ما عدا الذين كانوا قد قتلوهم في مدينة لامسون سنة ١٥٣٨ ، دفاعاً عن معتقدهم القويم . »

وبشأن الاضطهاد الذي حلّ بالبطاركة والرهبان قال حضرته : « لاقى الموارنة من اعمال الاتراك الكثير من الاضطهاد والظلم حتى اضطر بعض بطاركتنا الى ترك كراسيهم ، والهرب الى انحاء اخرى من الوطن . هذا ما حدث للبطرك الكبير اسطفانوس الدويهي سنة ١٦٨٣ ، فانه هجر دير قنوبين الى بلدة المعوش في جنوبي لبنان ، حيث اقام

---

(١) صفحة ٣٨ — ٥٩ .

(٢) في احتجاجه ، طبعة الشرتوني ، صفحة ١٢٣ — ١٢٥ ؛ والمجلة البطريركية ، سنة ١٩٣٥ ، ص ٩ .

(٣) في الموضع نفسه ، صفحة ١٧٣ .

سنتين هرباً من جور الحكام وظلمهم . وحدث مثله للبطرك يعقوب عواد سنة ١٧٢٥ ، ١٧٢٦ ، ولرهبان دير قزحيا ومار ليشع بشراي ، واضطروا ان يختفوا في مغاور الارض وشقوقهـا لينجوا من سيف الجنود ، وذلك كله دفاعاً عن الوطن والدين[١] . »

« وتاريخ الدويهي ملآن من امثال هذه الاعمال العدوانية الظالمة، فلا تكاد تخلو سنة منها . نكتفي بذكر مـا جرى سنة ١٦٠٧ . قال الدويهي رحمه الله[٢] : « في هذه السنة صار القشلق وتفرّقت عساكر السلطان من حلب الى بلاد الشوف ، وكانت الناس في ضيق عظيم من الغلاء والضريبة ، التي كانت على الضياع والديورة . . . وفي بلاد البترون حيث خربت قرية حوب ، وبلعه ، ورام ، وتولا . واما الاسقف يونان السمراني والخوري عطيه فتركا دير سيدة ميفوق وهربا ، فسلبت العساكر جميع ما وجدوا فيه ، ودام القشلق خمسة شهور . »

والامثلة الرائعة من البطولة والاستشهاد التي ضربها الموارنة واعيانهم حباً للدين ، وذوداً عن حرمة الوطن ، كثيرة لا تحصى ، جمع بعضها حضرة الاب الواعظ القدير روفائيل نخله اليسوعي في كتابه المفيد[٣] نقتصر على ذكر مثل منها ليكون عبرةً وذكرى ، قال :

« بعد مقتل الامير فخر الدين المعني الكبير اشتدّ نير الاتراك على اللبنانيين فثار عليهم الشيخ ابو كرم يعقوب الحدثي حاكم اقليم الجبة الماروني واحد قواد الامير المعني القتيل ، وانضمّ اليه مائة وخمسون من الشبان الموارنة الشجعان . فارسل اليه والي طرابلس محمد باشا

---

(١) راجع الدويهي ، في الموضع نفسه ، صفحة ٢٥٠ .

(٢) في الموضع نفسه ، صفحة ١٨٧ .

(٣) « اربعة الآف مثل » طبع في بيروت سنة ١٩٥٠ ، صفحة ٨٩ — ١٠٠ .

وكادت تودي بها، في هذه البقعة من العالم، لولا وعد الله بانه سيكون مع الكنيسة حتى انقضاء الدهر، وان ابواب الجحيم لن تقوى عليها مهما اشتدت اعاصيرها الهوجاء، وذلك لنرى بجلاءٍ أتلطخ «تباعُ مارون، واصحاب بيت مارون، واشياع رهبان مارون، وفروع كرم لاون، واغراس الكرم الخلقيدوني»، كما كان يدعوهم اليعاقبة [١]، ببدعة من هذه البدع القديمة، حسبما يدّعي بعض الخصوم الالداء، أم لا. فنقول وعلى الله الاتكال:

☆ ☆ ☆

ولكن قبل التبسط بشرح البدع على اختلاف انواعها وقدميتها، وذكر تباعها والقائمين على نشرها واذكاء نارها، نرى لزاماً علينا ان نشير بوجيز العبارة الى ما احتمله الموارنة شعباً واكليروساً، رهباناً وبطاركة وحكاماً، من الظلم والعذاب، وما سفكوه من دماء بسبب الاضطهاد، دفاعاً عن ايمانهم وبلادهم وتعلقهم بكرسي روما الثابتة الاركان، على تمادي السنين والاجيال:

لاقى الموارنة، في سبيل معتقدهم الصحيح واستقلال بلادهم، من الجور والاضطهاد انواعاً واشكالاً. فقد روى المقريزي في تاريخه العربي [٢] «ان قائد جيوش السلطان بيبروس، لما اجتاحت عساكره لبنان سنة ١٢٦٧ واسرت ونهبت ما وصلت اليه ايديهم (الاثيمة)، امر فوراً بقتل الاسرى، وهدم الكنائس، والاديرة، وقطع الاشجار.»

وقد روى علامتنا الكبير البطريرك الدويهي [٣] عن خراب لبنان الشمالي، وقتل بطريركه الماروني دانيال الحدشيتي (١٢٧٧ – ١٢٨٣)،

---

(١) انظر كتاب الجراجمة للمطران دريان، ص ٣٦.

(٢) راجع المطران ديب في تاريخه، صفحة ٢٠٤.

(٣) انظر تاريخ الاحتجاج، طبعة الشرتوني، صفحة ١١٥.

ما فيه الدليل الواضح على قوة الموارنة ، في تلك المحن والنكبات التي انتابتهم ، وعلى شأن بطريركهم وعظيم مقامه ، قال :

« وفي سنة ١٢٨٣ اجتاحت عساكر السلطان قالاوون القسم الشمالي من لبنان فنهبوا بلدة اهدن ، وخربوا قلعتها ، ودكوا بلدة بقوفا الى الارض ، واحرقوا اكابرها في البيوت ، وذبحوا اهالي حصرون وجوارها في الكنيسة ، وقتلوا من ادركوه في بلدة الحدث ، وهدموا جميع الاماكن الحصينة . »

وبعد جهد جهيد وبواسطة كمين تمكنوا ايضاً من القبض على البطريرك الماروني دانيال المذكور ، وكان مختبئاً في احدى مغاور الحدث نفسها ، فاعتبروا عملهم الوحشي هذا فتحاً عظيماً وانتصاراً مبيناً ، بدليل ما كتبه مؤرخ السلطان قلاوون عينه عن هذا الموضوع ، اذ قال[١] : « اتفق ان في طرابلس بطركاً عتا وتجبر ، واستطال وتكبر ، واضاف صاحب طرابلس (احد امراء الصليبيين) وجميع الفرنجية اي الصليبيين ، واستغوى اهل تلك الجبال ، واهل تلك الاهوية من ذوي الضلال ، واستمر امره حتى خافه كل مجاور ، وتحصَّن في حدث الجبة وشمخ بانفه ، وما قدر احد على التحيل عليه ، من بين يديه ، ولا من خلفه ، ولولا خوفه من السلطان لخرب تلك البلاد ، وفعل ذلك او كاد ، فاتفق ان النواب ترصدوه مراراً فما وجدوه . فقصده التركمان في مكانه ، وتحيلوا عليه حتى امسكوه ، وأحضروه اسيراً حسيراً ، وكان من دهاة الكفر وطواغيهم ، واستراح المسلمون منه وآمنوا شره . وكان امساكه فتحاً عظيماً اعظم من افتتاح حصن او قلعة . وكفى الله مكره . »

---

(١) طالع المخطوط العربي رقم ١٧٠٤ المحفوظ في مكتبة باريس الوطنية، وعنوانه « تشريف الايام والعصور بسيرة الملك المنصور » صفحة ٩٤ — ٩٥ .

يوحنا مارون خلفاً لتاوافانوس البطريرك المتوفى سنة ٦٨٥ »[١].

ومن الغريب انه منذ القرن السادس عشر لغاية الآن لم يعثر احد، بالرغم من التنقيبات عن تواريخ الموارنة من دينية ومدنية، على اثرٍ تاريخيٍ راهنٍ يوضح بعض نقاطٍ غامضةٍ من تلك الحقبة التي هي من القرن الثامن حتى اوائل القرن الحادي عشر، لا عند كتبة الموارنة الذين لم يظهر منهم شيء يذكر سوى بعض كتبٍ للقديس يوحنا مارون البطريرك الاول في سلسلة بطاركتهم، ولا بين آثار الكنيسة الرومانية، ولا عند كتبة اليونان، الا ما جاء بالعرض في مقالتين للقديس يوحنا الدمشقي وفي كتاب القديس جرمانوس بطريرك القسطنطينية[٢]. »

---

(١) انظر تاريخ الكنيسة الانطاكية السريانية المارونية للخوري غبريل، مج ٢، ص ١٠٩ – ١١٠ حيث يثبت قداسة البطريرك يوحنا مارون واستقامته، من اقوال اعداء الموارنة، ومن تأليف هذا الراعي الغيور، ومن اقوال احبار الكنيسة العظام والعلماء الاعلام، ومن التقليد البيعي وغير ذلك. (راجع النبذة التاريخية للمطران دريان، ص ٥٥؛ وايضاً له، لباب البراهين الجلية، ص ١١٩ – ١٢٣؛ وايضاً له، كتاب اصل الجراجمة . . . ص ٤١ – ٦٣؛ وكتاب المحاماة عن الموارنة . . . القسم الاول والثاني والثالث؛ والجامع المفصل . . .، ص ٦٣ وما يليها؛ والسمعاني في مكتبته الشرقية، ج ١، ص ٣٠٧ و ٤٩٦ وما يليهما؛ والدر المنظوم للبطريرك مسعد؛ وروح الردود للدبس ايضاً كما سنرى.

(٢) انظر المطران دريان في لبابه، ص ١٩٤ – ١٩٥.

وهنا تجب الاشارة الى ان المستشرق الفرنسي الاب شابو أصدر سنة ١٩٣٥ كتاباً حديثاً عنوانه « Les origines de la legende de Saint Jean Maron » واعاد نشره سنة ١٩٥١ في مج ٤٣، الجزء الثاني من كتاب « Mémoires de l'Institut National de France » انكر فيه وجود القديس يوحنا مارون وعدّه خرافةً واسطورة. وجاء ما كتب يشفّ عن سخريةٍ وحقد واستهزاء بالعلماء الموارنة واقوالهم، ويكرّر ما قاله المؤلف الفرنسي إيساب رينودوط (Renaudot) سنة ١٧٢٠، غير مستند الى برهان وضعي. وقد استقى معظم ما كتب من مؤلفات سعيد بن البطريق وغوليلموس اسقف صور اللاتيني اللذين فنّد العلماء المدققون اقوالها واظهروا بطلانها. فاكتفينا هنا بالاشارة الى كتابه هذا، على ان نفرد للردّ عليه رسالةً خاصة ان شاء الله.

٨ً ـ الفرق الدينية التي ظهرت في الشرق قديماً وتأثيرات الملوك والباباوات عليها في مختلف العصور والاحوال :

هذه كلمة عن نشأة الطائفة وعن نسبتها للقديس مارون وتلاميذهِ ورهبانهِ ، وعن وصف الدير المشهور باسم دير مارون مع ذكر اول بطريرك ماروني تبوأ كرسي انطاكية ، بعد تلك الانقسامات التي دخلت على الكنيسة الشرقية في القرن السابع فأفقدتها وحدتها الجميلة ، وشطرتها الى خمسة اقسام ذكرها كتاب الهدى[1] اذ قال :

«فأول فرقةٍ من الفرق المشهورة التي ظهرت في الشرق هي المنسوبة الى اريوس وتدعى الاريوسية ، ثم النسطورية وهي المنسوبة الى نسطور ، ثم اليعقوبية وهي المنسوبة الى يعقوب الذي كان من مدينة بردعاء ولذلك يقال له البرادعي ، ثم الملكية وهي المنسوبة الى قسطنطين بن هرقل الملك ، ثم المارونية وهي المنسوبة الى مارون يوحنا بطريرك انطاكية العظمى ...[2] . »

وحيث ان هذه الانقسامات المختلفة الاعتقاد كانت نتيجةً حتميةً لقبول التعاليم الكنسية المقدسة ومجامعها المسكونية او رفضها ، لذا علينا ، والحالة هذه ، ان نعرض ، بايجاز كلي ، حقيقة تلك التعاليم التي نشأت في الشرق بين القرن الرابع والثامن للمسيح فأقلقت الكنيسة

---

(١) انظر الهدى ص ٣٧ . ثم راجع كتابنا عن «الملكية والمارونية» ص ١٥-١٦ .

(٢) وفي بعض النسخ من هذا الكتاب ذكر فقط اسم « مارون » بدون اسم « يوحنا » . وهذا هو الصواب كما تقدم الكلام ، (راجع لباب البراهين الجلية في تاريخ الطائفة المارونية للعلامة دريان ، ص ٢٣٩) .

في بلدة سمر جبيل ثم في كفرحي حيث بنوا ديراً عظيماً على اسم القديس مارون واضعين فيه هامته المقدسة [١] التي نقلوها معهم من ديره الملقب بدير « البلـّور » على حد تعبير المسعودي [٢] والمشيـَّد على العاصي (الاورونت) في سوريا . وقد اضطر بطاركة الموارنة الى تغيير محل اقامتهم في لبنان ثلاث عشر مرة بسبب ما لحقهم من اضطهاد ، الى ان استقرَّ البطريرك يوحنا الجاجي سنة ١٤٤٠ في دير سيدة قنوبين مقيما فيه حتى وفاته سنة ١٤٤٥ . وفي القرن الـ ١٨ اخذ بعضهم يقيم في بلاد كسروان . وبعد الغاء رهبانيـة قلب يسوع الاقدس التي اسَّستها في بكركي الراهبة هندية اقترح البعض ان يكون هذا الدير مركزاً للبطاركة . وقد عيَّن بالفعل مجمع بكركي المعقود سنة ١٧٩٠ هذا الدير (بكركي) كرسياً دائماً للسيد البطريرك وثبَّت هذا التعيين مجمع نشر الايمان المقدس سنة ١٧٩٣ . على ان بطاركتنا جعلوا بكركي مقراً لهم شتاءً ، وبنوا في الديمان العتيق اولاً بنايتين وكنيسة ثم قصراً فخماً في الديمان الجديد لسكناهم مدة الصيف [٣] ... »

فجميع هذه الآثار التاريخية التي اشرت اليها ، بايجاز كلي هنا ، تدل بصراحةٍ وجلاءٍ وبدون ادنى ريب ، على ان البطريرك الاول الذي ترأس تاريخ الطائفة المارونية وسلسلة بطاركتها انمـــا هو البطريرك

---

(١) روى سيادة المطران بطرس صفير في كتابه المذكور ، ص ١١٤ — ١١٥ عن لودوفيكو ياكوبيلي (Ludovico Jacobelli) ان الراهب البنديكتاني مخائيل آباتي كنيسة الصليب في دير الساسو ـ فيفو ، ذهب عام ١١٣٠ الى الشرق وزار دير القديس مارون ونال من رهبانه كذخيرةٍ مقدسة رأس القديس وقد وضعها في دير الساسو ـ فيفو المذكور ، وظلت هناك الى ان نقلها اسقف المدينة الى الكاندرائية سنة ١٤٤٠ حيث ما تزال حتى ايامنا » .

(٢) في كتابهِ « التنبيه » ترجمة كارادي‌فو (١٨٩٧) ص ٢١١ .

(٣) راجع « الكنيسة المارونية » للاب فيليب السمراني ، ص ٣٣ وما يتبع .

يوحنا مارون القديس الذي أُقيم بطريركاً على انطاكية وسائر المشرق[١] سنة ٦٨٥ ، ورقد بالرب في جهات البترون سنة ٧٠٧ ، ودفن في الدير المشيد على اسمه في قرية كفرحي بالبترون ايضاً .

اما كيفية اقامته مطراناً ، ثم بطريركاً على الطائفة ، فقد اختلف فيها كتبة الايام المدققون ، فذهبوا في ذلك مذاهب شتى : « فمنهم من قال انه انتخب في انطاكية في مجمع الاساقفة باجماع الاصوات ... ومنهم من ذهب الى ان اساقفة الموارنة واكليروسهم اقاموه ... ومنهم من ذكر انه جاء رومية فاقامه البابا سرجيوس الانطاكي الاصل بطريركاً على انطاكية ... ومنهم وهو الارجح من ارتأى ان البابا المذكور ثبّته بواسطة نائبه يوحنا اسقف فيلادلفيا . وكل هذه الاقوال لا يمكن القطع بواحدٍ منها ، انما الذين ذكروها ، وتكلموا عن الاحداث التي جرت في ذلك العهد العريق في القدم ، يتفقون على اقامة بطريرك انطاكية من الشعب الماروني ، وهو يوحنا مارون ، راس سلسلة البطاركة ، وذا حسبنا . لان حالة تلك الاعصر الخوالي ، وحوادثها الجسام ، واضطهاد المبتدعين لبني الايمان القويم واستقلال الموارنة وسطوتهم ، تدل على ان القسم الاكبر من الاكليروس الانطاكي المستقيم العقيدة لجأ الى لبنان ، حيث اجمع رأيهم على انتخاب القديس

(١) ولا يزال بطاركة طائفتنا يحملون هذا اللقب الجميل لغاية اليوم وهم فخورون به ومعتزون . وقد اعتاد بطاركتنا القديسون ان يضيفوا الى اسمهم المبارك اسم « بطرس » الرسول منشيء كرسي انطاكية للتبرك والاستذكار . وهذا اللقب « انطاكي » قديم جداً اثبت قدميته سيادة المطران بطرس ديب في تاريخه الجليل المشار اليه ، حيث ذكر شهادتين تاريخيتين لا يتطرق الشك اليهما احداهما تحمل تاريخ ١١٦١ والثانية سنة ١١٥٤ ، (انظر العنيسي ، سلسلة البطاركة ، ص ١٧ . والمطران ديب ، الموضع نفسه ، ص ١٥١ . والمطران صفير ، الموضع نفسه ، ص ١٢٣ – ١٢٤ ، نقلاً عن السمعاني في كتابه : سلسلة البطاركة التي طبعها المطران نطين سنة ١٨٨١ ، ص ٢٥ ، والمكتبة الشرقية ، ج ١ ، ص ٣٠٧ – ٣٠٨) .

دملصا احدى قرى جبيل ؛ ٦٨ : غريغوريوس ثم اسطفان ثم مرقس ثم حوشب ثم يوحنا ثم يشوع ثم داود ثم غريغوريوس ثم تاوفيلكتوس ثم يشوع ثم ضومط ثم اسحق . . . »

وحديثاً [١] نشر باللغة الايطالية سيادة العلامة المطران بطرس صفير كتاباً عن القداس الماروني [٢] علق عليه بنبذة تاريخية عن الطائفة المارونية ، شرح في الفصل الثالث منها ثلاث نقاط خطيرة : اهمها تتعلق بنشأة البطريركية الانطاكية . « فاثبت بوجيز العبارة ، فراغ الكرسي الانطاكي ، بعد وفاة بطريركها آنستاسيو الشهيد ، من سنة ٦١٠ لغاية سنة ٦٤٠ التي فيها قام سرجيوس بطريرك القسطنطينية ومؤسس بدعة المونوتيلية ، ونصّب مكدونيوس بطريركاً على كرسي انطاكية ، ولكنّ هذا البطريرك لم يتمكن بسبب الحروب المتواصلة بين العرب والبيزنطيين من الدخول الى انطاكية ، فمات سنة ٦٦٥ مسيحية قبل استلام زمام سلطتها الروحية ، وعندئذ خلفه مكاريوس المونوتيليتي ولم يستطع هو الاخر الوصول الى كرسي انطاكية بل ظل مقيماً في القسطنطينية لسنة ٦٨٠ ، تاريخ انعقاد المجمع المسكوني السادس الذي حرم مكاريوس هذا وحطه على مقامه ، وانتخب مكانه تاوافان بطريركاً انطاكياً صحيح العقيدة . على ان هذا البطريرك وآخرين سواه ايضاً لم يتمكنوا من استلام زمام البطريركية الانطاكية حتى سنة ٧٠٢ . وبعد هذا التاريخ ظلت كرسي انطاكية شاغرةً حتى سنة ٧٤٢ التي فيها عادت السلسله البطريركية الى سابق سيرها» .

وقال سيادته [٣] : « ومما يجدر له التنبيه ان الكرسي الرسولي

---

(١) اى سنة ١٩٤٩ .

(٢) La Messa Siro-Maronita, Roma, 1949, p. 119 — 22.

(٣) الموضع نفسه ، صفحة ١٢٠ . وانظر في قاموس اللاهوت الفرنسي كلمة « انطاكية » ص ١٤٠٧ .

المقدس ، رغبةً منه في الحفاظ على النظام الكنسي ، أسس في الشرق سنة ٦٤٩ نيابةً عامةً لبطريركيتي انطاكية واورشليم تولى الاشراف عليها مطران فيلادلفيا « عمان حالياً » السيد يوحنا الفيلادلفي مطرانها اللاتني . » الى ان قال : [١] « فالموارنـة ، اثناء فراغ الكرسي الانطاكي على ما وصفنا ، اسسوا بطريركيتهم الانطاكية وانتخبوا اول بطريرك عليها ، بعد وفاة تاوافان ، هو الراهب يوحنا مارون ، سنة ٦٨٥ . »

« وضع البعض قداسة البطريرك يوحنـا مارون في ريب [٢] . وانكرها احد قسس الروم الكاثوليك في رسالةٍ رفعها سنة ١٧٦٥ الى مطران الموارنة في حلب السيد ارسانيوس شكري ، يقول فيها : « ان الملكيين لا يريدون اكرام مارون آخر غير مارون الرئيس الذي سطّر حياته تاودوريطوس المؤرخ » . فاحدثت رسالته ضجةً انتهى صداها الى روما الخالدة . فكان جوابها : « أن منح البابا بيوس السابع في ٣٠ من شهر ك الثاني سنة ١٨٢٠ غفراناً كاملا مؤبداً لجميع المؤمنين الذين يزورون كنيسة القديس يوحنا مارون في كفرحي بجبيل يوم عيدهِ الواقع في الثاني من شهر آذار . ثم مدّد هذا الغفران لجميع كنائس الطائفة المارونية في منشور وجّهه قداستهُ الى جميع ابناء هذه الطائفة في اليوم السابع من ايار سنة ١٨٢١ [٣] » .

ومما يجدر الانتباه اليه هنا هو ان « بطاركة طائفتنا اقاموا اولاً

---

(١) انظر الصفحة نفسها من كتاب المطران بطرس صفير .

(٢) طالع كتاب « الكنيسة المارونية » للاب فيليب السمراني ، المطبوع في مصر ١٩٥٠ ، ص ٢٥ – ٢٦ .

(٣) راجع الدبس في تاريخه الجامع المفصل . . . ص ١٠٥ – ١٠٦ – ١٢٩ – ١٣٠

الاخير جاء الى جبل لبنان وسكن في يانوح من جبة المنيطرة وفيها مدفنه . وعندما ادركته المنية استدعى اليه الشعب والاكليروس وسمى لهم يوحنا ثالثاً من قرية دملصا في بلاد جبيل ليكون خليفةً له . وكل هذا مسنود عند الموارنة الى تقليداتهم القديمة [١] . وهؤلاء البطاركة الخمسة وُجد ذكرهم متسلسلين على ما ذكر في كراسة سريانية نسخها داود ابن ابراهيم في سنة ١٦٢٤ يونانية اي ١٣١٣ مسيحية ، وربما رجع اصلها الى اقدم من هذا العهد [٢] . »

ومعلوم جلي « ان كرسي البطريركية المارونية في يانوح الذي أسسه هذا البطريرك بحسب هذه الآثار التاريخية ما تزال معالمه القديمة المعروفة حتى الآن عند الموارنة وغيرهم تدل على صحة هذا الخبر ، وفخامة هذا المقام ، وشأن الذين سكنوه مدات طويلة على التوالي ، ولاسيما ان القرية المذكورة رحبة الاراضي ، كثيرة المياه ، جيدة التربة والهواء ، منيعة الموقع ، جميلة للغاية . وهذه الآثار هي اليوم مع قسم كبير من تلك الاراضي والمياه وقف لمدرسة القديس يوحنا مارون البطريركية التي انشأها الحميد الذكر والاثر البطريرك يوحنا الحاج [٣] . »

وقد ذكر البحاثة المرحوم الآباتي طوبيا العنيسي ، رئيس ديونا مار انطونيوس بروما ، في سلسلة البطاركة التي صحَّح فيها [٤] ما يجب

---

(١) انظر المطران ديب ، في الموضع نفسه ، صفحة ١٤٨ .

(٢) راجع ذلك في المطران دريان ، في « الجراجمة » صفحة ٤٠ — ٤٤ ؛ وفي « اللباب » صفحة ١٢١ وما يليها .

(٣) المطران دريان ، في الجراجمة ، صفحة ٤٣ وما اليها .

(٤) انظر هذه السلسلة التاريخية صفحة ٤ — ١٦ واليك قوله في المقدمة ، صفحة ٢ : « لقد قيضت لي العناية الالهية ان ابحث في خزانة الكتابات السريانية للكرسي الرسولي المقدس واطالع . . . وقد عارضت هذه البيّنات المشار اليها بسلسلة البطاركة التي قبلي

تصحيحه من اسماء البطاركة الذين تعاقبوا بعد البطريرك الاول يوحنا مارون سنة ٧٠٧ الى ايامنا هذه ، فعدّدهم كما يلي :

« ٦٢ : تاوافان ، سمّاه بطريركاً الملك قسطنطين الثالث سنة ٦٨٠ بناءً على طلب اساقفة انطاكية وكهنتها الذين كانوا في مجمع القسطنطينية؛ ٦٣ : يوحنا مارون ، اول بطريرك على الطائفة المارونية سنة ٦٨٥ وانتقل الى رحمة الله سنة ٧٠٧ ودفن في دير مار مارون الذي في ارض كفرحي في البترون [1] ؛ ٦٤ : قورش ابن اخت مار يوحنا مارون عام ٧٠٧ ؛ ٦٥ : جبرايل كان يسكن في دير كفرحي ؛ ٦٦ : يوحنا مارون الثاني وكان ساكنا في دير سيدة يانوح ؛ ٦٧ : يوحنا من قرية

. . . فألفيت في هذه الكتب المذكورة (وهي للسمعاني والدويهي والدبس ودريان وغيرها) بعض آراء لا تنطبق على احوال الزمان والشخص والمكان بل هي مفتقرة الى اثبات وتحقيق . فمن ذلك مثلًا نسبة توقيع البطرك ارميا من دملصا الى البطرك ارميا من عمشيت . . . ثم صححت ما يجب تصحيحه من اغلاط التوقيع فجأت بعون الله سلسلة ممحصة وموءيدة بالنصوص والبيّنات . »

(١) ان كنيسة انطاكية ، منذ وفاة بطريركها الشرعي انسطاس التي حصلت سنة ٦٠٩ حتى سنة ٧٠٢ ، كانت بدون بطريرك يقيم فيها ويشرف عن قرب على رعاياها ، بسبب الحروب وفتوح العرب واستيلائهم على مدن سوريا . وكان يستحيل على البطريرك المعين على انطاكية ان يحضر الى كرسيها لهذا السبب . اما بعد سنة ٧٠٢ فلم يعد يُعيَّن بطريرك شرعي على انطاكية بل صارت كنيستها شاغرةً حتى سنة ٧٤٢ التي فيها انتخب اسطفان الثالث بطريركاً شرعياً عليها ، كما جاء في تاريخ الكنيسة القديمة للعلامة المونسنيور ديشين (Duchesne) صفحة ٣٧٢ ، وفي قاموس التاريخ والجغرافية للاب كارالفسكي ، عمود ٥٨٩ – ٥٩٧ ، وفي صدى الشرق ج ٩ سنة ١٩٠٦ ، صفحة ٢٦٣ ، للاب فاليه (Wailhé). وفي هذه الظروف والاحوال المضطربة نشأت البطريركية المارونية . واول اثر تاريخي قديم عن هذا التأسيس نجده في تاريخ الموءرخ ديونيسيوس التلمحري (٨١٨ – ٨٤٥) حيث يقول : « وظل الموارنة كما هم الآن يرسمون بطاركة واساقفة من ديرهم . » (انظر المطران بطرس ديب في تاريخه المذكور صفحة ١٦٥ – ١٦٧) .

وقد اشتهر القديس يوحنا مارون بغيرته الناهضة على حفظ الايمان الكاثوليكي ، وتوطيد دعائمهِ ودعائم المجامع المسكونية ، وتمكّن بعلمه وتقواه ، كما قال السمعاني [١] ، من هداية كثيرين الى الايمان الحق . حتى قال فيه اليعاقبة انفسهم ما رواه البطريرك العظيم اسطفان الدويهي (١٦٧٠ – ١٧٠٤) آخذاً عن قصة معلمهم يعقوب البرادعي ، ناسبين الى يوحنا مارون الزعامة الدينية في مخاصماتهم وفي كل المنازعات التي كان يثيرها على زعيمهم الاكبر يعقوب المذكور [٢] .

وقد روى الدويهي كلامهم هذا بأصلهِ السرياني فعرّبه العلامة المطران دريان بهذا الحرف قائلاً [٣] : « عندما يلتقي الهراطقة والارثوذكس يسألهم الهراطقة من انتم ؟ فيجيب الارثوذكس نحن من حزب امانة يعقوب اول الرسل واخي الرب . وهذه الامانة هي التي يعظنا بها يعقوب هذا الالهي [٤] . اما خصومهم فيجيبون : اما نحن فاننا من

المذكور نفسه ص ٢٧٦) الى دمشق وصنعا جدالًا امام معاوية مع اصحاب مارون في في امر الايمان ولما غُلبا أمرَ معاوية أن يدفعا له عشرين الف دينار ووصّاهما ان يبقيا في الهدو ، وجرت العادة منذ ذاك لاساقفة اليعاقبة ان يدفعوا كل سنة مثل هذا المبلغ لمعاوية لئلا يكفّ عنهم يده فيتعقبهم ابناء الكنيسة (اي الكنيسة الحقيقية التي ينتسب اليها المؤلف) وفي هذه النبذة شاهد جليل على ان الموارنة لم يقبلوا قط اضاليل اليعاقبة . » وقد ذكر هذا الاثر التاريخي الجليل المطران دريان في كتابه « الجراجمة » ص ٣٧ ، « واللباب » ص ٨٧ ، والمطران الدبس في « الجامع المفصل . . . » ص ٢٧ وغيرهم .

(١) في مكتبتهِ الشرقية (Bib. or.) مج ١ ، ص ٤٩٩ وما يليها .

(٢) انظر الدبس في تاريخ سوريا ، ج ٥ ص ١٢٧ – ١٢٨ ؛ وايضاً المطران دريان في الموضع نفسه ص ٣٨ .

(٣) راجع المطران دريان في كتابه « الجراجمة » ص ٣٨ – ٣٩ و ٤٠ ، و ٤١ ، و ٤٢ حيث يستفيض بشرح هذه الاقوال ، وتبيان صدقها من كذبها ، ويتخذ هذا القول حجةً لاثبات عدم سقوط الموارنة في اية هرطقة مهما كان نوعها ، فليراجع هناك .

(٤) ويراد به هنا يعقوب البرادعي الهرطوقي زعيم فئتهم الذي منه اخذت اسمها كما هو مشهور لدى العام والخاص ، (انظر دريان في الموضع نفسه ، ص ٣٩) .

حزب امانة افرام الآمذي (٥٢٩ — ٥٤٥) او يوحنـــا السرومي البطريرك (٦٨٦ — ٧٠٧) عدو الله . »

ومما لا ريب فيه ان هناك غير القديس يوحنا مارون السرومي الذي ذكرت ، يوحنا مارون آخر معروف بابن الفرنج ، يشهد بذلك تفاوت عهد كل منهما عن الاخر وتواريخ بطاركة الطائفة عـــلى تمادي الاجيال[١] .

فقد جاء في سلسلة البطاركة للعلامـة الدويهي التي نشرها بالطبع سنة ١٩٠٢ الاستاذ رشيد الشرتوني[٢] : « ان اول هؤلاء البطاركة انما هو يوحنا مارون . جلس على كرسي انطاكية البطريركية سنة ٦٨٥ ورقد بالرب سنة ٧٠٧ للمسيح . فخلفـه ابن اخته قورش ثم جبرايل على ما وجدنا في النسخ القديمة[٣] ثم يوحنا آخر منسوب الى مارون ، وكل هولاء كانوا من رهبان القديس مارون . وان هذا

---

(١) انظر المطران دريان في المواضع المذكورة ؛ وانظر كتابنا عن « الملكية والمارونية » ص ٣٠ ؛ والمطران ديب في كتابه المذكور ، ص ١٤٧ — ١٤٨ .

(٢) في مجلة « المشرق » في سنتها الاولى ص ١٥١ ، أولاً ثم على حدة ، ص ٢٢ ، ٢٣ ، وكان قد ترجمها لاكويان الى الايطالية ، سنة ١٧٤٠ ، في المجلد الثالث من مجلة الشرق المسيحي ، صفحة ٤٩ — ٧٦ .

(٣) يقول الدويهي (كما روى المطران دريان في كتابه « الجراجمة » صفحة ٤٢ ؛ والمطران بطرس ديب في تاريخه ، صفحة ١٤٧ — ١٤٩ ؛ والمطران صفير ، صفحة ١١٩ وما يليها) « ان هولاء البطاركة الخمس المذكورين امرهم واضح من الرسالة التي شيَّعها ، في سنة ١٤٩٥ ، جبرايـل بن القلاعي الى القس جرجس بن بشاره في الفصل الـ ١١ . ووجدنا ذكرهم ايضاً في كراسة سريانية ؛ كانت عند سالفنا المغفور له البطريرك جرجس من قرية بسبعل الذي توفي سنة ١٦٧٠ ، قد نسخها داود بن ابراهيم سنة ١٦٢٤ لليونان اي سنة ١٣١٣ للمسيح ، فتكون اقدم من تحرير ابن القلاعي بمئة وثمانين سنة ؛ وفي نسخ اخرى عرضها علينا اخونا المطران جرجس حبقوق وغيره . »

يوحنا مارون يسمّى بالسرومي نسبةً الى بلدة سروم [١] من جبل اللكام بالسويدية القريبة من مدينة انطاكية .

ومن المرجح كثيراً ان القديس يوحنا مارون كان حسب اعتقاد علماء الطائفة الثقة [٢] ، من جملة الرهبان الذين حضروا الجدال الذي جرى بين اساقفة اليعاقبة واصحاب مار مارون في امر الايمان ، في مجلس معاوية في السنة الرابعة عشرة للملك قسطنت الثاني الذي ملك من سنة ٦٤١ الى سنة ٦٦٨ ، لان هذا الجدال وقع سنة ٦٥٨ — ٦٥٩ . ويوحنا مارون جُعل اسقفاً على ابرشية البترون سنة ٦٧٦ ، أي بعد هذا الجدال الديني بنحو ١٨ سنة تقريباً .

واما أمر هذا الجدال فقد اكتشفه العلامة الالماني الشهير نُلدكه (Noldeke) [٣] ونشره في المجلة الاسيوية [٤] . وفيه اخبار خمس سنوات

---

(١) راجع المكتبة الشرقية ، مج اول ص ٤٩٦ : والجامع المفصل ، ص ٥٣ ؛ والدويهي في كتاب المحامات . . . ك ١ ف ٧ وما يتبع .

(٢) انظر دريان في كتابه « اصل الجراجمة والمردة والموارنة » ص ٣٨ . ونقل الدويهي عمن سبقه أن القديس يوحنا مارون سمي يوحنا لانلاده في يوم تذكار القديس يوحنا المعمدان ، ودُعي مارون لانه لبس الاسكيم الرهباني في دير القديس مارون الناسك ، (راجع تاريخ الكنيسة الانطاكية السريانية المارونية للخوري غبريل الشبابي مج ١ ص ٢٥٦ ، ومج ٢ قسم اول ص ١٠٨ ، حيث يسهب بشرح تاريخ القديس يوحنا مارون واعماله الكهنوتية وغيرته النادرة المثال .)

(٣) انظر الاب ناو في كتابه « Opuscules maron. » ج ١ ص ٣٦ ، وج ٢ ص ٦ . وانظر درساً انتقاديا عليها للعالم توما نُلدكه ، في كتابه « Bruchstüche einer syrishen chronik über die Zeit des Moawia, in Zeitschrift der deutschen morgenloendischen Gesellschaft, 1875, t. 29 p. 82-97. وايضاً Brooks et Chabot في كتابها : Chronico minora المطبوع في باريس سنة ١٩٠٣ ، ص ٣٥ — ٣٧ من الجزء الرابع (راجع ديب في الموضع نفسه ص ٥٨) . وانظر كذلك في المشرق مقالاً للاب هنري اليسوعي سنة ٢ ، ص ٢٦٥ . وللخوري بشاره الشبابي ، ص ٣٥٦ . وللاب رونزفال ، ص ٤٥١ .

(٤) المجلد ٢٩ ، ص ٨٣ من المجلة الاسيوية المذكورة ZOMG.

من سنة ٩٧٠ الى سنة ٩٧٥ للاسكندر (اي من سنة ٦٥٩/٦٥٨ الى سنة ٦٦٣ للمسيح) . وقد عرّبه ونشره الاب العالم هنري لامنس اليسوعي في مجلة « المشرق » الغراء سنة ١٨٩٩[1] .

---

(١) انظر المشرق ، السنة الثانية ، ص ٢٦٥ . قال الاب لامنس : « وبينما كنا نتصفح احد مجلدات المجلة الاسيوية الالمانية (ص ٨٢ ، مج ٢٩) اذ عثرنا على مقاطيع سريانية من تاريخ لبعض كتبة الموارنة نعدّه كأقدم أثر لهذه الطائفة الشهيرة . وهذه القطع عبارة عن خمس سنوات تبتدي من سنة ٩٧٠ للاسكندر الى سنة ٩٧٥ له (٦٥٨ - ٦٦٣ للمسيح) وهي تتضمن قسماً من الحوادث التي جرت في ايام معاوية اول خلفاء بني أمية .

« والكتاب هو من المجاميع السريانية المحفوظة في خزانة لندره وقد رسم فيها بالعدد الآتي « Cod. add. 17121, Wrights Catal. p. 14 ». وهذه النبذة مع قصرها تنبئنا بما كان لبقية هذا التاريخ المفقود من الخطارة وعظم الشأن ، ولا شك في ان الاصل كان متسع الاخبار كتاريخ تاوفانوس يذكر الوقائع الدينية والدنيوية معاً . . . والكتاب قديم العهد تشهد عليه صورة كتابتهِ العتيقة حتى ان العلامة رَيت (Wright) الذي وصف بثلاث مجلدات الكتب السريانية المصانة في المتحف البريطاني ذهب الى ان الكتاب خطّ في القرن الثامن والتاسع ولا يبعد هذا القول من بعض الغلو كما سيأتي .

« وزاد المستشرق الشهير نُلدكه ان صاحب هذه المقاطيع التي نحن في صددها كان راهباً ولم يورد لقوله بيّنة . امــا وطنه فهو سورية لان مدار كل اخباره على أمور لا تتجاور قطر الشام وفلسطين ، ولا بدع فان المؤلف كان مارونياً ، والدليل على ذلك انه يقابل بين اليعاقبة وانصار مارون فيصف الاولين بنعوت تشعر باستيائهِ منهم ونفوره عن تعاليمهم ويظهر ميله الى الموارنة ويرتاح الى تعاليمهم ، وهو مع ذلك كاتب ثقة صادق يظهر صدق قوله اذا قوبلت عدة امور اوردها مع ما كتبه غيره من المؤرخين المعاصرين له .

« وألطف ما جاء في هذه المقاطيع التي صبرت على فتك الدهر قصة جدال عنيف جرى في سنة ٩٧٠ لليونان (= ٦٥٨) في مجلس الخليفة معاوية بين اليعاقبة والموارنة . وهــذا نصه معرباً : « في سنة ٩٧٠ وهي ١٧ من ملك قسطنط الثاني في شهر حزيران . . . أتى اسقفا اليعاقبة تاودورس (نظن انه بطرك اليعاقبة الذي ذكره ابن العبري في تاريخه الكنسي ج ١ ص ٢٧٩ « ed. Lamy » ولم يدعه المؤلف بطريركاً لانه من البدعة اليعقوبية) وسبوخت (والمرجح انه اسقف قنسرين الذي ورد اسمه في التاريخ

الشمالي اولاً ثم نواحي البترون فجبيل[١]، فلم تتم الا في اواسط القرن التاسع، وعلى مراحل متعددة[٢]، وذلك بسبب المغايرة الشديدة بينهم وبين اليعاقبة الذين كانوا اقوياء جداً[٣] وبسبب اضطهاد الاسلام للموارنة في منبج وحلب وسواها[٤].

ولما استقر الموارنة في لبنان، جعلوا من جباله الشماء حصناً للمسيحية في الشرق، وحوّلوا صخوره الصلدة الصماء الى تربةٍ صالحة، وجنائن غناء، بصبرهم الطويل[٥].

وفوراً بدأوا بتنظيم عباداتهم[٦] لاننا نراهم يملكون في اواسط القرن الثامن وقبله عدة كنائس في لبنان، منها كنيسة مار ماما في اهدن المبنية سنة ٧٤٩ مسيحية، كما اثبت العلامة الدويهي والاب لامنس اليسوعي[٧].

---

(١) أنظر المطران بطرس صفير في الموضع نفسه، ص ١١٦، والمشرق في سنتها الرابعة، ص ٧٢٨، ١٠١٨.

(٢) أنظر الاب هنري لامنس في كتابه عن لبنان، ص ٥١-٥٣؛ والمطران ديب، ص ١٧٠، ولاسيما ص ٥٤، حيث يثبت اعتقاد الموارنة الكاثوليكي القويم من اقوال المؤرخ التلمحري.

(٣) أنظر المطران بطرس صفير في الموضع والصفحة نفسها، حيث يثبت قوة اليعاقبة من عظمة ديرهم الذي كان، في جهات آفامية ايضاً، يضم حوالي ٦٣٠٠ راهب مستنداً في ذلك الى اقوال المؤلف شابو في كتابه: Chabot, La légende de Mar Bassus et de son couvent à Apamée, p. 55, 60, 63.

(٤) أنظر المؤرخ ديونيسيوس التلمحري في: «Chronique de Michel le Syrien» طبعة الاب شابو، ج ٢، ص ٥١١، (راجع المطران بطرس صفير، ص ١١٦)؛ وانظر ايضاً المشرق في سنتها الثانية، ص ٢٦٧؛ وسنتها الخامسة، ص ٦٦٣.

(٥) انظر المؤلفين: Jerôme et Jean Tharand، في كتابهما المعروف باسم «طريق الشام» المطبوع في باريس سنة ١٩٢٣، ص ٤١ — ٤٢.

(٦) راجع المطران ديب في الموضع نفسه، ص ١٧٠.

(٧) راجع المصدر نفسه، ص ١٧٢.

وكان الموارنة يعتقدون انهم بهجرتهم هذه الى جبال لبنان يتملصون من الاضطهادات التي كانت تثار عليهم ، وينعمون بالسلام . ولكن خاب ظنهم ، ولم ينالوا السلام الا في اوقاتٍ متقطعة ، بسبب فتوحات العرب واضطهاد العباسيين لهم [١] .

وقد اثبت سيادة المطران بطرس صفير ، في النبذة التاريخية التي اضافها الى كتابه « القداس الماروني » [٢] ، ان الموارنة وجدوا في لبنان يوم هجرتهم اليه مسيحيين كثيرين كانوا يتكلمون اللغة السريانية ، فاكَّد ، استناداً الى الوقائع التاريخية [٣]، ان رهبان القديس مارون هم الذين جاؤوا قبل الموارنة الى لبنان وبشروا سكانه بالانجيل وضموهم اليهم [٤] .

٧ً ـ القديس يوحنا مارون البطريرك الانطاكي الماروني الاول :

ومن بين هؤلاء الرهبان المنتمين الى دير القديس مارون والذين كانوا يدعون خلقيدونيين ، لمدافعتهم عن تعاليمه الكاثوليكية ، القديس يوحنا مارون ، الذي صار اول بطريرك على الطائفة المارونية وخليفة تاواقان البطريرك الانطاكي عام ٦٨٥ ، بعد فراغ طويل جداً لكرسي انطاكية من بطريرك شرعي يجلس على اريكتها [٥] . وكان القديس

---

(١) أنظر كتاب « سورية » للاب هنري لامنس ، ج ٢ ، ص ١٦ .

(٢) « La Messa Siro-Maronita » ص ١١٧ .

(٣) مجموعة اباء اليونان ، لمين ، فصل ٨٢ ، عمود ١٤١٩ و ١٤٢٨ ؛ والسمعاني الشهير في الجزء الاول من مكتبتهِ الشرقية ، ص ٢٣٩ .

(٤) أنظر النبذة التاريخية في اصل الطائفة المارونية ، للمطران دريان ، المطبوعة سنة ١٩١٩ ، ص ٣٤ — ٤١ .

(٥) انظر المطران بطرس صفير ، في الموضع نفسه ، ص ١١٩ — ١٢٠ .

وجاء في مختصر تاريخ سنة ٤٠٧ للمؤرخ بارونيوس[١] « ان الموارنة دعوا كذلك نسبةً الى قائدهم الباسل الذي ناضل عن ايمان المجمع الخلقيدوني ، والى جماعته الوافرة العدد التي كانت تتشبث بالدفاع عن دين الحق ومعتقدات المجامع المسكونية . »

« وربّ سائل يقول لماذا سُمّيت هذه الطائفة مارونيةً نسبة الى مارون ، وابن الكنيسة لا يسوغ له ان يُنسب الى شخصٍ ما وانما يدعى مسيحياً ليس الا ؟ فنجيب بان هذه التسمية كانت اول الامر للرهبان كما ذكرنا . فان القديس مارون كان اباً لرهبانية عظيمة فانتسب الرهبان اليه . وتلك سنَّة دارجة في البيعة بان كل طريقة رهبانية تعزى الى منشئها، فلما دبَّت عقارب البدع في الاطراف السورية طفق هولاء الرهبان يحرّضون الشعب على الاعتصام بالامانة الكاثوليكية الصحيحة ، فمن تبعوهم لم يبقَ لهم رئيس يرجعون اليه الا الرهبان المشار اليهم ومن ثم دعوا موارنة . فسرّوا بهذا الاسم لما فيه من الذكر الدائم للقديس مارون[٢] . »

فتكون النتيجة الحتمية من كل ما تقدم ان الموارنة هم الذين التفوا حول رهبان مارون الناسك في نواحي آفامية ، يخضعون لهم في كل امورهم الدينية ، ويلجأون اليهم في شؤونهم الزمنية ، مستوضحين

---

(١) وقد ذكره العلامة الدبس في الجامع المفصّل ص ١٧ حيث قال : « نذكر ايضاً شهادة الاب بريسيوس الكبوشي في مختصر تاريخ بارونيوس في الحاشية على تاريخ سنة ٤٠٧ حيث قال : وقد سمي باسم هذا القديس لا ابناوه الرهبان فقط بل جمهور وافر العدد ايضاً قد انبعوا في تلك الاصقاع دين الحق . . . وتحرير هذا هو ان اسم موارنة اطلق اولًا على الرهبان الذين تتلمذوا للقديس مارون ثم اطلق خصوم رهبان مارون هذا الاسم على من تبع رأي هولاء الرهبان ورأى ابيهم القديس مارون وهم لم يأنفوا من هذا الاسم بل رسخ فيهم ولاسيما عندما انفصلوا عن أُولي البدع . »

(٢) انظر كتاب المحاماة المذكور ص ٤٨٠ — ٤٨١ .

عما يضايقهم به المارقون من الدين ، ويناوئهم فيه الملحدون ، [١] معتبرين رهبان دير مار مارون كجنودٍ بسّل وكماة فاتحين ، ورؤساء الاديار كقادةٍ غُيُر ماهرين ، واديارهم كقلاعٍ حصينة يتمنّعون فيها وقت الضيق والحروب والمحن ، وقد انتسبوا اليهم ودعوا باسمهم « موارنة » ، اكراماً لمارون ، وافتخاراً بفضائله ، واعزازاً لذكرى رهبانه واديرتهم ، وما يزال الشعب الماروني الى يومنا هذا يلقب ، بفخر ، باسم القديس مارون ورهبانه الذين من اجل ايمانهم القويم والدفاع عنه قتل منهم ٣٥٠ شهيداً ، بسعي زعيم المونوفيزيين ساويروس [٢] الذي اختلس مقام البطريركية الانطاكية بمعونة الملك انسطاس حوالى سنة ٥١٧ ، كما تشهد بذلك اعمال المجمع الخامس الذي عقد في القسطنطينية عام ٥٣٦ [٣] وما تقدم من البيّنات الثابتات .

٦ً ـ هجرة الموارنة الى لبنان :

اما هجرتهم من تلك الاراضي الخصبة ، وانتقالهم الى جهات لبنان

---

(١) انظر الجامع المفصل ص ١٥ — ١٧ ، والمطران ديب ص ٤٢ — ٤٥ و ٥١ — ٥٢ ، حيث يذكر المخطوط السرياني الذي اكتشفه العلامة رَيت في متحف لندره سنة ١٨٧١ تحت رقم ٥٧٢ ، ص ٤٥٠ — ٤٥٤ ، وهذا عنوانه : « N. Wright, Catalogue of syriac mss. in the British Museun ».

(٢) ان ساويروس هـذا بعد ان نجح بمعونة الملك وامداداته في طرد بطريرك انطاكية الشرعي افلابيانوس ، جلس مكانه واخذ يبث تعاليمه الضالة ، مجاهراً بحرم البابا لاون والمجمع الخلقيدوني ، وكان جوهر تعاليمه ان في المسيح طبعاً واحداً ، (راجع دريان في اللباب ص ٢٣ ، وفي الجراجمة ص ٣٣ .)

(١) أنظر المطران جراسيموس مسرة عن المجامع ، ص ٢١٧ .

٥ً _ انتشار الطائفة المارونية ونسبتها للقديس مارون :

وبعد ان تكوّنت الطائفة المارونية على ضفاف العاصي ، في تلك السهول المخصبة الجميلة ، اخذت تمتد من نهر الاورونت الى كل سورية الثانية ، والى حمص وحماه وشيزر وجوارها ومعرة النعمان [١] ومنبج وقنسرين والناحية المعروفة بالعواصم [٢] ، والى حلب والقورشية كما يستدل من كلام المؤرخ تاودوريطوس المشار اليه ، والى انطاكية وجوارها [٣] والرها [٤] ودمشق [٥] وجبل اللكام [٦] ، والى ما وراء دجلة ايضاً [٧] . وكانت تسمَّى مارونية نسبةً الى مارون القديس ورهبانه وديره العظيم الطائر الشهرة كما اسلفنا .

---

(١) كما يذكر المسعودي في الموضع نفسه ١٥٣ ، انظر الاب هنري لامنس في كتابه عن لبنان ج ٢ صفحة ٥٠ ، والمطران بطرس صفير في الموضع نفسه صفحة ١١٥ .

(٢) كما يشهد ابن العبري في كتابه « التاريخ البيعي » ج ١ صفحة ٢٧٠ – ٢٧٤ ، وج ٢ صفحة ٤٩٢ – ٣٩٥ ، وابن البطريق البطريرك الاسكندري المشاق كما جاء في مجموعة اباء اليونان ، ج ١١١ عمود ١٠٧٧ ، للاب مين (Migne).

(٣) كما جاء في رسالة رهبان القديس مارون الى اليعاقبة التي اكتشفها الاب ناو المذكور اعلاه ، سنة ١٩٠٣ ، صفحة ٩٧ .

(٤) كقول ابن العبري في تاريخه المذكور ، وفي كتاب « تاريخ الدول » صفحة ٢١٩ وفي معرض كلامه عن تاوفيل الرهاوي الماروني كما سيجيء ذكره .

(٥) كما يؤخذ من كتابة اكتشفها العالم الالماني نلدكه (Noldeke) في كتاب سرياني قديم العهد ونشرها في المجلة الاسيوية سنة ١٨٧٥ ، صفحة ٤٢٣ ، في الحاشية ، راجع المطران بطرس صفير في الموضع نفسه صفحة ١١٢ .

(٦) كما يذكر اليعاقبة في فقرة سريانية نقلها العلامة الدويهي واثبتها في الجزء الاول من تاريخه عن اصل الطائفة .

(٧) كما يروي الاب لامنس اليسوعي نقلاً عن ريكلدو دي مون كروا ، واثبت ذلك في مجلة المشرق ، سنة ١٩٠٣ ، صفحة ١٦٩ ، وفي كتابه عن لبنان ج ٢ صفحة ٢٩ و ٥١ – ٥٢ ، (انظر ريكلدو في كتابه :
Peregrinationes Medii Aevi quatuor, ed. Laurent, 1873, p. 126).

وقد منح البابا بنديكتوس الـ ١٤ ، في براءته المؤرخة في ١٢ آب سنة ١٧٤٤ ، غفراناً كاملاً لكل من يزور كنيسة من كنائس الموارنة الذين يحتفلون في اليوم التاسع من شهر شباط كل سنة بعيد ابي الطائفة وشفيعها القديس مارون الناسك[١] .

وقد كتب هذا البابا العلامة في ١٢ آذار سنة ١٧٥٥ رسالة الى البطريرك الماروني سمعان عواد يقول فيها : « لا نشك مطلقاً بان قاصدنا الاب ايزيدوروس قد حقق لاخوتك كم لنا من الغيرة والمحبة لك ايها الاخ المحترم وللاخوان المطارين الموقرين وسائر الابناء الاعزاء بني ملتك الجليلة وللطائفة المارونية جمعاء التي تفتخر باقرارها الدائم بانها اخذت عن القديس مارون خصوصاً الايمان الكاثوليكي ، وان ثباتها فيه ونموه فيها هو من نتائج تشفعه بهم »[٢] .

وقد ذكر العلامة المدقق لكويان (Le Quien) ان الموارنة دعوا بهذا الاسم انتساباً للقديس مارون حيث يقول : « تلقب الموارنة بهذا اللقب في القرنين الرابع والخامس نسبةً الى العظيم مارون الكلي القداسة . ومن الغريب ان يكون هذا الاسم مشعراً ببدعة ، بل بالعكس انما يدل على المعتقد الكاثوليكي المناقض لبدعتي النساطرة والقائلين بالطبيعة الواحدة في المسيح الاله ، اذ كان يتقاطر الى دير القديس مارون كل من كان همهُ في حفظ وديعة الايمان الكاثوليكي ، فيرشدهم الرهبان الى الدين القويم والثبات فيه »[٣] .

---

(١) انظر الدبس في الجامع المفصل . . . ص ١٢٩ .

(٢) انظر الجامع المفصل ايضاً ص ١٦ ، وايضاً ص ١٢٠ — ١٢٩ حيث نشرت براءة البابا ورسالته بهذا الشأن بالعربية .

(٣) انظر لاكويان في كتابه « الشرق المسيحي » في الفهرست الملحق بالمجلد الثالث المطبوع ١٧٤٠ . وراجعه في الجامع المفصل . . . ص ١٦ — ١٧ .

كما اثبته العلامتان المطرانان بطرس ديب اسقف القاهرة في كتابه الفرنسي [١] ، والمطران بطرس جواد صفير في كتابه الايطالي [٢] .

٣ً _ رهبان القديس مارون :

وظل رهبان القديس مارون يزدادون عـــدداً ويكثر اتباعهم والمتعظون بهم حتى بلغوا ثماني مئة راهباً [٣] ، وقد اقاموا لهم جملة اديار يأوون اليها ، ويعيشون فيها ، كما انهم شادوا مجالس المتوحدين ومدارس لاقتباس العلوم ، ومنازل للفقراء ، واقتنوا حقولاً ومزارع لتقوم بأود الرهبان والمتنسكين وغيرهم . وما كانوا ينقطعون عن العالم لخدمة الله وتخليص انفسهم ، بل كانوا يطوفون المدن والقرى ويجولون في المزارع منادين بكلام الله ، مبشرين بالسلام ، مناضلين

الشهير رَيت (Wright) انه كتب ما بين القرن التاسع والعاشر مستدلاً على ذلك من الخط ، ومن الحاشيتين المكتوبتين فيه، واحداهما نبيّن اسم الرجل الذي كتبه سنة ٥١٨، وهو يدعى مركيس، والراهب الذي اشتراه لاخوته ليحفظوه في مكتبة دير مار مارون سنة ٧٦٥ للمطالعة . والثانية تبين ان هذا الدير خرب في القرن التالي اي في اواسط القرن التاسع كما استدل منها الاب ناو المذكـور وأثبت ذلك في كتابـه المطبوع في باريس سنة ١٩٠٣ صفحة ٣٤٦. (وقد ذكره المطرانان ديب وصفير في كتابها، الاول في صفحة ٤٤ و ٤٨ والثاني في صفحة ١١١ ، والمطران دريان في لبابه صفحة ٣٦ ، وفي الجراجمة صفحة ٣٧ ، والمطران الدبس في كتابه الجامع المفصّل صفحة ٢٥) .

(١) انظر L'Eglise Maronite, t, I, Paris, 1930 صفحة ٤٦ — ٤٩

(٢) طالع La Messa Siro-Maronita, Roma, 1946 صفحة ١٠٩ — ١١٢.

(٣) انظر المخطوطات السريانية المحفوظة في المكتبة الاهلية في باريس صفحة ٩٧، رقم ٢٠٣ ، وقد طبعه حضرة العالم الاب فيليب السمراني في مجلة « المنارة » سنة ١٩٣٦، عددها السابع صفحة ٩٧ .

عن الايمان ، محببين الفضائل الى القلوب ، مبغّضين الناس بالرذائل والكفر بالدين ، ومـــا فتئوا يحاربون اصحاب البدع وذوي المفاسد ولاسيما النساطرة وتباع ساويرس والاوطاخيون بكتاباتهم ومواعظهم التي كانوا يلقونها عليهم في كل المناسبات لحفظ الايمان سليما [١] .

٤ً ـ منشأ لقب الموارنة :

فالموارنة اذاً اتخذوا هذا اللقب من صفي الله القديس مارون ورهبانه [٢] ومن الدير المشهور المشيد على ضفاف العاصي [٣] . وباقتفائهم آثار هولاء الرهبان تمكنوا من المحافظة على المعتقد الكاثوليكي طاهراً نقياً من كل دنس . « على ان هذا اللقب لم يكن في الزمن القديم يدل على طائفة بعينها ، بل كان يدل على جماعة المؤمنين ، وذلك على تلقيب منكري رئاسة البابا للكاثوليكيين في هذه الايام بالبابويين استهزاءً وتهكماً ، ولقب باباويين كما هو معروف لا يختص بامـــة كاثوليكية دون اخرى ، بل لفظ شائع يتناول كل من هم تحت طاعة الحبر الروماني » [٤] .

---

(١) انظر الجامع المفصل للمطران الدبس صفحة ١٤ — ١٥ .

(٢) انظر الاب هنري لامنس في المشرق ، السنة السادسة صفحة ١٣١ ، والمطران بطرس صفير في الموضع نفسه ، ١١٥ .

(٣) راجع كتاب المحاماة المذكور صفحة ٨٢ و ١٠٥ و ١١٤ و ١٢٤ ، والمطران ديب صفحة ٤١ — ٤٩ ، والاب هنري لامنس في كتابه عن لبنان مج ٢ صفحة ٩٠ — ٩١ ، وسلسلة البطاركة للدويهي المخطوطة والمحفوظة في الواتيكان تحت رقم ٢١٥ صفحة ١٤ من القسم السرياني .

(٤) انظر الخطاب الجدلي الذي وضعه الطيب الذكر المطران عواد السمعاني المطبوع في رومـــا ، دفاعاً عن قداسة البطريرك الاول يوحنـــا مارون سنة ١٧٦٩ ، والمعرّب والمنشور في كتاب المحاماة صفحة ١٢٦ .

وهو من كتبة القرن العاشر للميلاد ، ما مؤداه : « كان للقديس مارون دير عظيم يُعرف به شرقي حماة وشيزر [١] ذو بنيان عظيم ، حوله اكثر من ٣٠٠ صومعة ، فيها الرهبان ، وكان فيه من اواني الذهب والفضة والجواهر شيء كثير ، فخرب هذا الدير وما حوله من الصوامع بتواتر الفتن من الاعراب وحيف السلطان ، وهو يقرب من نهر الاورونت (العاصي) نهر حمص وانطاكية » .

وقد جاء في الردّ المنظوم للبطريرك المدقق بولس مسعد [٢] ان

(١) ان شيزر التي يذكرها المسعودي هنا هي على رأي المطران دريان (في لبابه صفحة ٣٦) ، شيجر الحالية ، وموقعها في نصف الطريق بين حماه وآفاميته التي هي اليوم قلعة المضيق على نهر العاصي . راجع كتاب المطران بطرس ديب المذكور اعلاه صفحة ٤١ حيث يذكر العالم الفرنسي ناو (Nau) في كتابه « Opuscules Maroni-tes, II partie, Paris, 1900 » صفحة ٢٠ – ٢٥ ، والاب هنري لامنس اليسوعي في كتابه عن لبنان المطبوع في بيروت سنة ١٩١٤ مج ١ صفحة ١١٨ ومج ٢ ص ٨٤ .

ومما يجدر التنبيه اليه ان هذا العالم الفرنسي ناو قد اكتشف اخيرًا اي سنة ١٩٠٣ خلال مطالعاته وتنقيباته في متحف لندره أثرًا خطيًا ذا قيمةٍ تاريخية عظمى ، نشره في مجموعة « الآثار المارونية » جاء فيه ان دير القديس مارونٍ كان بالقرب من آفاميا في وادي العاصي ، وهي التي تدعى اليوم « باب المضيق » مما ازال كل محل للريب في صحة تحديد موقع هذا الدير الذي بلغ شأوًا بعيدًا من العمران والازدهار في اوائل القرن السادس . تشهد بصحة هذا رسالةٌ كتبها رهبان دير مار مارون في سنة ٥١٧ الى البابا هرمزدا ، ممهورةٌ بامضاء راهب يدعى اسكندر ، رئيس دير مارون يشكو كثرة الاضطهاد وشدته من قبل المونوفيزيين ، وجواب البابا عليها ، وهذا كله مذكور في مجموعة اعمال المجامع لمنسي (Mansi) في المجلد الثامن عمود ٤٢٥ – ٤٢٩ ولاسيا عمود ١٠٢٣ – ١٠٣٦ . يشهد بذلك ايضًا ما جاء في ذيل المجمع القسطنطيني المنعقد في سنة ٥٣٦ برئاسة البطريرك ميناس الذي حضره راهب عن دير مار مارون يمثل كل اديار سورية الثانية باسم بولس (راجع مجموعة منسي في الموضع نفسه عمود ٨٨١ ، ٩١١ ، ٩٢٩ ، ٩٤٠ و ٩٥٣ ، وانظر ما نشره بهذا الصدد العلامة المدقق المطران بطرس صفير في كتابه « القُداس الماروني » بالايطالية ، صفحة ١٠٩ – ١١٠ »

(٢) صفحة ١٣١ ، راجع ذلك في الجامع المفصَّل للمطران الدبس ، صفحة ٣١ .

دير القديس مارون على العاصي الذي حرقه اشياع ساويروس بأمر الملك انسطاس الاول ودكّوا اسواره انتقاماً منهم ، قد جدّد بناءه الملك يوستينيانوس الكبير كما ذكر المؤرخ بروكوب القيصري الكبادوكي [١] في معرض كلامه عن الابنية القديمة التي رمّمها او جدّدها الملك المذكور .

وبروكوب هذا ، كقول المثلث الرحمة المطران يوسف الدبس [٢] ، كان معاصراً للملك يوستينيانوس الكبير الذي ملك زهاء ٣٨ سنة ، وكاتباً لباليصار قائد جيشه ثم والياً في العاصمة . فهو اذاً شاهد عيان ، وشهادته حقيقية ، وهي تدل على ان هذا الدير كان مفخرة الاديار واعظمها شأناً ومقاماً في كل سورية الثانية [٣] .

وكان هذا الدير مزدهراً ايضاً في عهد بطريرك اليعاقبة التلمحري الذي توفي سنة ٨٤٥ ، لانه في ذاك العهد « ظل الموارنة يرسمون اساقفة من بين الرهبان التابعين لهذا الدير » كقول التلمحري نفسه في تواريخه [٤] .

وبقي هذا الدير قائماً فيه الرهبان الى اواسط القرن التاسع [٥] ،

---

(١) انظر تاريخ الابنية القديمة ، ك ٥ ف ٩ .

(٢) انظر الجامع المفصل في تاريخ الطائفة المارونية المؤصل للدبس ، صفحة ٢٥ .

(٣) انظر كتاب « القداس الماروني » باللغة الايطالية لصاحب السيادة المطران بطرس جواد صفير ، صفحة ١١٠ — ١١٤ ، وكتاب « الكنيسة المارونية » بالفرنسية للمطران بطرس ديب صفحة ٤٧ .

(٤) انظر Annales de D. Tell-Mahré dans la Chronique de Michel le Syrien, ed. Chabot, t. II, Paris, 1901, p. 511.

(٥) كما يستدل على ذلك من الآثار التاريخية الباقية للآن ، ومن جملتها المخطوط الاثرى الذي اكتشفه الاب ناو المشار اليه ، والذي ارتأى ، العلامة الالماني والمستشرق

وكان ذلك الجبل على ما روى المؤرخ تاودوريطوس اسقف قورش (+ ٤٥٨) معاصر القديس مارون [١] هيكلاً للابالسة والضلال فكرّسه مارون للرب ونصب فيه مظلةً صغيرة لم يكن يأوي اليها إلا نادراً ... وقد انعم الله عليه بموهبة الشفاء عن فيضٍ غزير حتى ذاع صيته في كل الاصقاع ، واستجلب الناس اليه من كل الانحاء » .

وكان بين القديس مارون والقديس يوحنا فم الذهب معرفة وصداقة، فكتب هذا اليه من منفاه في كوكوزا (Cucuse) من بلاد ارمينية حوالى سنة ٤٠٥ رسالة [٢] يصف فيها علاقات المودة التي تربطهما معاً برباطها المقدس ، ويطلب اليه ان يذكره بصلاته ، ولا يقطع عنه اخباره لانها مجلبة للسرور والتعزية في الغربة .

وقد ذكر تاودوريطوس المؤرخ القديس مارون في تراجم بعض تلاميذه مشفوعاً بافخم الاوصاف واشرفها ، فدعاه في سيرة القديس يعقوب (ف ٢١) بمارون الاسمى ، وفي سيرة تلاسيوس (ف ٢٢) بمارون العظيم ، وفي سيرة دومنينـــا (ف ٣٠) بمارون الالهي الخ

---

(١) راجع مجموعة الآباء اللاتين ، مين ، مج ٨٢ عمود ١٤١٨ و ١٨٣١ فصل ١٦ و ٢١ من كتاب الاسقف المعروف بتاريخ سير الآباء . وانظر ذلك ايضاً في لباب البراهين للمطران دريان صفحة ١١ وما يليها حيث يقول عن تاودوريطوس انه ولد في اواخر القرن الرابع للمسيح في انطاكية حيث اتقن العلوم اللاهوتية ، وجُعل اسقفاً على قورش سنة ٤٢٣ ، ومات بعد انعقاد المجمع الخلقيدوني ببضع سنوات . ويقول ان قورش حاضرة لمقاطعة جبلية في سورية تنسب اليها وهي على بعد ٧٥ كيلو متراً من مدينة حلب الى الشمال .

(٢) وهي السادسة والثلاثون من رسائلِهِ المشهورة ، ولا تزال للآن محفوظـة في مجموعة الآباء اللاتين للاب مين مج ٥٢ ، عمود ٦٣٠ ، راجعها في لباب البراهين مترجمةً الى العربية في صفحة ١٣ - ١٤ ، وفي تاريخ الكنيسة المارونية للمطران ديب صفحة ٤٠ حيث يثبت من كلام القديس يوحنا فم الذهب نفسه ان مارون كان كاهناً ومرشداً للنفوس

لجلائل الاعمال الباهرة ، وعظائم الافعال النادرة التي كان يأتيها ليل نهار [١] .

وقد تتلمذ له بعض اهالي القورشية ، وساروا على خطته ، واذاعوا اعماله في كل مكان . وفي حوالي سنة ٤١٠ ادركته المنية [٢] مأسوفاً عليه شديد الاسف ، « وحصل نزاع شديد بين اهل الجوار على جسمانه فجاء اهل البلدة الاقرب للمكان والاكثر عدداً واستولوا عنوةً عليه ، وبنوا له عندهم هيكلا فخماً جداً » كما قال المؤرخ تاودوريطوس المذكور [٣] .

٢ً ـ دير القديس مارون

ثم بُني في جوار هذا الهيكل دير معروف باسمه ، وذاع صيته في كل زمان [٤] ودعي باسم « دير القديس مارون ورهبانه » وذلك في القرن الخامس . وقد قال عنه المسعودي [٥] المؤرخ العربي الشهير ،

---

(١) راجع اللباب للمطران دريان صفحة ١٣ في الحاشية .

(٢) كما قال الاب روزيدوس اليسوعي في وصفـهِ لكتاب تاودوريطوس الذي اودعه ترجمة هذا القديس وسيرته : انظر كتاب المحاماة صفحة ٤٦٦ ، ولباب البراهين في الحاشية صفحة ٢٠ ، والمطران بطرس ديب صفحة ٤١ .

(٣) انظر الموضع نفسه عمود ١٤١٩ ، وراجع المطران بطرس ديب صفحة ٤١ .

(٤) انظر كتاب المحاماة المذكور صفحة ١٢٣ ، والنبذة التاريخية للمطران يوسف دريان صفحة ٤٣ ، واللباب له ايضاً صفحة ٢٢ — ٢٨ . وقد جاء ذكر هـذا الدير في مجموعة اعمال المجمع القسطنطيني المعقود عام ٥٣٦ كما سيجيء ، راجعه في كتاب المحاماة المشار اليه في الموضع نفسه .

(٥) في كتابهِ « التنبيه والاشراف » صفحة ١٥٣ كما في اللباب صفحة ٣٥ . وانظر كتاب (الملكية والمارونية) الذي نشرناه في مطبعة حلب سنة ١٩٤٤ صفحة ٣١ .

قال العلامة جورج غراف في كلامه عن القسم الثاني من الفصل الـ ٢٥ من الهدى[١] ما مؤداه : « يصعب كثيراً احتمال تنظيم سلسلة للبطاركة عند الموارنة خلال القرن العاشر » . وكلامه هذا مبهم غامض لو لم يكن قد سبق فقال ، في معرض شرحه للفقرتين الواردتين في الهدى[٢] عن المشيئات في السيد المسيح « ان الموارنة ، وان حاولوا الانعتاق من وصمة الهراطقة المونوتيلية (اي المشيئة الواحدة) التي تلطخوا بها في القرن الحادي عشر ، لن تقوى براهينهم التي يعتمدونها ، ولا تحليلاتهم التي يخترعونها ، ولا كثرة المؤرخين الذي ذكرهم حضرة الاب فهد في الهدى ، على نفي هذه الاقوال عنهم ، لان مؤلف الهدى الماروني قد صرّح في كتاب الهدى نفسه[٣] باعتناق هذه البدعة . »

فنحن تجاه هذا الاعتقاد الذي أعلنه غراف في دراستهِ ، مستنداً الى العالم بومسترك الالماني الذي كان استند الى تاريخ غليلموس اسقف صور اللاتيني ، وهذا الاخير استقى براهينه من سعيد بن البطريق كما سيأتي الكلام ، تجاه ذلك لا نستطيع السكوت ، لان السكوت في مثل هذا الموقف جرم كبير ، بل نحاول تفنيد هذه الاقوال والاسانيد التي اعتمدوا عليها ، مبينين ان الموارنة ، على تمادي الاجيال والعصور ، منذ نشأتهم الى يومنا هذا لم يسقطوا في الهرطقة مطلقاً ، بل كانوا يفخرون بمعتقدات المجمع الخلقيدوني الرابع ونصرتهم له ، وباتصالهم بالكرسي الرسولي المقدس ، وايمانهم بما تعتقده الكنيسة البطرسية الجامعة ، فاستحقوا ان يكنّي احبار روما الاعظمون طائفتهم بالوردة بين الاشواك . ولنفي التهمة الباطلة عن الموارنة ، لا بدّ لنا هنا من كلمة

---

(١) ص ٢٣٥ -٢٤٩ .

(٢) ص ٣٨ ، وسيأتي الكلام عن هذا الموضوع مفصلاً باسهاب .

(٣) انظر الموقع نفسه صفحة ٣٢ ، ٣٨ ، ٤٦ .

وجيزة عن نشوء الطائفة المارونية منذ عهد مؤسسها . فنقول ، أولاً ، وعلى الله الاتكال :

١ً — حياة القديس مارون

هناك بجوار نهر (الاورونت) العاصي في نواحي آفاميا من سوريا الثانية ، ولد القديس مارون الناسك ابو الطائفة المارونية وشفيعها وحامي ذمارها من ذئاب الضلال وزبانية ابليس ، وذلك في غرة القرن الرابع للمسيح [١] ، وعلى رأي بعض الافرنج في سنة ٣٥٠ [٢] .

ومما لا ريب فيه ان ابويه كانا مسيحيين بدليل انهما ربّياه بأدب الديانة ، ومرناه على العبادة ، ولما بلغ سن الرشاد دفعاه الى احدى مدارس انطاكية ليتأدب بخوف الله ، ويقتبس العلوم ، فأفضت به هذه التنشئة المسيحية الى ان صار كأنه ليس من الصبيان اترابه ، متميزاً عنهم باخص صفات التهذيب والادب ، وكانت يد الله معه . وفي عام ٣٧٥ غادر العالم الى البرية متبعاً الطريقة النسكية ، كما روى باجيوس في تاريخه المشار اليه [٣] . فتنسك على قمة قورش ، احد الجبال المجاورة لوطنهِ ، لاشتهار تلك النواحي بوفرة النساك والمتعبدين في الاعصر الخوالي ، كما تدل الآثار التاريخية .

---

(١) انظر تاريخ الكنيسة المارونية للمطران بطرس ديب صفحة ٣٩ ، ولباب البراهين الخ للمطران دريان صفحة ١٥ .

(٢) ومن هولاء المؤرخ باجيوس الراهب الفرنسيسي في بحثه في تواريخ بارونيوس لسنة اربعمائة للمسيح ، وليس لهذا القول اي مستند تاريخي اكيد ، راجع دريان في الموضع نفسه .

(٣) انظر كتاب المحاماة عن الموارنة وقديسيهم للمرحوم المدبر افرام حنين الديراني ، صفحة ٦٦٠ وما يتبع .

في ديوان كنيسته المقدسة يضاد فيها كل مكثري الفضول ... »[١].

وبعد هذا التعظيم الذي يخص الكفرطابي به نفسه ، نأتي بكلام المطران داود مترجم الهدى الذي يستصغر نفسه كثيراً امام الترجمة ويستصعبها ويقول انه غير اهل لها ، ولولا المحبة والغيرة التي يحفظهما لخرافهِ لما كان اقدم على صناعةٍ ليس له فيها مقدرة مع ان الحقيقة ان المطران داود كان على جانب عظيم من العلم وسعة الاطلاع والتضلع من اللغتين كما يشهد كتاب الهدى نفسه على الرغم ممـا اعتوره من التحريف والتصحيف والنسخ على تمادي الاعوام . فقد قال في الصفحة الخامسة ، مخاطبا القس يوسف الذي الحّ عليه بنقل الكتاب الى العربية ، وكان قد تأخر عليه بالجواب ، ما يلي :

« فاما تأخيرى بالجواب فالرب سبحانه يعلم ان ذلك لم يكن على وجه العجز ولا التواني فيما سألت فيه ، ولا على وجه الكسل والتفريط فيما التمسته ، حاشا من ذلك ، الا انه لما تأملت الذي سألتَ فيـه ورأيت جلاله وعظيم قدرته ، فنظرت الى انحطاط منزلتي وصغر قدر نفسى عندي وفساد ذاتي ، فخرجت على ان اتناول صناعةً لست انا لها باهل ، وخشيت ان ينحطّ قـدر جوهر الكلام الالهي الذيذ الذي سألت في نظمه ، من سوء صناعة فكري ، فاكون بمنزلة من تعرض لخدمة الملك العظيم القدرة وهو ذميم حقير ، فكان ذلك مما يدخل العار على الملك لاستخدامه من ليس هو بأهل ، فهـذا الفكر الذي قطعني عن التوصل الى بلوغ غرضك ودعاني الى تأخير الجواب عنك الى وقتنا هذا . . . فلما تبينت المحبة الالهية الساكنة فيك على ما هي

---

(١) انظر لباب البراهين للمطران دريان ص ٢٥٣ - ٢٥٩ ، والمنارة سنة ١٩٣٦ ص ٣٤٧ ، وما يليها .

عليه ... دعاني الفكر الصالح الى ان ارتقيت الى منزلة هي اشرف من تلك المنزلة الاولى التي انزلني فكري الاول اليها ، وقلت : ان كان الراي الاول اوجب الى التواضع والتصاغر فان هذا الراي الثاني يدعوني الى الطاعة ، والاستماع الذي هو باب الحياة واصل الديانية... والآن فالمحبة الالهية الساكنة فيك ايها الاخ الروحاني استمعت ، وطعت معتقداً ان الله تقدس اسمه قادر ان يمدّ مسكنتي بالمعونة من رحمته وتوكات على صلاتك وصلاة الاخوة المباركين المقبولة التي يقدر الله سبحانه ان يعطي بها قوة لضعفي ، وثباتاً لخشيتي ، وحكمة لجهلي ، وادراكاً لعجزي كما قال الرب في الانجيل الطاهر : ان كل عسر عند الناس فانه سهل متيسر عند الله الذي له السبح الى دهر الداهرين [١] . »

فمن مجرد الوقوف على هذين الفصلين اللذين يختلفان لغة واصطلاحاً وتعبيراً وعقيدةً الخ ، يحكم بصواب رأينا وصدق ما قلناه ، وبفساد الرأى المخالف . وهذا كافٍ على ما نعتقد . ومن اراد الاستزادة فعليه بمراجعة مصنفات العلماء الذين خاضوا عباب هذا البحث وقرّروا ما سبق ذكره [٢] .

خامساً :

لنرجع الى موضوعنا الاساسي نتابع عرض اقوال العلامة جراف ونعقّب عليها :

---

(١) انظر الهدى ص ٥ — ٦

(٢) انظر الهدى « المقدمة » ص « ز ، ح » ، وص ٣٢ — ٣٣ . وراجع قبلًا ص ٦٥ ، الحواشي ٢ — ١٦ من هذا الكتاب وص ٦٦ الحواشي ١ — ٦ .

ثم قال[١] : « اما عبارة المقالات العشر فانما هي من الكلام المبتذل الذي ليس عليه اقل اثر من فصاحة صاحب كتاب الهدى ودقة تعبيره وروايته ... » ثم قال ص ٢٦٣ ما حرفيته : « واما لغة هذا الكتاب (اي المقالات) فهي عامية وانشاؤه فمن الدارج جداً وليس فيه ما يشعر بغزارة علم وسعة اطلاع ، بل بالعكس وقد خلط كاتبه خلطاً شنيعاً بامور تاريخية اوردها دون ما روية ولا تدقيق ، فمن ذلك ما جاء في اخر المقالة الرابعة عن تاريخ مذهب المشيئتين المحدث عن رأيه في الكنيسه . . . »

وقال ايضاً[٢] : « لقد ذكرنا هـذا التاريخ عن المقالات العشر لغرضين احدهما ليتبين للقاريء جهل الكاتب للتاريخ وقد تعرّض له هذا التعرض بلا حساب حتى صار يهرف بما لا يعرف من قبل الهذيان كما يرى المتأمل ، مع انه كان يكتب الى بطريرك عـالم عظيم هو البطريرك يوحنا الرابع اليوناني الاصل . . . ثم لبيان انحطاط لغته فضلاً عن انشائه السافل مما يدل على انه في الحقيقة لم يكن من فرسان هذا الميدان ، خلافاً لما يدعيه بكل جسارة . . . »

فتأمل ايها القاريء الكريم هذه الفوارق الخطيرة التي تميّز كتاب الهدى عن كتاب المقالات العشر ، وتبين اختلاف مقدرة المؤلفين وتنوع معارفهما ، وتريك بجلاءٍ ان الهدى مكتوب بلغةٍ عربية فصحى ، على دقةٍ في التعبير ، واختيارٍ للكلام ، وسلامةٍ في الذوق ، بينما تريك ان المقالات العشر مكتوبة بلغةٍ مبتذلة لا اثر للكلام الفصيح فيها ، ولا دقة في التعبير ، ولا انتقاء في العبارات ، ولا صدق في الرواية

(١) انظر الموضع نفسه ص ٢٣١ .

(٢) انظر الموضع نفسه ص ٢٦٨ .

مما هو برهان ساطع على استحالة اثبات التاليفين لمؤلف واحد ، وعلى نفي الوحدة بينهما .

وبعد ايراد حكم العلامة المدقق المطران دريان بالفرق الشاسع بين التأليفين نقتصر على ايراد نصٍ واحد من كتاب المقالات العشر وما يقابله في كتاب الهدى للوقوف على التناقض بين الكتابين . فقد جاء في المقالات عبارات" عدة يعظّم فيها المؤلف شخصيته تعظيما علنياً ، ولا يأنف من استعمال كلمات الاجلال ، ليثير اعجاب الناس بـه ، وإعظامهم لغيرتهِ وفضله ، فيقول في الديباجة ما نصه :

« نخبركم يا اخوة فلما كان في بعض الزمان . . . جرى مكاتبات ومراسلات بين بطريرك الروم في مدينة انطاكية ابينا يوحنـا وبين توما مطران كورة حلب الماروني بركة صلاتهما ترحمنا اجمعين . . . فلما وصلت الرسالة الى انبا توما مطران كفرطاب ثم انه تأملها جيداً وقرأها في بالغ فهمه شافياً حينئذٍ وجد فيها تعاليم كثيرة مخالفة قوانين المجامع وانها اقوال باطلة لا شهادة لها من كتب البيعة بل ما غـير قائمة على الهوى غرضاً غالب على امور العدل المايلة الى عداوة كراي جبار طالب الحرب ، عند ذلك حزن انبا توما حزناً شديداً وبكى على قساوة قلب السيد البطريرك . . . عند ذلـك وقف توما مبتهلا ملتمساً المعونة كي يمنحه زكاوة روحانية وحكمة سماوية . . . عند ذلك ورد اليه حكمة سماوية واخذ ينقض رسالة انبا يوحنا لفظة لفظة وجمع فيها شهادات وجعلها عشر مقالات وارسلها الى بين يدي البطريرك ، وعند ذلك اجاب البطريرك قائلا لهم هذا خطاب رجل سرياني من اهل الشام فيه هذه المعاني السنية الجزيلة الروحانيـــة ، تعالوا نبطل شهادة هذه الرسالة بجواب اخر نرسله اليه ونغلبه . فلما بلغ الى انبا توما خبر الرسالة انهم حرقوها . . . عاد كتبها اخير ما كانت وجعلها

ارسانيوس اسقف عين قره » والثانية ص ٤٦ حيث تقول : « واحتجت كل طائفة منهما فيما ادعته بعدة حجج . . » اما هاتان الفقرتان اللتان استند اليهما الاخوان العالمان آصاف لاثبات رأيهما في كون الكفرطابي [١] هو مؤلف الهدى ومترجمه كما هو مؤلف المقالات العشر لمـــا بين الكتابين من المشابهة ، فاليك ايها القاريء الحصيف تفنيد ذلك :

اولاً : بما ان كتاب الهدى كان مترجماً الى العربية عندما وضع المطران توما الكفرطابي كتابه الموسوم بالمقالات العشر [٢] ، لا شيء يمنع من ان يكون الكفرطابي مؤلف هذه المقالات قد طالع كتاب الهدى دستور طائفته المارونية ، بل من واجبه ان يطالعه بوصفه مطراناً

(١) عاش المطران توما هذا بجوار حلب في القرن الحادي عشر واوائل الثاني عشر . ويستنتج من كتابهِ المذكور انه كان اسقف حلب عـام ١٠٨٩ بعد تعريب الهدى بنحو ثلاثين عاماً ، وانه امَّ لبنان سنة ١١٠٤ ، واقام في جبة يانوح بالقرب من العاقورة ، ومن ثم عاد الى كفرطاب في كورة حلب حيث توفي ١١١١ . وكفرطاب بلدة قديمة بين نهر العاصي ومدينة حلب على مقربة من معرة النعمان . على ان بعض علماء الموارنـة ينكرون على توما الكفرطابي مارونيته ، وجل ما يستندون اليه كلام مبتسر لجبرايل القلاعي في القرن الـ ١٥ او الـ ١٦ وهو الذي ذكره العلامة الدويهي في الفصل السادس من كتابه « الاحتجاج » « انظر دريان في لبابهِ ص ٢٥٣ في الحاشية » .

اما نحن فنقول مع العلامة دريان « ان الكفرطابي كان مارونياً ، وكان له مقام عند موارنة عصره ، ولذا استطاع ان يقيم عندهم وبينهم على الرحب والسعة ، وفي مقـام بطريركيتهم في جبة يانوح زهاء اربع سنوات . . . » انظر الموضع نفسه ص ٢٥٦ في الحاشية ايضاً » .

(٢) قد لقّب هذا الكتاب بهذا الاسم لاجل المجادلة التي حصلت بـين اسقف كفرطاب وبطريرك الملكيين يوحنا الرابع اليوناني الاصل بخصوص عـدد المشيئات في السيد المسيح . فكان الاسقف توما يدافع عن وجود المشيئة الواحدة ، والبطريرك عن وجود المشيئتين ، فبلغ عدد الرسائل التي وضعها توما الكفرطابي دفاعاً عن رأيه عشراً ، فقيل فيها كتاب المقالات العشر » . انظر المنارة في الموضع نفسه ص ٢٧٠ في الحاشية ، وراجع دريان في لبابه ، ص ٢٥٢ في الحاشية ايضاً » .

على ابرشية كورة حلب ، واخذ عنه ما اخذ ، طوراً حرفاً بحرف وتارةً اكتفى بالمعنى حسب الحاجة ، واضاف ما أخذه الى كتابه المعروف بالمقالات العشر مع تبديل فيها او تغيير .

ثانياً : بينا نجد المشابهات ، من جهة ، واردةً بين المقالات العشر وفصل واحد من كتاب الهدى وذلك فيما يتعلق بمعتقد المشيئة الواحدة لتلك الاعصر الخوالي ، والهدى يحتوي على ٥٧ فصلاً أو عنواناً يتعلق معظمها بمعتقدات الطائفة وعاداتها الوطنية وتقاليدها وقوانين الرسل والتلاميذ ومراسيم الملوك المسيحيين وغيرها ، ومن المرجّح ان يكون مؤلف المقالات العشر اخذ بعض الامور الهامة عن الهدى لانه اخرج مؤلفه الى حيز الوجود بعد الهدى ، نرى من جهة اخرى وفرة المتناقضات بين المقالات و كتاب الهدى ونجد معها فقدان الوحدة التأليفية والانسجام في الفكرة بينهما ، كما نرى اختلافاً بيّناً في اختيار النسق والترتيب وانتقاء الالفاظ والتعبير في كل من المصنَّفين المذكورين .

وقبل ان نأتي بالنصوص البارزة التي تثبت وجود المتناقضات بين الكتابين وتنفي وحدة التأليف ، وتؤكد اختلاف المؤلفين ، نورد كلام المطران دريان بهذا الخصوص ، وقد اشبع هذا الكتاب درساً وتنقيباً ، وفحصاً وتمحيصاً ، قال[1]: « ان المطران داود على ما يظهر كان عالماً فاضلاً وكاتباً مجيداً وضليعاً من اللغتين السريانية والعربية ، كما يرى كل من انعم النظر في هذه الترجمة التي مـــا يزال عليها مسحة من الفصاحة وسلامة الذوق في التعبير واختيار الكلام التقني في ابواب الشريعة خاصةً بالرغم مما اعتورها من تحريف النساخ الذين نقلوها من الاصل المكتوب بالحروف العربية الى الحرف الكرشوني . . . »

---

(١) راجع لباب البراهين الجلية الخ ص ٢٢٢ .

يوسف الدبس[١] والمطران يوسف دريان[٢] والمطران بطرس ديب[٣] وغيرهم[٤] وما كتبه بهذا الصدد المؤرخون العصريون في مجلاتهم الشهيرة[٥]، الامر الذي يتطلب مقالات طويلة لا مجال لنشرها هنا .

كذلك نؤيد رأينا مما قاله المطران داود في جوابه المصدّر به الذي وجَّهه الى القس يوسف الراهب معتذراً عن التأخير بالرد عليه بقوله[٦] : « والذي دعاني الى تأخير الجواب عنك الى وقتنا هذا هو اني قد نظرت الى انحطاط منزلتي وصغر قدر نفسي عندي وفساد ذاتي فخرجت على ان اتناول صناعةً لست انا لها بأهلٍ وخشيت ان ينحط قدر جوهر الكلام الالهي اللذيذ الذى سألت في نظمه من سوء صناعة فكري فاكون بمنزلة من تعرّض لخدمة الملك العظيم القدرة وهو ذميم حقير . . . »

فهذا الكلام يدل بصراحةٍ زائدة على ان الاسقف داود لم يكن مؤلف الهدى بل مترجمه ، لانه لو كان الكتاب من وضعهِ لما قال عن الترجمة « انها صناعة ليس هو اهلاً لها » ولا خاف « ان ينحط بها جوهر كلام الكتاب اذا نظمه عن سوء صناعةِ فكره ولا راح يستصعبها ويستصغر نفسه امامها الخ »[٧] .

وتأكيداً لذلك نلفت نظر القاريء الكريم الى ان المجيب اي

---

(١) تاريخ سوريا للدبس ج ٥ ص ٥٤٠ ، وروح الردود ص ١٠٠ . وكتاب الجامع المفصل . . .

(٢) لباب البراهين الجلية ص ٢٢٠

(٣) الكنيسة المارونية ج ١ ص ١٣١ .

(٤) انظر الهدى في المقدمة ص ح .

(٥) راجع هذا الكتاب ص ١ في الحاشية .

(٦) انظر الهدى ص ٥ .

(٧) راجع المقالة التي نشرناها عن الهدى ص ١٠ وقد سبق ذكرها .

المطران داود يصرّح علناً وجلياً ، كما اثبتنا ، بانه قد ابتدأ بترجمة كتاب الهدى ، ويشفع هذا التصريح بعبارات مسهبة [١] يقول فيها انه تردّد كثيراً قبل الاقدام على الترجمة ، وانه لم تصحّ عزيمته على الشروع بها الا بعد الاتكال على قدرة الله وشفاعة القديسين وصلوات الرهبان الخ ، مما يبرهن على انه اعار الترجمة اهميَّة كبرى ، وعلى انه كان باراً في وعده ، وصادقاً في قوله للاب يوسف انه قد شرع بها . واذا صحّ ذلك فاي قيمة تبقى لنظرية القائلين بان الكفرطابي ترجم الهدى سنة ١١١ خلافاً لنص الرسالة التي يتوّج بها الهدى والمؤرخة عام ١٠٥٩ وقت الشروع بالترجمة كما يبين من جواب المطران داود عليها ؟ !

ثالثا نقول انه لا يمكن ايضاً ان يكون الكفرطابي هو مؤلف الهدى مطلقاً ، لانه توفي سنة ١١١١ مسيحية ، والهدى أُلف قبل هذا العهد يوم ازدهار اللغة السريانيـة ، وعُرِّب في سنة ١٠٥٩ كما بينّا اعلاه . اذ لا يعقل والهدى دستور الطائفة المارونية ، ان تكون هذه الطائفة قد اهملت من القرن الخامس يوم أُنشئت لغاية الثاني عشر بدون دستور يجمع قوانينها وتقاليدها ، ويحوي عاداتها ومبادئهـا ومعتقداتها ، فترجع اليه وقت الحاجة وتعول عليه وتحكم بموجبه عند الاقتضاء ! !

اما الفقرتان الواردتان في كتاب الهدى ، الاولى ص ٣٨ حيث تقول : « ثم المارونية وقد ذكرت خبرها بين الفرقتين الملكية والمارونية وشرحت حالها شرحاً شافياً في الرسالة التي كتبتها الى الاب القديس

---

(١) وقد جاء في الهدى ص ٣٦ عبارة « تعريب واختصار » وغني عن البيـان ان هذه الكلمات تدل على ان المترجم داود قد عرّب الكتاب بتصرف مضيفاً اليه ما رآه مفيدًا وقت اللزوم ، او موجزًا منه ما رأى الحاجة تدعو الى اختصاره ، للخير العام .

ومعلوم ايضاً ان هذه الحوادث جرت قبل القرن العاشر . فينتج من ثم وبكل تأكيد ان كتاب الهدى وضع اولاً باللغة السريانية كما جاء في مقدمته [١] التي لا تقبل الريب ، ولكن لا يعقل ان يتم ذلك يوم انحطاطها وبدء تقهقرها اي عند انتشار الاسلام في البلاد الشامية وعلى الشواطيء اللبنانية وقد حرّم المسلمون على النصارى التعامل معهم والكتابة بغير العربية لغتهم لتعزيز انتشارها وتقدمها . انما وضع يوم كانت السريانية مزدهرة ومنتشرة في كل الاقطار السورية والشامية والفلسطينية . فالمسافة التي تفصل زمن التأليف ، وقد تمّ في عهد نهضة السريانية ، عن زمن الترجمة وهو القرن الحادي عشر ، بحسب اعتقادنا ، او القرن الثاني عشر حسب رأي الاخوين آصاف ، كانت مسافة [٢] شاسعةً طويلة الآماد .

وهكذا نتوصل الى النتيجة الحتمية التالية ، وهي انه يستحيل ان يعيش فرد طوال تلك المسافة البعيدة الأمد التي اشرنا اليها فيؤلف فيها في عهد ازدهار السريانية كتاب الهدى بها [٣] ويكتب هذا المؤلف نفسه في عهد انحطاط السريانية ونهضة العربية ترجمة الهدى بالعربية في زمنين متباعدين . . .

ثانياً نقول : لا يمكن ان يكون الكفرطابي هو الذي ترجم الهدى ، ذلك لان هذا الكتاب يذكر صريحاً ان الذي ترجمه من

لهم : وآمروا من كان على غير الاسلام ان يضعوا العمائم ويلبسوا الاكسية ولا يتشبهوا بشيء من الاسلام ولا تتركوا احدًا من الكفار يستخدم احدًا من المسلمين ولا تستخدموا احدًا من اهل الذمة ، ونهى النصارى عن ضرب النواقيس وقت الآذان . »

(١) انظر الهدى ص ٣ ، ٤ ، ٦ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ .

(٢) لان الاخوين العالمين آصاف وضعا انجاز الترجمة في سنة ١١١٠ قبل وفاة المطران توما الكفرطابي بسنة واحدة .

(٣) أنظر المطران دريان في كتابه « لباب البراهين الجلية . . . ص ٢٣٠

السريانية الى العربية عام ١٠٥٩ وشرح جميع ما غمض منه شرحاً وافياً وبيّن ما اعتاص منه ، ورتّب ابوابه ، وهذّب عباراته ، وزاد عليه[١] ما جمعه من القوانين القديمة وجعله على شكله الحالي انما هو المطران داود الماروني الذي كتب اليه القس يوسف يلحّ عليه ان يضع الترجمة ، فأجابه المطران داود مخاطباً اياه بانه مباشر بالترجمة . وقد سبق نشر كلامه اعلاه كما جاء في صفحة ٣ ، ٦ ، ١٢ ، ١٤ و ١٥ من الهدى . وعليه فمتى وجد النص ، ولاسيما اذا كان صريحاً ، بطل الاجتهاد وانعدم الجدال . واذاً فلا يمكن ان يكون الكفرطابي مؤلف الهدى ولا مترجمه .

ومما يؤيد رأينا بان المطران داود هو المترجم والشارح والجامع لكتاب الهدى ما تقصّى البحث عنه علماؤنا الموارنة الاعلام على تمادي السنين والاجيال كالسماعنه[٢] وابراهيم الحاقلي[٣] وغروج الباني[٤] والبطريرك اسطفان الدويهي[٥] والبطريرك بولس مسعد[٦] والمطران

---

(١) قلنا « زاد عليه ما جمعه من القوانين القديمة » لان الفصول الاخيرة التي تؤلف جزءه الاخير واردة في كتاب « العادات السريانية الرومانية » الذي يرتقي اصله الى عهد الملك قسطنطين المتوفى عام ٣٣٧ ، ثم ان الفصل الـ ٢٨ المعنون : « هذا ما نقله عن نسخة بدر عبد ابن أبراهيم المعروف بابن عبدان » يَرجع تاريخه الى سنة ٩٩٦ مسيحية ، وغير هذه الفصول ابواب كثيرة زادها المترجم على كتاب الهدى . فلا يعقل والحالة هذه ان يكون الهدى بكامله لمؤلف واحد جمع فيه شتات القوانين القديمة ومختلف العادات التابعة لطائفته .

(٢) المكتبة الشرقية مج ١ ص ٦٢٩ . وفهرست المخطوطات لمؤلفيه يوسف السمعاني واسطفان عواد السمعاني ج ٣ ص ٢٠٢ .

(٣) انظر كتابه « اصل اسم بابا » ص ٤٩٢ .

(٤) في مقالته المطبوعة في روما عن تاريخ الموارنة ، ص ٦٨ .

(٥) انظر كتاب الاحتجاج عن اصل الموارنة في الفصل السادس من الكتاب الاول ثم فاتحة الكتاب الثالث .

(٦) الدر المنظوم ص ١٥٢ .

حال ليس الكفرطابي ، وان المترجم انما هو المطران داود الماروني ، وان الترجمة وُضعت في عام ١٠٥٨/١٠٥٩ كما جاء في الهدى نفسه لا عام ١١١٠ حسبما يرتئي الاخوان آصاف . ولنا على ذلك براهين وادلة قاطعة نوردها فيما يلي :

أولاً : نتخذ الدليل على صدق قولنا من الزمن الذي عيَّنه طالب الترجمة القس يوسف الراهب الى المطران داود الذي اجابه الى سواله بنقل الكتاب من السريانية الى العربية لاشتهار هذه اللغة عصرئذٍ ولمعرفة الشعب لها جيداً ، ومن الزمن الذي حدّده الاخوان آصاف على الوجه الآتي :

جاء في صدر كتاب الهدى في الصفحة الاولى ان « الاخ المبارك الخيّر يوسف الراهب » كتب الى المطران داود الماروني رسالةً يطلب اليه فيها ان يفسِّر له الكتاب المنسوب الى الاب القديس وذلك عام ١٣٧٠ للاسكندر اليوناني » الموافق عام ١٠٥٩ للمسيح . ومتى وجد النص بطل الاجتهاد . وقد أجابه المطران داود المذكور ، هذه المرة [١] الى طلبه قائلا له انه آخذ بترجمة الكتاب وتفسيره وشرحه شرحاً وافياً ونقله الى العربية لاشتهارها في عصره آنذاك ولكثرة المتعاملين فيها والناطقين بها وبالتالي لانحطاط اللغة السريانية . وهذا بعض كلامه لان القسم الاكبر منه قد سبق ذكره اعلاه [٢] : « ثم نقلت يقول المطران داود ، الجميع من اللسان السرياني الى اللسان

---

(١) قلنا هذه المرة فقط لان القس يوسف الراهب كتب الى المطران داود مراراً يلح عليه ان يقوم بالترجمة نظراً للحاجة الماسة الى كتاب يشرح العقائد والتقاليد والقوانين الكنسية .

(٢) انظر الهدى ص ٣ ، ٦ ، ١٢ ، ١٤ — ١٥ . وراجع ما نشرناه عن هذا الموضوع في العدد الاول .

العربي لاشتهاره في عصرنا هذا وكثرة الناطقين به في زمننا هذا ...»

ومن المعلوم ان اللغة السريانية اخذت بالانحطاط بعد ظهور الاسلام، واستيلاء العرب على العراق وسوريا وفلسطين، وبعد فتحهم لمدن حمص وبيسان وطبريه والمدن المجاورة حتى بعلبك[١] وتطويقهم لبنان لنشر رايتهم عليه وجمع المال منه وأخذ الجزية وحمل اهاليه على اعتناق دينهم والتعامل بلغتهم العربية ونشرها فيه بدلاً من اللغات السامية الاخرى والرومية التي كانت مشهورة في تلك البلاد الشامية»[٢]

وازدادت انحطاطاً بعد امر الوليد القاضي بهدم الكنائس والبيع وتحويلها الى جوامع، كما جرى على يدهِ فعلا تحويل كنيسة مار يوحنا المعمدان بالشام الى جامع، ومنع المسيحيين الحائزين على وظائف الدولة «من ان يكتبوا الدفاتر باللغة الرومية بل بالعربية» لانتشارها عهدئذٍ وملاشاة تلك مع السريانية وانحطاطها[٣].

وتفاقم انحطاطها بعد امر المتوكل القاضي بالتضييق على اهل الذمة وبالتشديد عليهم بتغيير زيهم وتذليلهم واهانتهم وقتل عدد من خدَمة العلم الدخلاء كابن السكيت وبختيشوع السرياني النسطوري[٤].

---

(١) انظر اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية للسيد اقليموس يوسف داود السرياني ج ١ ص ٤٠، ٤٨، ٥٦، و ٦٦، والمنارة ص ١٨٦ – ١٩٣ من سنة ١٩٤٢ في عددها الثالث.

(٢) انظر الموضع من اللمعة الشهية خاصةً ص ٤٠.

(٣) انظر الموضع نفسه.

(٤) راجع ابا الفداء ص ٤٣ ج ٢، وتاريخ المشارقة المذكور في تاريخ الاسلام للعلامة زيدان ج ٣ ص ١٦٧، والمسعودي ١١٣ ج ٢، والعقد الفريد ٢٦٢ ج ٢، وابن الاثير ٣١ ج ٥، وقد ذكر زيدان في الجزء الرابع من تاريخ الاسلام ص ١٠٠ و ١٠٢ ما يلي: «ذكروا عن الوليد انه سمع صوت ناقوس فقال ما هذا؟ قيل: بيعة. فامر بهدمها وتولى بعض ذلك بيده. وذكر عن عمر ابن العزيز انه كتب الى عماله يقول

واستعمله الموارنة ؟ ! » [١] . اما المعتقد بالمشيئة الواحدة فيتطلب بحثاً آخر طويلا أفردنا له درساً خاصاً في اخر هذه الملاحظات .

رابعاً :

لا بدّ من كلمة موجزة نعلق بها على نظرية الاخوين العالمين آصاف تبياناً للحقيقة من كل الوجوه :

يبدي حضرة الاخوين رأياً خاصاً في هذا البحث [٢] ، وهو ان الذي ألف كتاب « الهدى » في السريانية وسماه كتاب « الهداية » ثم نقله منها الى العربية وسماه كتاب « المرشد » انما هو المطران توما الكفرطابي [٣] اسقف كورة حلب الماروني المذهب ، ومؤلف كتاب « المقالات العشر » . ودللا على صحة رأيهما كما يقولان « ليس فقط بالمشابهة القائمة بين مضمون الكتابين بل باقرار المطران توما الكفرطابي نفسه » [٤] .

---

(١) راجع الموضع نفسه ص ٢٧٧ .

(٢) انظر مجلة المنارة في الموضع نفسه ص ٢٥٤ .

(٣) وقال بهذا الرأي ايضاً من قبل حضرة العالم الاب فيليب السمراني الكريمي فنسب التأليف فقط الى المطران توما الكفرطابي عام ١٩٣٥ في مجلة المنارة في عددها ١٢ . وقد ردّدنا على حضرته في حينه بنشرة طويلة تتجاوز عشر صفحات في مجلة الشهباء بحلب مفندين رأيه باباً باباً .

(٤) مع ان الكفرطابي مؤلف المقالات لم يذكر مطلقاً انه ألف كتاب الهدى ، ولم يرد اطلاقاً في كتاب الهدى ذكر لتوما الكفرطابي او اشارة اليه او تلميح ، وقد جاء فيه صراحة ان المترجم هو المطران داود الماروني كما رأينا .

وقد عزوا اسم القس يوسف الراهب والمطران داود المصدّر بهما كتاب الهدى كما رأيت الى اسمين [١] مستعارين رمزيين التجأ اليهما المطران توما الكفرطابي لاخفاء اسمه الحقيقي [٢] او لتبرير موقفه من اللغة السريانيه التي كان الاساقفة والكهنة يتمسكون بها بحماسة ولا يريدون عنها بديلا [٣] . الى ان قالا بالنظر الى تحديد الزمن ما يلي :

« وكيف ما كان الحال يجب وضع تاريخ انجاز الهدى ما بين ١١٠٨ و ١١١٠ ونرجح ١١١٠ لان ذهاب المطران توما الى جبة بشراي سنة ١١٠٨ له صلة قوية بكتاب الهدى بدليل ان سكان بشراي وحصرون ورهبان الاديرة لهاتين البلدتين كانوا يملكون مخطوطات عديدة استعملها توما الكفرطابي لتنقيح القوانين ولتفسير علم الاسلاف المتقدمين وشرائع الفريضة وغوامض الشريعة ولوضعها في اللغة العربية ... ويكون المطران توما قضى سنة ١١٠٩ في ترتيب وتهذيب وتنظيم القوانين السابقة ونقلها الى العربية فخرجت مجموعة الهدى بثوبها الحالي سنة ١١١٠ وبعد ذلك ترك المطران توما لبنان قاصداً كورة حلب مقر أبرشيته ، وتوفي هناك خلال سنة ١١١١ مسيحية [٤] .

اما نحن فنخالف هذا الرأي مستندين الى اقوال العلماء المؤرخين ، والى الرسالتين المصدَّر بهما كتاب الهدى ، والى البراهين الداخلية وسواها ، مؤكدين ان المؤلف انما هو الاب القديس احد رؤساء الطائفة ، سواء عرفنا اسمه او لم نتوصل الى معرفته ، لكنه على كل

---

(١) انظر المنارة ص ٢٥٨ من السنة نفسها ثم صفحات ٢٦٨ ، ٢٧١ .

(٢) لماذا يا ترى أخفى نفسه هنا في الهدى وأطنب في المقالات العشر في تعظيم نفسه وإكبارها ؟ ! (راجع المنارة ص ٢٦٨) .

(٣) انظر المنارة في الموضع نفسه ص ٢٧١ .

(٤) المنارة ايضاً ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

وقد ورد في الهدى بشأن المناولة اليومية ما يثبت صحة القول بمارونية الهدى . قال المؤلف ،[1]: « اختلفت آراء النصارى في اخذ القربان ، فرأت الروم ان اخذه كل يوم واجب . واما الارمن فانهم لا يرون تقريبه (اخذه) بالجملة الا في اوقات مخصوصة ، مثل الخميس الكبير والفصح وما اشبهها من الاعياد الكبار . واما اكثر السريان وهم اهل مذهبنا واكثر اليعاقبة والنساطرة فرأيهم ان المواظبة على اخذه في جميع الاوقات أولى من تركه ، حتى ان اهل مذهبنا رأوا ان امكن الانسان أن لا يذهب يوم واحد الا ويأخذ فيه الجسد كلما قدر عليه وحيثما قدر عليه فيكون اولى »[2] .

بذكر برهان واحد من عدة براهين قدمتها كل طائفة ، لاثبات قضيتها ، من الطائفتين الملكية والمارونية اللتين « كانتا فرقة واحدة (كما جاء في الهدى عينه ص ٤٦) تعتقدان اعتقاداً واحداً ولا تفترقان الا بموضوع المشيئة والمشيئتين ، فقالت الملكية ان المسيح ذو مشيئتين للجوهرين مشيئة الهية للجوهر الالهي وانسانية للجوهر الانساني ، وقالت المارونية بل هي مشيئة واحدة للجوهرين الالهية والانسانية . » والبرهان على ذلك كما في الهدى ايضاً (ص ٤٧) هو :

« قالت المارونية ان هاتين المشيئتين لا تخلوان من ان تكونا إما متساويتين او متضادتين . فان كانتا متساويتين في جميع حالهما عاد الامر الى مشيئة واحدة ، وان كانتا متضادتين جاء (نتج) عن ذلك ان يكون الجوهر الالهي يشاء ما لا يشاه الجوهر الانساني ، وكذلك الجوهر الانساني يشاء ما لا يشاه الجوهر الالهي . واذا حصل ذلك وقع التباين والتضاد وحصلا اثنان وبطل حكم الاتحاد وصار الثالوث رابعاً وآل الامر الى رأي نسطور . . . »

فهذه الرسالة التي ألفها المطران داود كما نعتقد وارسلها الى المطران ارسانيوس قبل ترجمته الهدى بمدة وجيزة هي نفسها التي ذكرها هنا في الهدى مراراً كما اثبت ذلك هو نفسه في المواضع المتقدم بيانها ، وهي تعتبر دليلاً ثابتاً على ان الهدى هو ماروني المصدر والتأليف .

(١) انظر الهدى ص ٩١ – ٩٢ .

(٢) راجع المطران دريان في لبابه (ص ٢٢٩) حيث يقول مثبتاً مارونية الهدى : « يرى المتأمل بأدنى تبصر في هذه العبارة ان السريان اهل مذهبه وهم غير الروم والارمن واليعاقبة والنساطرة والسريان لا يمكن ان يكونوا غير الموارنة ، الا اذا

فيتضح من هذا ان كلمة « السريان » الواردة في هذه الفقرة تشمل الطائفتين المارونية والملكية لانهما كانتا فرقة واحدة قبل الاختلاف بمعتقد المشيئة والمشيئتين . وعلى هذا الاعتقاد والاعتبار الاكيد يكون كتاب الهدى اما مارونياً او ملكياً لا ثالث لهذين الافتراضين لاستثناء الكتاب هو نفسه كل الطوائف الاخرى . على انه لما زاد المؤلف او المترجم بعد كلمة سريان* عبارة : وهم اهل مذهبنا : اشار بذلك الى ان مذهبه الخاص يتنافي ومذهب الملكية والذي شرحه شرحاً وافياً في رسالة العدل او قضية العدد الآنفة الذكر ، ولم يشر مطلقاً الى مذهب خصومهِ الملكيين لانه يعتبرهم فئةً غير الفئة التي يقصدها من كلامه هذا [1] .

فضلاً عن ذلك ، فان اليعاقبة والنساطرة يتبرأون من كتاب الهدى ، وينسبونه الى الموارنة خصومهم . فابن العبري (١٢٨٦) الذي يعد من اكبر العلماء سعةً واطلاعاً لم يذكر الهدى في كتاب « الهدايات » المماثل لكتاب الهدى ، ولم يشر اليه لا صراحةً ولا تلميحاً ، وكذلك عبد يشوع النسطوري الذي ألف كتاباً لمذهبه ودعاه « مجموعة القوانين » لم يشر بكلمةٍ واحدة الى كتاب الهدى [2] .

ونحن نجاري حضرة الاخوين آصاف في ما ختما بـه مبحثهما عن مارونية الهدى من تساؤلٍ : « اي قيمة تبقى والحالة هذه للنظرية القائلة ان كتاب الهدى هو من كتب اليعاقبة او النساطرة او الملكيين

اريد ان هذا الكلام الاجمالي انما يشمل الملكية ايضاً وهم من السريان الذين على مذهبهِ ولكن يعارض ذلك ان المؤلف قد ذكر الملكية غير مرة في كتابهِ هذا نظير فئة غير الفئة التي يقصدها من مثل كلامه هذا . . . »

(١) انظر المنارة في الموضع نفسه ص ٢٧٥ .

(٢) الموضع نفسه من المنارة ص ٢٧٧ .

جارية عند النساطرة ودالة على نفثات علمائهم ، كما ان مصادر الكتابات القانونية الواردة فيه تصح ان تنسب بدون شك الى الطائفة الملكية ...»

على ان هذا الزعم باطل ، لا يمكن من له المام بالتاريخ الماروني الصحيح ان يوافق عليه ، لانه رأي لا يزال مفتقراً الى براهين تؤيده . في حين ان الرأي المخالف واضح جلي ، لا يحتاج الى دليل ، بل تشهد بصحته نصوص الهدى الساطعة ، والعادات المشروحة فيه التي ما برح معظمها جارياً عندنا الى يومنا هذا ، ومعمولاً بها في تقاليدنا الوطنية . فمؤلف الهدى نفسه[1] يثبت ذلك في مقدمته ذاكراً بدقةٍ المصادر القانونية التي اعتمد عليها في وضع كتابه هذا ، ومترجم الهدى ايضاً يشرح باختصار هذا الكلام في رسالته التي ردّ بها على طلب القس يوسف بنقل الكتاب من السريانية الى العربية قائلا :

« لما عرفت من هذه المطالعة ، ابتدأت بأول الكتاب مستجيداً بالله مسترشداً به متوكلا عليه مفتتحاً باسم الاب . . . وعليه فاني لما رأيت علماءنا ومن تقدم من آبائنا . . . ورأيت فيها (= اي الترجمة) ما يفتقر الى طرق الايضاح ولا يستغنى عنه من الشرح ، فأنعمت النظر في ذلك وتحرير الابانة عن مضمونهِ والاجتهاد في تسهيله لثقل فكرة قارئيه وتفكير الناظر فيه ، ثم نقلت الجميع منه من اللسان السرياني الى العربي لاشتهاره في عصرنا هذا وكثرة الناطقين به في زماننا هذا . . . »

ومما لا ريب فيه ان علماء الموارنة قد اجمعوا على ان كتاب الهدى كان وما زال مارونياً ، مارونياً بمصادره ، مارونياً بمؤلفه ،

---

(١) انظر الهدى ص ١٢ — ١٤ .

مارونياً بمترجمه ، مارونياً بتعاليم طائفته وعاداتها المتقادمة العهد التي ما تزال تعمل بها على تمادي الاجيال [١] .

وقد اثبت مارونية الهدى حضرة العالمين الفاضلين الأخوين آصاف في مجلة المنارة لسنة ١٩٤٢ قائلين : « زعم البعض ان كتاب الهدى نسطوري الاصل واسندوا كلامهم الى المباديء الايمانية المشروحة فيه . . . اما الحقيقة فهي على خلاف ذلك : ان كتاب الهدى ماروني بمؤلفهِ ومترجمهِ وينابيعهِ وغايتهِ وتتجلّى هذه الحقيقة ليس في اعتراف المؤلف فقط بل في نصوص الكتاب التي اتخذها البعض حجةً على الموارنة . . . » [٢] .

---

(١) اكد مارونية المترجم المثلث الرحمة العلامة المطران يوسف دريان في كتابه « لباب البراهين الجلية ... ص ٣٢ حيث يختم كلامه بقوله : « اذ قلما ذكر اسمه الا مشفوعاً بصفة « الماروني » ولم ينازعهم به للان منازع . »

(٢) انظر المنارة سنة ١٩٤٢ في عددها الرابع ص ٢٧٢ — ٢٧٧ حيث يزعم العالمان الاخوان آصاف ان مؤلف الهدى هو مؤلف المقالات العشر المطران توما الكفرطابي نفسه . وقد استشهدا بتلك الفقرة الواردة في المقالات العشر بشأن وحدة المشيئة في السيد المسيح ، حيث يقول الكفرطابي انه هو الذي وضع هذه المقالات ، وذكرا الفقرة التي تشابهها والواردة في الصفحة الـ ٣٧ — ٣٨ من كتاب الهدى ، وهي : « اول فرقة ظهرت من الفرق المشهورة المنسوبة الى اريوس . . . الخ » وسيجيء الكلام عن هذا .
وعلى كل حال فمن يطالع هذه الفقرة التي وردت في الهدى يبين له جلياً ان واضعه سواء أريد به المؤلف ام المترجم هو ماروني الاصل والمذهب لاجماع الرأي عليه اولاً من الموارنة ومن سواهم من العلماء . ثانياً لان ما ورد فيه من المبادي الدينية والمعتقدات والتقاليد الطائفية قد شرحه الموارنة في كتبهم كأنه من معتقدات طائفتهم وعاداتهم القديمة العهد ، وقد استندوا اليه في تصنيفاتهم وتواريخهم كافةً . وثالثاً لان المترجم داود الماروني قد وضع مقالةً عن المارونية جاء فيها « وذكرت خبرها بين الفرقتين الملكية والمارونية وشرحت بيان حالها شرحاً شافياً وارسلتها الى الاب القديس ارسانيوس اسقف عين قره وسميتها برسالة العدل » او بقضية العدد كما دعاها فيما بعد (انظر الهدى ص ٣٨ — ٣٩) . وقد اقتصر على ذكرها هناك للرجوع اليها خشية من الاطالة مكتفياً

لغتهم غب معارضتها مع الاصل وشرح ما غمض منها ، منهم العلامة بوسترك[١] وريدل[٢] وجورج غراف الذي نحن بصدده .

وكذلك قوانين التلاميذ المباركين الواحد والثمانين الواردة في الهدى[٣] كتبت اولاً في اليونانية لانتشارها عصرئذ ، كما هو ظاهر من مجرد الوقوف على ترجمتها وعلى الاصل اليوناني المحفوظ في مبحث العلامة جورج جراف .

وقوانين سمعان الصفا ، التي نشرها المطران داود في الهدى[٤] ، قد وُضعت اولاً في اليونانية ، وهي تشابه ترتيباً وموضوعاً القوانين المنشورة في الكتاب الثامن من « التأسيسات الرسولية » . ويقوم دليلًا على ذلك الكلمات المنقولة عن الاصل اليوناني كلفظة تاوفانيا مثلًا (Teofania) المأخوذة عن اليونانية بدون تعريب او تحريف فيها وغيرها

وايضاً قوانين المجمع النيقاوي وما يتبعها من المراسيم والاحكام الملوكية الواردة في الهدى[٥]معربة وملخصة عن الاصل اليوناني او اللاتيني كما اثبت المستشرق الالماني ريدل وغيره ممن ذكرناهم فيما سلف .

ومما تجب الاشارة اليه ان كل هذه البراهين الداخلية وغيرها تعتبر ادلةً ساطعة تنطق بكون المؤلف ، المعروف بالاب القديس الذي وضع الهدى باللغة السريانية ، انما هو غير المترجم المطران داود الماروني

---

(١) في كتابه « آداب اللغة السريانية » وفي مجلة « الشرق المسيحي » لسنة ١٩٠١ الصادرة باللغة الالمانية .

(٢) في كتابه « تاريخ بطاركة الاسكندرية » ص ١٤٦ .

(٣) ص ٢٦١ — ٢٧٦ .

(٤) وردت في ص ٢٧٦ — ٢٩١ .

(٥) ص ٢٩٢ فصاعداً .

الذي عرَّب كتاب الكمال وزاد عليه كما قلنا الشروح والقوانين والاحكام الاخرى عن لغات غير السريانية او عن ترجمات موضوعة في لغة سريانية .

ثالثاً :

يقول العلامة ريدل[١] ان الفصول الواردة في صدر الهدى والتي تؤلف منه الابواب الاثنين والعشرين الاولى انما هي اختصارات وتلخيص بتصرف لقوانين المجمع النيقاوي مع اختلاف طبعاً في العناوين والموضوعات . وهكذا يظهر ان العالم ريدل كان بقولهِ هذا يريد ان ينكر على كتاب الهدى في جزئهِ الاول مارونيته ، جاعلا اياها مجموعة من المجموعات القانونية القديمة ، التي لا تختص بطائفة واحدة دون الاخرى ، بل بكل الطوائف الشرقية على السواء ، لما ورد في الهدى من القوانين والمعتقدات التي قد يمكن استعمال بعضها عند النسطورية او اليعقوبية او الملكية او الاسلامية ، لكنه سها عن ان الطائفة المارونية كانت في تلك الحقبة المظلمة من التاريخ محاطةً من كل الطوائف المشار اليها ، ومحسودة ، لسعة نفوذها واحترام جانب ابنائها وشدة شكيمتهم ومراسهم .

وقد ألمح جورج جراف في آخر دراسته الى رأيهِ هذا فقال ما نصه : « لقد مزجت نصوص الهدى وابوابه بتعاليم وآداب وعلوم

---

(١) انظر كتابه « تاريخ بطاركة الاسكندرية » ص ٩٥ – ٩٧ ، ١٨١ – ١٨٣ ، و ٣٠٣ – ٣١٠ .

اجابه المطران داود الى سؤاله بالايجاب بقوله له : « سألت ارشدك الله ان انقل لك الكتاب ... واشرح جميع ما فيه من الفصول ... فأجبتك الى ذلك وابتديء بعون الله . . . » [1] .

اجل ان درساً دقيقاً كالذي وضعه العلامة غراف يتطلّب مشقةً وزماناً ويستحق الثناء المستطاب ، لكونه يكشف عن امورٍ كثيرة كانت ما تزال تحت طي الغموض والاهمال ، ويجيب عن عدة اسئلة تتراءى واضحة امام عيني كل مطالع للهدى ، اذ لا بدّ لكل من يقرأه ان يتساءَل قبل الوقوف على مقالة العالم غراف : أبالعربية كتب الهدى في الأصل ام بالسريانية كما جاء في مقدمته ؟ واذا صحّ الافتراض الأخير ، أفكله كتب باللغة السريانية ؟ وما هي يا ترى هذه الفصول والابواب ؟ وعن اي اصل نقلت ؟ وهل هي محفوظة الى يومنا هذا ؟ ثم النسخة العربية أكانت معتبرة قديماً كدستور للطائفة المارونية تتمشى بحسب مضمونهِ ام لا ؟ أوَكانت كتب الحق القانوني لدى الموارنة وغيرهم من الطوائف الاخرى كالملكية والنساطرة واليعاقبة والاقباط الخ مأخوذةً عن الهدى ومرتكزةً عليه كاساسٍ لها ام لا ؟ واخيراً ما هي قيمته التاريخية والادبية لدى الموارنة .

هذه كما لا يخفى اسئلة خطيرة تستدعي اهتماماً ودرساً كبيرين للاجابة عنها . ومع ذلك فقد اجاب عن بعضها العلامة جراف في مقالته التي نحن بصددها ، كما ان حضرة الاخوين العالمين الخوري بطرس

(١) انظر الهدى ص ٦ . وقد جاء في الهدى ايضاً ص ٣٥ – ٣٦ ما نصه : « ونحن نذكر بمشيئة الله سبحانه من اقاويل كل فرقةٍ ما نبين فيه رأيها ، ونظهر به اعتقادها على الاختصار والتعريب الذي رتّبنا عليه هذا الكتاب » وهذا دليل اخر قاطع على ان المترجم رحمه الله اضاف الى كتاب الكمال اموراً جمة لم تكن مكتوبة فيه وقد أتى بها من كتب اخرى ، ورتّبها في كتاب الهدى على مـا شاء هو لا على ما كانت عليه من وضع المؤلف الاصلي القديم .

اصاف والاستاذ يوسف اصاف اجابا عن بعضٍ منها في ثنايا درسهما عن الارث الماروني ، كما سنبين[١] .

ومن اللازم ان نصرّح بان القسم الاكبر من كتاب الهدى يتفق مع مجموعات القوانين الاخرى المحفوظة في اصلها اليوناني واللاتيني او في ترجمتها المنقولة عن الاصل المكتوب في احدى هاتين اللغتين التي ذكرت ، وخاصةً القسم الاخير منه (اي الجزء الثاني) المنقول عن كتاب « العادات السورية الرومانية (Siro-Romano) الذي يؤلف مختصر الشرائع الرومانية البيزنطية مندمجةً بالعادات السورية المتجمدة التي كان يعمل بموجبها الديوان الاسقفي الانطاكي في القرن الرابع للمسيح ، وفي عهد الامبراطور تودوسيوس الثاني الذي امر بتجهيز المجلة القضائية المعروفة باسمه ، والحاوية مراسيم الملوك المسيحيين »[٢] .

كذلك قوانين البابا اقليموس الواردة في صفحة ٢٢٩ — ٢٦٠ من كتاب الهدى[٣] كانت مكتوبة في الاصل باللغة اللاتينية على زعم بعض الباحثين ، والارجح باللغة اليونانية كما يتضح ذلك من مطالعة الفصول كاملةً ومن بعض عبارات او كلمات في حالة المضاف كبابا روميس مثلاً ، وعيد الورد كما هي الحال في هاتين اللغتين المشار اليهما . وقد اثبت ذلك علماء الالمان في دراستهم الدقيقة لهذه الفصول ، ونقلها الى

---

(١) انظر المنارة في عددها الرابع من سنة ١٩٤٢ ص ٢٥١ وما يليها .

(٢) راجع « المنارة » في عددها الاول من سنة ١٩٣٧ ص ٤٤ ، وفي عددها الرابع من سنة ١٩٤٢ ، ص ٢٤٢ — ٢٤٣ . وانظر Dict. de Théol. Cath. fasc. L XXX art. « Maronites » par R. P. P. Dib. col. 31. وانظر المجلة البطريرك سنة ١٩٢٩ ص ٢١٧ وسنة ١٩٣٠ ص ٢٢٣ وما يليها .

(٣) الهدى ، فصل ٣٠ — ٣٥ .

كذلك ان تعيين زمن التأليف الذي حدّده غراف بين عام ١٠٤٠ – ١٠٥٠ و ١٠٥٩ لا يمكن ان يكون صحيحاً أو قريباً من الصحيح. لان العرب بعد ان مرّ على فتحهم العراق والشام وفلسطين سنة ٦٣٧ مسيحية زمان قصير [١]، زحفوا على الاراضي اللبنانية قصد الاستيلاء عليها وجعل النصارى اهاليها يدينون بديانتهم المحمدية، مستعيضين عن لغتهم السريانية بالعربية التي هي لغة العرب، وقد طوقوا هذه الاراضي من كل ناحية، ودخلوا الشام وجعلوا في عهد الوليد كنيسة مار يوحنا جامعاً لهم، ومنعوا المسيحيين الحائزين على اكثر وظائف الدولة ان يكتبوا الدفاتر بالرومية او السريانية بل بالعربية، وذلك ليلاشوا اللغات القديمة، ويقيموا على انقاضها اركان اللغة العربية. وهذا برهان ساطع على ان اللغة العربية اخذت منذ ذلك الحين تحتلّ المقام الذي كانت تتمتع به اللغتان الرومية والسريانية بينما هذه الاخيرة اخذت تتراجع القهقرى [٢]. ومن هنا نستنتج ان تأليف الهدى لا يمكن ان يكون قد تمَّ في القرن الحادي عشر بل في اواسط القرن التاسع بعد ان « امر المتوكل بالله اهل الذمة بلبس ذراعين عسليتين على الاقبية والدراريع وبالاختصار على ركوب البغال والحمير دون الخيل وبهدم البيع المحدثة بالاسلام » [٣]، اذ كانت السريانية بعد زاهرة باتساع المعنى. لانه في تلك الاثناء « برز يحيى بن زرعة النصراني اليعقوبي وهو احد المتعلمين في علم المنطق والفلسفة واحد

---

(١) انظر تاريخ الاستاذ ادمون بليبل الجزء الثاني ص ٥٠ – ٥٣، و ١١٢، – والمنارة في عددها الثالث من سنة ١٩٤٢ ص ١٩٣

(٢) انظر الهدى ص ١٥ – ١٦، وسنعود الى البحث عن هذا الموضوع في القسم الرابع من هذا الكتاب، او العدد الرابع

(٣) انظر زيدان في الجزء الرابع من تاريخ الاسلام ص ١٠٠ وما يليها، والمنارة في الموضوع نفسه، وابو الفداء ج ٢ ص ٤٣، المسعودي ج ٢ ص ١١٣، ابن الاثير ج ٥ ص ٣١، تاريخ المشارقة المذكور في تاريخ الاسلام للمؤرخ زيدان ج ٣ ص١٦٧

الناقلين المجيدين من السريانية الى العربية » .

وبحكم الطبع لتعامل النصارى مع العرب ، وبحكم البيئة عليهم نقل الموارنة شرائعهم الخاصة وتقاليدهم القديمة من السريانية الى العربية ، فنقل المطران داود الماروني بعد تقهقر اللغة السريانية وازدهار اللغة العربية كتاب الكمال المنسوب الى الاب القديس من السريانية الى العربية ، بناءً على طلب الأب يوسف الراهب الفاضل، وزاد عليه الشروح الضافية والقوانين العامة التي ألفت من كتاب الهدى جزءَه الثاني كما تقدم القول ، وسنعود الى الكلام عن هذا الموضوع في العدد الرابع .

ثانياً :

لا نكير ان العلامة جراف تعب كثيراً في درس موضوعات الهدى من كل نواحيها ، فاشبعها بحثاً وتنقيباً ، باباً باباً ، وموضوعاً موضوعاً ، تارةً باسهاب وطوراً باقتضاب ، وخاصة الابواب التي شرحت فيها القوانين المتعلقة بالايمان ، والتي كتبت اولاً في الاصل اليوناني او اللاتيني وبعدئذ ترجمت الى السريانية ، وهي التي اخذها المطران داود المترجم عن الاصل واضافها الى كتاب « الكمال » بعد ان عرّبها مع تبديل او تصحيح او شروح وتعليقات كما ثبت من كلامه ومن كلام القس يوسف الذي طلب اليه بالحاحٍ ان يعرب له الكتاب ويشرحه شرحاً وافياً بقوله : « وسبب هذه المخاطبة اني قد سألت الاب الطاهر ايده الله (وهو المطران داود) عدّة مرار ان يفسّر لي الكتاب . . . ويبين ما فيه من التحريم والتحليل الخ » [1] . وقد

---

(١) انظر الهدى ص ٣ .

وَجَمَعَ وشَرَحَ وتَرْجَمَ القسم الثاني منه الذي ليس هو من وضع الاب القديس ، بل من المترجم الذي أخذه عن مؤلفين سبقوه الى وضع ذلك فكتبوا موضوعاته بلغة غير لغتهِ السريانية ، وهي اما اللاتينية او اليونانية كما تقرّره النصوص اليونانية او اللاتينية المحفوظة حتى الان . وقد اثبت ذلك العلامة غراف في مقالته التي نحن بصددها كما رأينا .

وكتاب «الكمال» هذا يحتوي على الثلاثين فصلًا الاولى من مجموع ٥٧ عنواناً ما عدا بعض فصول تعرف من عناوينها ، يتكلم فيها مؤلفها « الاب القديس » عن المباديء اللاهوتية التي ترتكز عليها الديانة المسيحية وعقائدها ، نظير شريعة الايمان ، والصلاه ، والصوم ، والصدقة ، والاوخرستيا ، والقربان ، والتناول ، والزكاة ، مع ما يلامسها من الفوارق الحاصلة بين كل طائفة من الطوائف فيما يتعلق بالايمان والتناول والصوم الخ . واما الفصول الباقية وعددها ٢٧ باباً ، وهي التي تؤلف الجزء الثاني من الهدى فليست من وضع الاب القديس كما قلنا ، بل من اجتهـــاد المترجم الذي اضافها الى كتاب « الكمال » . وسمّى الجزئين بكتاب « الهدى » .[١]

ومما تجدر الاشارة اليه أن كتاب الهدى لا يذكر الفصول التي شرحها المؤلف فيه فصلًا فصلًا ، ولا يقسمها الى ابواب متناسقة متلاحمة ، بل يضع لها عناوين فقط ، وقد تكون احياناً غير كافية لأداء المعنى المطلوب بل انها تؤدي معنىً يخالف ما يتضمنه عنوان الفصل . ولكن سهل على المطالع ان يتبين شطري الكتاب لتميز احدهما عن الاخر كل التميز ، لان الشطر الاول يشرح العقائد الدينية والشطر الاخر يتبسط بذكر القوانين التي كان يستعملها الملوك المسيحيون ، كقسطنطين ولاون وغيرهما وما الى ذلك من الامور القانونية ــ الحقوقية .

---

(١) أُنظر كتاب « القضاء الماروني » للعالم المونسنيور يوسف زياده أحد كتبة اسرار البطريركية المارونية ، في المقدمة .

اما كون « الاب القديس » هو المطران ارسانيوس اسقف العاقورة ، كما ذكره العلامة غراف ، لمجرد ورود اسم المطران ارسانيوس المشار اليه في الفصل الاول من كتاب الهدى وتلقيبه بالاب القديس حيث يقال : « وقد ذكرت خبرها (اي الفرقة) وشرحت بيان حالها في الرسالة التي كتبتها الى الاب القديس ارسانيوس اسقف عين قرة او العاقورة [١] » فهذا ما لا يمكن اثباته اطلاقاً . اولاً لان الرسالة الوارد ذكرها في الهدى هنا قد كتبها مؤلف الهدى نفسه او مترجمه نفسه الى المطران ارسانيوس العاقوري كما يظهر جلياً لمن يطالع هذه الفقرة بتجرد ونزاهة ، فلا يعقل ان يكتب هو نفسه الى شخصه عينه ويلقّب ذاته نفسها بالاب القديس . ثانياً لان هذه الرسالة لا تشير قط الى صفة التأليف التي اراد غراف ان يسندها الى المطران ارسانيوس العاقوري من مجرّد ذكر اسمه في تلك الرسالة . ثالثاً لان هذه الرسالة ، كما يقول العلامة دريان [٢] « غير موجودة ، وعصر ارسانيوس العاقوري غير معروف ، ولم يأتِ احدٌ على ذكره في كل الآثار التي بين ايدينا الا في هذه المقالة » . واخيراً لان المطران ارسانيوس هذا لم يذكره احدٌ من العلماء والمشتغلين في التاريخ ، ولم يُعرف عنه شيء يؤيد ذلك البتة ، بل بالعكس نرى علماء الموارنة يؤكدون ان الاب القديس يعني اسقفاً غير المطران ارسانيوس فاضلاً تقياً او رئيساً ورعاً جليلاً . وقد استغنى عن ذكر اسمه بوصفه بالاب القديس لزيادة شهرته وتقواه ، ولان الاقدمين كانوا يلقبون كل اسقف تقي او كاهنٍ ورع فاضل بالاب القديس [٣] .

---

(١) الهدى ص ٣٨

(٢) انظر المطران دريان في لباب البراهين الجلية في امر الطائفة المارونية ص٢٣١ . وراجع ردنا المشار اليه ص ٨ وما يليها .

(٣) انظر ردنا المشار اليه ص ٨

اما نحن ، فغب البحث والتنقيب المرتكز على بحوث العلماء والمؤرخين المدققين ، فلا نعتقد ان كل ما اكّده العلامة غراف مما سبق وصفه هنا يخالفه التوفيق فيه ، كما اثبتنا ذلك مطولاً في المقدمتين اللتين صدرّنا بهما كتاب الهدى وفي النشرة التي طبعناها في مجلة « الشهباء » الحلبية عام ١٩٣٥ ، تفنيداً لكل رأيٍ يخالف رأي علماء الطائفة الثقة وباقي المؤرخين الاجانب الفضلاء .

فمن الواضح الذي لا يقبل الريب ان « الاب القديس » انما هو مؤلف الهدى كما اجمع المؤرخون عليه، لان هذا الكتاب نفسه يقرّر ذلك في الرسالتين المصدَّر بهما : فقد جاء في بدء الرسالة الاولى[١] التي ارسلها القس يوسف الراهب مخاطباً المطران داود تحت هذا العنوان « نكتب الرسالة التي من الاخ الخيِّر مار يوسف الراهب القس الى المطران داود » عام ١٠٥٨ — ١٠٥٩ ما هو بالحرف الواحد[٢] : « اني قد سألت الاب الطاهر ايده الله عدة مرار ان يفسر لي الكتاب المنسوب الى الاب القديس وينقله من اللغة السريانية الى اللغة العربية ... » . فالاب « الطاهر » اذاً هو المطران داود الموجهة اليه رسالة الاب يوسف الراهب ، والاب « القديس » هو مؤلف الكتاب

وهو غير المطران المذكور . والدليل على ذلك اولاً ، ان هذه الحقيقة تظهر جلياً لكل من قرأ العبارات المتقدم ذكرها بتجرد ونزاهة . وثانياً ان المطران داود يقول في الجواب الذي طيَّره الى الاب يوسف المشار اليه رداً على رسالته ، ما يؤيد ذلك ، وهذا قوله[٣] : وصلتني رسالتك ايها الاخ الروحاني ... وفهمت غرضك

---

(١) انظر الهدى ص ١

(٢) انظر الهدى ص ٣

(٣) انظر الهدى ص ٤ ، ٦ ، و١٣

المقصود من منفعة الاخوة المباركين وقبلتها بفرحة عظيمة ... سألت أَرشدكَ الله ان انقل لك الكتاب المرسوم بكتاب الكمال المنسوب الى الاب القديس من اللغة السريانية الى العربية ... فتأملتُ الكتاب المرسوم بكتاب الكمال المنسوب الى الاب القديس ... المشتمل على عامة علوم الدين ... » . فيستدل من هذا ان المطران داود ، صاحب هذا الجواب ، هو غير المؤلف ، اذ لا يعقل والحالة هذه ان يقول المطران داود هذا الكلام عن نفسه ، ملقباً ذاته بالاب القديس ، بل ان هذا القول « الاب القديس » يعني اسقفاً آخر تقياً فاضلاً او رئيساً ورعاً جليلاً ، كما يعتقد جميع علمائنا الافذاذ ، وقد استغني عن ذكر اسمه بوصفه « بالاب القديس » لزيادة شهرته وتقاه ، وغزارة علمه ومداركه الواسعة ، كما اثبت سيادة الدبس ودريان في مصنفاتهما المشهورة [1] .

« ومن الواضح ايضاً ان المترجم انما هو المطران داود الماروني ، لان الكتاب نفسه ، يثبت ذلك : فقد ورد في رسالة المطران داود ، التي اجاب بها القس يوسف ، نازلاً عند رغبته في ترجمة الكتاب ، ما هو بالحرف ، وقد سبق ذكره [2] : وصلتني رسالتك ... سألت ارشدكَ الله ان انقل لك الكتاب المرسوم بكتاب الكمال المنسوب الى الاب القديس من اللغة السريانية الى اللغة العربية وان اشرح جميع ما فيه من الفصول والعلل ، فأجبتك الى ذلك وابتدى باسم الله عز وجل » . فمن هذا يبدو جلياً ان المطران داود هو المترجم ليس إلا ، فانه قد ترجم كتاب الكمال الذي يؤلف الجزء الأول من الهدى ،

(١) تاريخ سوريا للدبس ج ٥ ص ٥٤٠ وروح الردود له ايضاً ص ١٠٠ وما يليها ؛ ولباب البراهين الجلية للعلامة دريان ص ٢٢٠ — ٢٢٢ . ثم راجع مقالنا عن « رد على مقال حضرة الاب فيليب السمراني المرسل اللبناني » ص ٧ — ١١ حيث اسهبنا بالكلام عن هذا الموضوع ولا حاجة الى التكرار ، انظر المقال في آخر هذا الكتاب .

(٢) راجع الهدى ص ٤ ، ٦ و ١٣ .

وختاماً نقول بايجازٍ ان المناظرات اللاهوتية العتيقة التي نشرها مؤلف الهدى تدل على ان عبارات كثيرة ونصوصاً عديدة أخذت عن كتب النساطرة وتعاليمهم وقد ألفها كاتب مصري الجنس . كما انها تدل من ناحيةٍ اخرى على ان الكتابات القانونية المجموعة قديماً اخذت عن الاصل البيزنطي الملكي . ومنها يتضح جلياً التنافس والتطاحن العظيمان اللذان كانا سائدين بين الكنائس الشرقية على اختلاف مذاهبها وطوائفها ، وبين كل كنيسة منفردة ايضاً في الحياة الروحية والاعتقادية والطقسية وفي الآداب والانتاج العلمي ، على الرغم من الفوارق الكثيرة التي كانت تميز بعضهم عن بعض مذهباً ومعتقداً .

واما ما هي قيمة هذا الكتاب القانوني في الطائفة المارونية ، وما الحد الذي وصل اليه باعتباره الركن الاساسي الذي ترتكز عليه باقي القوانين البيعية في الطائفة المذكورة ، فهذا ما لم يكن لي رغبة في شرحه حالياً بل سيكون موضوع بحثٍ آخر سيرتكز على دراسات تاريخية وقانونية مستفيضة في سانحةٍ اخرى .

هذا هو نص المقالة التي كتبها العلامة جورج جراف بالالمانية ، نقلناها الى لغتنا العربية ، وابدينا رأينا فيها . فقادنا الاستطراد الى اثبات نبذة موجزة عن تاريخ الطائفة المارونية ، على اختلاف اطواره واحواله ، منذ النشأة الاولى حتى الان ، آملين الا نخلو من فائدة لجلاء الحقيقة الناصعة ، محاولين شرح ما يؤخذ على المؤلف جورج جراف بشأن مبحثه في قضية « وحدة المشيئة في السيد المسيح » وسواها ، مع تفنيد مزاعمه المستندة الى ما كتبه من قبله المستشرق الالماني بومسترك في المجلة نفسها وتأييد ما يجب تأييده . وعليه نقول :

اولاً

تناول العلامة جورج غراف ، من جملة ما استقصى البحث عنه، في دراسته هذه ، قضية مؤلف الهدى ومترجمه وزمن التأليف ، مستنتجاً بالاستناد الى البراهين الداخلية وغيرها ، ان المؤلف انما هو المطران ارسانيوس اسقف عين قرة ، اي العاقوره ، الملقَّب « بالاب القديس » الذي ورد ذكره في الهدى ، ومؤكداً ان هذا الاسقف قد أَلف في اللغة السريانية بين عام ١٠٤٠ — ١٠٥٠ و١٠٥٩ الجزء الاول من كتاب الهدى ودعاه كتاب « الكمال » . واما الجزء الثاني منه ، وهو الذي يتضمن القسم الاكبر من موضوعات الهدى كشرح المجامع الاربعة الاولى ، والقوانين التي وضعت فيها مراسيم الملوك المسيحيين الاقدمين كقسطنطين وتاودوسيوس ولاون وغير ذلك من القوانين ، فانما وُضع قبل تأليف الهدى بزمانٍ طويل ، وبالتالي ليس هو من وضع المؤلف نفسه المشار اليه بل اخذه عن عدة مؤلفاتٍ سابقة .

وأثبت غراف بتأكيد ان المطران داود الماروني هو الذي عرّب الكتاب المنسوب الى « الاب القديس » والمعروف بكتاب « الكمال » مضيفاً اليه ، بدافع المصلحة العامة والحاجة الضرورية في ذلك الوقت ، شروحاً كثيرة لمؤلفين لم يذكر اسماءَهم لشهرتهم ، ونصوصاً متنوعة وقوانين عديدة كانت جارية الاستعمال عصرئذٍ ، مع تبديل فيها وتغيير حذفاً او زيادة ، وسمّى كل هذه الاضافات مع الجزء الاول ، كتاب « الهدى » الذي هو بين ايدينا الان .

الرسالتين المصدر بهما هذا الكتاب . ولكنّ هذا المؤلف « الاب القديس » لا يمكن ان يكون ايضاً هو نفسه مؤلف الجزء الثاني من الهدى كما سبق الكلام ، بل ألف الجزء الاول وحده . لان الجزء الثاني يحتوي كما رأينا على مباحث متنوعة ومواضيع مختلفة متقطعة منقولةٍ عن كتبٍ قديمة متباينة ، في حين ان الجزء الاول من كتاب الهدى كان يسمى في الاصل « كتاب المرشد او الكمال » حسبما ورد في الرسالتين المذكورتين .

والمطران داود الماروني ترجم كتاب الكمال هذا وألف في الوقت نفسه الجزء الثاني من الهدى مفسراً ومختصراً وشارحاً كل ما يحتويه حالياً كتاب الهدى بجزئيه الاول والثاني . ومن يطالع الرسالة التي أجاب بها المطران داود الراهب القس يوسف الماروني الذي طلب منه بالحاحٍ ترجمة الكتاب ، يظهر له جلياً اهتمام المطران داود بكتاب الكمال وسعة معارفه الكنسية على اختلاف انواعها ، وآدابه العلمية ، وضرورة الحاجة الى وجود هذا الكتاب .

واما اذا كان المطران داود هذا قد اثبت في الرسالة التي صدّر بها هداه « انه نقل الكتاب من السرياني الى العربي » فقوله هـذا يمكن اعتباره غير صحيحٍ بالنظر الى مجموعة القوانين التي تؤلف جزءه الثاني وبالنظر الى كتاب الكمال الذي يؤلف الجزء الاول منه . والبرهان على صدق كلامنا ، عبارات في الجزء الاول مثلًا مكتوبة بنصها العربي كالتي اخذها المؤلف عن ايليا النصيبي كما رأينا ، وعن ابي الفرج عبدالله بن الطيب ، وعبارات اخرى حفظت في الجزء الثاني من الهدى كالفصل الثامن والعشرين مثلًا الذي يتكلم فيه المؤلف عن المسلم الشيخ ابي الفوارس الحسن ابن محمد المهدي .

ومما يؤيد ذلك ايضاً ان بعض المجموعات القانونية الواردة في الجزء

الثاني من الهدى كانت في الاصل مكتوبة بلغة غير العربية ، ولكنها ترجمت الى العربية قبل ظهور كتاب الهدى الى حيز الوجود وراج استعمالها بين الناس كثيراً ، وقد اخذها مترجم كتاب الكمال وادخلها في كتابه وكانت وقتئذٍ مترجمةً الى العربية . من ذلك مثلاً « الاحكام » المنشورة في صدر الجزء الثاني في الفصول الـ ١٤ حتى ٢٢ . ومنها ايضاً « قضايا الملوك » المطبوعة في الفصلين الاخيرين من الهدى في صفحاته ٥٦ – ٥٧ ، وغير ذلك كثيراً مما لم نتمكن حتى الآن من الوقوف عليه جيداً .

ولا يضاد ذلك ما ورد في الهدى من ان بعض فصول فيه كالفصل السابع والعشرين مثلا « قانون القديس يوحنا الانجيلي » كانت موضوعةً في السريانية في الاصل ونقلت بعدئذٍ الى العربية عن كتاب آخر عربي لان هذا يجب ان يفسر بان ذلك الفصل المذكور كان مترجماً والباقي لم يكن بحاجةٍ الى تعريب وتفسير . هذا من جهة المؤلف والمترجم .

واما بالنظر الى زمن التأليف فنقول : بما ان الجزء الاول من الهدى المنسوب الى الاب القديس وردت فيه كتابات عديدة لمؤلفين كثيرين غير معروفين ، انما بعضهم مات عام ١٠٤٣ وبعضهم توفي عام ١٠٤٩ ، لذا نستطيع الاستنتاج بجزمٍ ان هذا الجزء الاول قد خط بين سنة ١٠٤٠ – ١٠٥٠ و ١٠٥٩ للميلاد . وفي هذه الحال كان باستطاعة المؤلف السرياني ان يدخل على كتابه السرياني ترجمة بعض نصوصٍ عربية مكتوبة بهذه اللغة الاخيرة ، او ان المترجم المطران داود الماروني هو نفسه كان قد ادخلها على كتابه الذي صاغه وقت الترجمة لكتاب الكمال . ولا ريب ان الرأي الاخير هو المرجح لدينا لان المؤلف بعد استشهاده المسهب بكتاب ابن الطيب يعود الى شرح قضيته فيبدأها على هذه الصورة : « الاب القديس يقول . »

المنتخبين . ولكن لا ندري أكان يدعى احد مطارين تلك الطوائف المسيحية المختلفة في تلك البلدان : فلسطين وسوريا ومصر وغيرها ، ام كان اسقفاً كبير مطلق الصلاحية منفرداً بالحكم على كل مسيحيي تلك البلاد ؟ ان الامر الاخير اذا سلمنا به ، يمكن ان ينطبق على الموارنة الذين كان عددهم في القرن العاشر ما يزال قليلاً بعد ، وطائفتهم كانت في بدء ترتيب شأنها وتنظيم صلاحيات بطريركها واساقفتها واكليروسها ، كما انه يمكن انطباقه ايضاً على النساطرة الذين لم يكن عددهم كبيراً ولم تكن طائفتهم قد ترتبت ولا ابرشياتهم قد تنظمت تنظيما نهائياً . بيد انه يظهر جلياً ان واضع هذه الرسالة لم يكن نسطورياً لان الكلام في هذا الفصل عن السيد المسيح لا يدل اطلاقاً على اعتقاد النساطرة بهذا الصدد .

ثم ان عنوان هذه الرسالة ومضمونها عينه هما شديدا الغموض ، الامر الذي يوقعنا في ريبٍ عميق : اكان هذا الفصل يدعى قطعة أدبية ام كان مختصراً عنها ؟ [١] . وقد حاول مؤلف هذه الرسالة ان يشرح لفظة « المسيح » فقال عنها في مبتدأ كلامه : لقد سألني بعض المتحققين عن المسيح لماذا سمى مسيحاً فقلت وبالله التوفيق اني خصصتك ادام الله عزك بما تسره ... واستشهاداته كلها كان يصوغها بمثل هذه

---

(١) يجدر بنا في هذه المناسبة ان نذكر هنا أيليا الجوهري (al-Gauhari.) مطران أورشليم الذي ألف كتاباً لاهونياً شرح فيه ما يتفق عليه النساطرة والملكيون واليعاقبة في شأن الايمان والمعتقد . ونذكر ايضاً ان ايليا هذا كثيرا ما كان يلقب باسم ايليا الآخر الذي صار فيما بعد اسقفاً على مدينة الشام في ١٥ ايلول سنة ٨٩٣ ونسب اليه تأليف احدى المجموعات القانونية القديمة العهد .

على ان المبحث الوارد في الهدى لا يتفق مطلقاً مع المخطوط الوانيكاني رقم ١٥٧ (ص ٤ — ١٥) المنسوب الى المؤلف ايليا الشامي المار ذكره . ومن أراد الوقوف على تاريخ اساقفة النساطرة في مصر واورشليم وعلى آثارهم في بلاد الشام فعليه بمطالعة « المكتبة الشرقية » للعلاّمة السمعاني الشهير في مج ٣ ف ٢ ض ٧١٣ ، ٧٤٢ و ٧٥٦ .

العبارات : روى احد الثقاة حديثاً وهو ... قال بعض القديسين قولاً وهو ... وسأل بعض المتكلمين عن قتل السيد المسيح كيف جرى فقال ... وسئل بعض الحكماء عن الثالوث فقال ... » [1]

والان لا يبقى امامنا للبحث الا موضوع الفصل التاسع والعشرين الهدى (ص ٢٤٣ — ٢٤٨) . فهذا الفصل يتكلم عن « تفسير الباتريمون) اي الآبانا وهو على الارجح موضوع ورد ذكره في مجموعة الكاهن يوسف الاسكندري المنسوبة الى القديس باسيليوس الكبير (راجع عنها العلامة ريدل الالماني في كتابه المذكور سابقاً ص ١٣٩) .

واخيراً لنرجع الى ما كنا بصددهِ في اول كلامنا عن كتاب الهدى ، بعد هذا الدرس العميق والاطلاع الدقيق ، فنستطيع شرح بعض احوال تتعلق بنشأته ومصدرهِ فنقول :

ان مؤلف الهدى انما هو « الاب القديس » كما ورد مراراً في

---

(١) ان ما يعقب ذلك يمت بصلة مباشرة الى ما قبله ، فقد تكلم المؤلف عن ميلاد العذراء البتول في بيت لحم وعما صنعه يوحنا المعمدان في نهر الاردن ، مشيراً الى ذكر عيد الدنح وما اظهره يسوع عند دخوله اورشليم لاقتداء البشر فسماه ايليا (؟) يوم الشعانين ، وعيد صعوده الى السماء فسماه يوم السلاق . ثم تكلم عن تبشير السيد المسيح قبل قيامته فسماه شرع الدين او شريعته ، وعما قاسى من الآلام والتعب توصلًا الى عيد الفصح وعما افتخرت به الخليقة يوم نزول الروح القدس على الحواريين في صهيون فسماه العنصرة اي البنطيكستي ، وعما ظهر يوم ارتفاع الصليب فسماه هكذا . وبعدئذ المح المؤلف الى بشرية المسيح فذكر انه من سليلة ابراهيم والنبي والملك داود وانه مولود من العذراء مريم وانه يقال له « الاهنا معنا » ، وانه « الكلي الكمال والحكمة الازلية وهو انسان مثلنا » .

ان ما ورد في هذا الفصل من العبارات السريانية انما هو برهان قاطع على ان هذا المبحث كتب باللغة السريانية اصلا وترجم عنها بعدئذٍ . وقد حفظت هذه التعابير السريانية في اللغة العربية نفسها . وفي هذا الباب نقول ان عدم اطلاع المترجم وقصر باعه في التعريب زادا كثيراً في غموض مخطوطنا وتعقيده وغرابة فهمه .

عن معرفـة سيدنا يسوع المسيح بحقيقتهِ وكمال نورانيتهِ وظهوره في خلقته البشرية وعن صفته الجسمانية التي ظهر بها متأنساً الى خلقه وهو في نفس الحقيقة غير جسم بل نور صمدي . اعلم علمك الله الخير ان السيد المسيح والآب الرحيم والمؤدب الحكيم ... هو الاصل لكل الاشياء جميعها ... »

ان الوقت الذي كتب فيه هذا المبحث عيّنه المؤلف في افتتاحيته التي ضمنها البركة والتحية للخليفة الذي كان يدعى عصرئذٍ المعز لدين الله، هو ابو التيم معاد بن اسماعيل المنصور ، وكان من سليلة الفاطميين من القيروان . تولى الحكم سنة ٩٣٥ واستولى على مصر سنة ٩٤٩ بقيادة احد قواده الماهرين جوهر . وقد جاء مصر عام ٩٧٣ ووضع الاساس لمدينة القاهرة حيث مات في اليوم الـ ١٩ من شهر كانون الاول سنة ٩٧٥ .

ولذا نقول اذا كان المؤلف المسيحي صدّر كتابه الى الملك بالتحية معتبراً نفسه كمن يكتب الى ملكه وسيده حسبما ورد في الهدى ، فمن اللازم ان يكون هذا المؤلف من مرؤوسي الملك وابناء رعيته وانه كان في ارض الفراعنة وليس في المغرب بعيداً عن مصر وذلك قبل عام ٩٧٣ [١] . وهكذا يمكننا الاستنتاج ان هذا البحث وضع في شهر حزيران بين سنتي ٩٧٣ و ٩٧٥ . واما المخطوط فبعد عشرين سنة من ذاك التاريخ اي بين ٢٢ من شهر حزيران الى ٢٠ من شهر آب سنة ٩٩٦ للميلاد [٢] .

---

(١) ان النص المنشور في الهدى غير مفهوم بالكليه .

(٢) في ذلك الزمان بين سنتي ٩٧٠ و ٣١ حزيران سنة ٩٧٢ كانت جيوش المعز لدين الله قد استولت على دمشق وتوابعها ، ولكن ملكه لم يكن بعد قد توطدت اركانه . فلو كان مؤلف الهدى عائشاً وقتئذٍ وكتب كتابه هذا في سوريا ذاك الحين لكان من الواجب عليه ان يدعو الملك « الخليفة » وليس ملكاً او اسما آخر .

اما الشيخ ابو الفوارس الحسن ابن محمد المهدي الخ الذى ورد ذكره في صدر الرسالة فهو الذي اشار بتأليف هذا المبحث او اشير اليه بتصنيفهِ . وقد كتبه بلغةٍ عربيةٍ طبعاً لانه موجه الى مسلم لا يجيد قراءة اللغة السريانية . وما يتبع من العبارات فيها البرهان الكافي للدلالة على ان الرسالة وضعت باللغةِ العربية دون السريانية ، مثلًا ما جاء في صفحة ٢٣٨ قوله : « وله في اظهار الصليب أربع اشارات منها ان الصليب اصله خشبتان ، فاذا وقع على بعضها بعضاً صارت اربع اطراف لان اصل لا اله الا الله اربع كلمات ويوجد وجه آخر هو ان باسم الله توجد اربع حروف . »

وقد أتى المؤلف ايضاً بتشبيه آخر عن سر التثليث فقال ما حرفيته : « سئل بعض الحكماء عن الثالوث فقال : الالف واحد في الخط وهو ثلاثه في العيان لا ال » . فماذا ترى يعني المؤلف بحرفي اللام والالف اللتين يشبههما بحرف الالف ؟ هذا غير ظاهر ولا مفهوم . ولكن الارجح انه كتب في النص الاصلي « الف ولام » اعني ال التعريف الرابطة التي تدخل على الاسم ، وهي هنا مكتوبة بترتيب معكوس اي « لام الف » بدلاً من « الف ولام » .

والآن لننتقل الى شرح القسم الثاني من هذا الفصل فيتضح لنا لاول وهلة ان المؤلف استشهد في بحثه هذا بكتابات بعض العلماء غير المعروفين لدينا ، مصدراً رسالته باسم علم لم يذكر صفاته بل لقّبه باسم « ايليا صاحب (صديق) السيادة المنتخبين من ارض بيت المقدس ، من مقاطعة فلسطين ، من جهات اورشليم وطبرية والشام (؟) التابع لكرسي المغرب والاسكندرية » .

ومما لا ريب فيه ان ايليا هذا كان صاحب مقام رفيع في المراتب الكنسية لان منزلته كما جاء في الهدى انما هي بين اصحاب السيادة

(٧٠) : ٧٣ . و ٦١ — ٦٨ : ٧٤ — ٨١ . و ٦٩ : ٩٠ و ٧٠ (٨٠) :
٩١ . و ٧١ — ٧٥ : ٩٢ — ٩٦ . و٨٧ (كذا) : ٩٧ . و٩٧ : ٩٨ .
و ٨٠ : ٩٩ . و٨١ — ٨٩ : ١٠٠ — ١٠٨ . و٩٠ : ١٠٩ . و ٩١ : ١١٠ .
و ٩١ مكرر : ١١١ . و ٩٢ : ١١٢ . و ٩٣ : ١١٣ . و ٩٤ — ٩٩ :
١١٥ — ١٢٠ . و ١٠٠ : ١٢١ . و ١٠١ : ١٢٢ . و ١٠١ مكرر : ١٢٣ .
و ١٠٢ : ١٢٤ . و ١٠٣ : ١٢٥ . و ١٠٤ : ١٢٦ . و ١٢٧ (كذا) :
١٢٧ . و ١٢٨ — ١٣٠ : ١٢٨ — ١٣٠ .

وفي هذا القسم الاخير نرى مباحث لاهوتية مبعثرة هنا وهناك بين المجموعات القانونية المشار اليها وهي اولاً مبحث في الفصل الخامس والعشرين عنوانه : « فصل في سؤال المخالفين لنا عن سيدنا ومخلصنا يسوع المسيح ربنا والهنا » (ص ٢١٩ — ٢٢٢ من الهدى) . (والمؤلف يعني « بالمخالفين » هنا « الهراطقة » ولكنه يعني بالهراطقة على الارجح غير المؤمنين) .

ان هذا الفصل انما هو درس تعليمي بصورة رسالة عن السيد المسيح كالهٍ وانسانٍ معاً ومثل وسيط ايضاً اي « وكيل عن الناس » كما جاء في الهدى ، يبتديء بهذه الكلمات : « اعلم علمك الله الخير والهداية الى معرفتهِ وقرّبك الى رحمتهِ ان سيدنا يسوع المسيح يوصف في الكتب المنزلة التي لا شك نؤمن بها ، على ثلاثة وجوه » : اعني انه اله وانسان ووكيل » . ولكن القسم الاكبر من موضوع هذا الفصل يدور حول النصوص والمواضع التي وردت في الكتاب المقدس لشرح هذه القضية الخطيرة . فاثبات « الالوهية في السيد المسيح » مثلاً وارد في انجيل يوحنا ١ ، ٣ — ١٢ . و١٤ ، ٨ — ١٠ . وفي رسالة بولس الى العبرانيين ف ١ عدد ٣ مع شرحها في عدد ٢٧ . وفي يوحنا ايضاً ف ١٠ عدد ٣٧ — ٣٨ . واثبات انسانية المسيح له

المجد وارد في يوحنا ايضاً ف ١ عدد ١٥ . وف ٥ عـــدد ١٩ . وف ٨ عدد ٣٨ و ٤٠ . وفي رسالة بولس الاولى الى تلميذه تيموتاوس ٢ ، ٥ . واما اثبات توسط السيد المسيح فقد ورد في انجيل يوحنا في الفصل الثاني عدد ١٩ و ٢١ .

اما المبحث اللاهوتي الثاني فقد جاء دوره في الفصل الحادي والعشرين من الهدى (ص ٢٣٥ – ٢٤٩) حيث يوجّه المؤلف كلامه الى احد المسلمين ، شارحاً له الوهية السيد المسيح ومصدر بشريته ، وموته على الصليب ، ومعنى اسم المسيح وسر التثبيت . ومما يجدر الانتباه اليه ان عنوان هذا الفصل يمهّد امامنا السبيل الى معرفة زمن التأليف والاسباب التي حدت صاحبه الى تصنيفه ، وهو : « هذا ما نقل من نسخة بدر عيد بن ابراهيم المعروف بابن عديان الكاتب [١] . ذكر انه نقله من نسخة وجدها [٢] مؤرخة في شهر جمادي الاول في سنة ٣٨٦ » . في حين ان هذا العنوان لا يمت بأدنى صلة الى موضوع الفصل بل مصدر المخطوط ونشأته . ويبدأ فيه الكلام هذا :

« اخبرنا الشيخ ابو الفوارس الحسن ابن محمد المهـدي رواملي ابن احمد الحلبي ... رضى الله عنه وعن مولانا المعز لدين الله تعالى امير المؤمنين وعن آبائه صلوات الله عليهم اجمعين . سألت يرحمنا الله واياك

---

(١) لقد احسن الناشر باصلاحه لفظة الكتاب او الكتب المطبوعة في الهدى بلفظة « الكاتب » لان الالف غالباً تسقط في هذا المخطوط .

(٢) ومما يجدر الانتباه اليه هنا ان هذا الفصل قد سقطت فيه اغلاط كثـيرة اوفر من كل فصلٍ اخر سواه . ففي العنوان وحده وقعت عدة اغـلاط هي كما يلي : « وجدناها » والاصح « وجدها » كما كتبناها في المتن ، وقد وردت في مخطوط باريس . ثم « مورکا » وقد اصلحناها بلفظة « مؤرخ » وحمدي وصوابها « جمادي » كما وضعناها في المتن .

السادس والسابع والخمسين (ص ٣٥٦ – ٤٠٤) . وهو مجموعة جديدة من المراسيم في حقل الآداب الشرقية الكنسية القانونية ، معروفة باسم « قضايا الملوك المنتصرين وهم الملك قسطنطين المنتخب وتاودوسيوس ولاون المشهورون بصحة الايمـــان والمستحقون حسن الذكر الذين وضعوا السُنّة الحميدة والحدود المحمودة في بلادهم وبها حكموا عـلى اهل طاعتهم . »

« فهذه المجموعة متخذة دون ترتيب عن الاصل اللاتيني السابق للملك يوستينيانوس . وقد كتبها باللغة اليونانية في احـــدى جهات سوريا الشمالية ، مقر البطريركية عهدئذٍ نحو عام ٤٧٦ ، احد الاكليريكيين الذي كان يهتم بالامور الحقوقية ، مع انه كان غير متضلع من علم الحقوق والقانون . وفي نحو القرن الثامن تقريباً ترجمها من جديد عن السريانية كاتب آخر غير معروف لدينا . وهذه المجموعة الجديدة السريانية – الرومانية كانت مستعملة بحذافيرها لدى جميع الطوائف الشرقية المسيحية ، وقد حُفظت لدى الملكيين واليعاقبـة والنساطرة ايضاً كدستور خاص بهم . اما اليعاقبة فقد أضافوها الى « الكتب الاربعة من شرائع الملوك » نظير جزءٍ لاحق بها .

« واذا اردنا معرفة نشأة هذه المجموعة المذكورة وميزاتها الخاصة ، والمقام الذي تتمتع به ، واصلها وترجمتها ، وما لها من روابط بباقي المجموعات القانونية ، فعلينا بمطالعة كتب الذين نشروا هـذه القوانين كالعالمين المشهورين كارلو جورج برونس ، وادوار شاسو ، في كتابهما المطبوع في المانيا عـــام ١٨٨٠ [١] ، والعالم ادوار شاسو نفسه في

---

(١) انظر كتاب القوانين السرياني – الروماني في القرن الخامس ، وهو ثلاثة اجزاء .

كتاب آخر مطبوع في برلين سنة ١٩٠٧ بعنوان « الكتب السريانية الحقوقية » ، وله مقدمة ذكر في الصفحة الثلاثين منها المخطوط الواتيكاني الذي طبعه الآن الاب فهد في كتاب الهدى[1] .

والمعلوم ان النص العربي كان قد طبعه قبلاً العالم ادوار نفسه في مصنفه الذي نشره بالاشتراك مع زميله برونس في صفحات ٦٧ — ٩٤ ، نقلاً عن مخطوط آخر كتب قبل عام ١٤٠٨ مخطوط في مكتبة اكسفورد .

فاستناداً الى هذا النص المطبوع قديماً يمكن إصلاح اغلاطٍ كثيرة وقعت في المخطوط الواتيكاني الذي طبعه الاب فهد ، وشرح الفاظٍ عديدة قد اشكل فهمها ، وتنظيم فصولٍ وردت مشوهةً ومغلوطاً فيها . ولكن تسهيلاً للذين يطالعون الهدى المطبوع نضع هنا لائحة بالفصول الواردة فيه والفصول التي تقابلها وقد ورد ذكرها في النشرة القديمة ، مشيرين الى الاولى بالاعداد الدالة على الابواب ، والى الثانية وهي معروفة بكتاب السيرو — رومانو بالاعداد التابعة للاعداد السابقة ، بعد نقطتين ، على الوجه الآتي :

قانون ١ — ٣٠ من الهدى : يقابله ١ — ٣٠ من كتاب السيرو — رومانو . و٣١ — ٤٢ : ٣٢ — ٤٣ (ان قانون ٤٣ من الهدى هو غير مرقوم) . و٤٤ — ٤٦ : ٤٤ — ٤٦ . و٤٧ : ٤٨ . و٤٧ مكرر : ٤٩ . و ٤٨ : ٥٠ . و ٤٩ : ٥١ . و ٤٠ (٥٠) ٥٢ . و ٤١ — ٤٩ : ٥٣—٦١ . و ٥٠ (٦٠) : ٦٢ . و٥١ — ٥٨ : ٦٣ — ٧٠ . و ٥٩ : ٧٢ . و ٦٠

---

(١) طالع كتاب العالم المستشرق الايطالي كارلو الفونس نللينو (Nallino) المطبوع في سنة ١٩٣٠ ، عن كتاب السيرو — رومانو (sul libro Siro-Romano e sul presunto diritto siriaco : studi in onore di Pietro Bonfante.) (ص ٢٣٦ — ٢٤٥ وص ٢٥٩ — ٢٦١) .

بتحديدهما مضمون هذا الفصل . ولذا فاني احاول الآن ايراد تلخيص عن موضوعه كما يأتي :

« قالت الجماعة انه لا ينبغي ان يقرأ في كنيسة الله جليان فولوس الحنفي الذي كتبه ليبطل قول بولس السليح الذي تكلم بروح القدس. فقد كان فولوس الحنفي طاغياً . فلا يقبلن جليانه ولا جليان بطرس ولا صحيفة يهوذا الثانيـة ولا صحيفة يعقوب والخمسة عشر رسالة التي وضعها ليبطل الاربعة عشر رسالة التي كتبها الرسول بولس بروح القدس ويبطل ايضاً بفعله الرديء الابركسيس المقولة بالروح القدس والرسايل القاتوليقيا (Cattolica) وانوقس بطرس وبولس الذي يسمَّى هرما الراعي وصحيفة برنابا التي تسمَّى تعليم السلّيحين . فمن قبل فولوس هذا الطاغي المنسوب الى قوله او قرأه او سمعه فليس له حظ مع السليحين . »

وبعد هذه الكتابة الغامضة يعدّد المؤلف في الهـدى العقوبات والتأديبات التي تلتصق بقاريء هذه الكتابات « وبكل احد من بني البيعة ترك الكتب المقدسة ، كتب الكنيسة العتيقة والحديثة اعني الستين مصحفاً ...» قائلاً : « ومراراً عديدة اجتمع السوندس في مدينة القسطنطينية مع القديس قسطنطين الملك ليجربوا (اي ليفحصوا) في واحدة من هذه الاسفار[1] فلم يروا في ذلك شيء من الحقيقة ولم يقبلوه ... وقد ذهبوا ايضاً الى نيقية ... ولا مغفرة لمن يقرأ هذه الكتب ويستجريء عليها وقد نهينا عنها في صدر كتابنا هذا ... »

لا ريب ان الكتب المحرمة قراءتها لكونها مغلوطاً فيها ولانها من

---

(١) هنا كما في باقي القوانين يختلف النص المطبوع في الهدى كما رأينا عن النص المنشور في كتاب الاب مكاريوس ولذا فاني احاول الآن ذكر الامكنة التي تتفق فيها النسختان .

تأليف الطاغي فولوس الحنفي كما جاء اعلاه هي الآتية : جليان فولوس وجليان بطرس والرسالة الثانية ليهوذا (والارجح انها انجيل يهوذا كما ورد في تاريخ الهرطقات للقديس إيريناوس ج١ ف٣١ مبحث اول)، ورسالة يعقوب (اي انجيل يعقوب على الغالب)، والخمس عشرة رسالة التي تحتوي فيما تحتويه على كل الرسائل المنسوبة الى الرسل وليست بالحقيقة لهم . اما الابركسيس والرسائل القاتوليقيا المذكورة بين الكتب المقدسة فلا يمكن الوقوف على حقيقتها لغموضها . واما صحيفة برنابا فنفترض انها هي كتاب اعمال الآباء المعروف باسم الديداكه (Didaché) . واما كلمة انوقس فالأوفق ان تقرأ « أبوقس » تصحيف « أبوكالبسيس » (Apocalipsis) اي الرؤيا . وهذه الرؤيا هي من جملة الكتب الممنوعة والمحرمة كما رأينا . ومن اللازم ان تصلح كلمة « هربا » التي وردت في هذا الفصل بلفظة « هرما » كما فعلت سابقاً . وقد يمكن ان تكون « هرب الراعي » ولكن تفاسير القوانين السابقة لها تحول دون افتراض هذا المعنى .

« هذا من جهة الكتب المحرمة . واما من ناحية نشأة هذا القانون وعنوانه الذي صدّر به ونسبته الى باسيليوس وغريغوريوس ، فلا أجرؤ البتة على اصدار حكمي بصدده ، لاني لم اجد شيئاً مما قيل في هذا القانون يطابق بعض المطابقة ما جاء في الكتابات المشهورة باسم « اسئلة واجوبة » والمطبوعة في القاهرة عام ١٩٢٤ بعنوان « رسائل دينية قديمة » (ص ٩٤ – ١٥٥) ، وهي منسوبة لهذين الملكين المشار اليهما . على اني اعتقد ان اصل هذا القانون انما وُضع في اللغة السريانية ، لان لفظة فَولُوس الواردة فيه تثبت ذلك دون شك .

« والآن ، وقد انتهينا من درس الجزء الاول والثاني من هذه المجموعة القانونية ، فلننتقل الى وصف القسم الاخير الوارد في الفصلين

الكافر وألفوا ٢٢ قانوناً » وهي منشورة في ص ٢٩٢ — ٣٠١ من الهدى. ومعلوم ان هذه القوانين انما هي تلخيص تام عن النص اليوناني الاصلي، قد عرّبه مؤلف الهدى نفسه وتصرّف به كما شاء وزاد عليه بعض شروحات وتفاسير، مع العلم ان القوانين حسب النص اليوناني عددها عشرون قانوناً فقط [1].

وفي الفصل السابع والاربعين يذكر واضع الهدى « القوانين الاربعة والعشرين التي وضعها الاباء الاطهار في اجتماعهم في مدينة انقره » (ص ٣٠٢ — ٩) وفيها بعض الفوارق والتقاسيم التي تميزها عن النص اليوناني الحاوي ٢٣ قانوناً فقط .

وفي الفصل الـ ٤٨ يذكر المؤلف « القوانين الخمسة عشر التي ألفها الآباء الاطهار المجتمعون في مدينة قيصرية » (ص ٣٠٩ — ٣١٢) وقد تصرّف مؤلف الهدى حسب عادته بتأليفها وتقسيمها وترتيبها وتقديمها للقراء .

وفي الفصل الـ ٤٩ نقرأ « قوانين مجمع انقره الذي عقد بعد مجمع نيقية » وهو مجمع كنكرا (ص ٣١٢ — ٣١٩) . وهو مصدر برسالةٍ تشرح الموضوع والقضية المنوي درسها في المجمع المذكور . وهذا المجمع يحتوي على عشرين قانوناً انما القانون الاخير وحده اختصار عن النص اليوناني ، وعباراته متقطعة ، واما محتوياته فهي في كتاب الاب مكاريوس المنقول عن المخطوط الواتيكاني رقم ١٤٩ في صفحاته ٨٨ — ٨٩ مع بعض الفوارق طبعاً .

---

(١) ان مؤلف الهدى يستعمل هنا لفظة سريانية للدلالة على عيد الصعود وهي « عيد السلاق » من ܣܠܩ السريانية التي معناها « صعد » . الا انه استعمل لتسمية عيد الغطاس كلمة غير مستعملة هي « يوم الفرض » اعني « السماء » حسب انجيل متى في الفصل ٣ العدد ١٦ .

وفي الفصل الخمسين وردت « القوانين الاربعة والعشرون الموضوعة في انطاكية » (ص ٣١٩ — ٣٢٩) . وهي تفترق قليلاً وخصوصاً في المقدمة عن النص اليوناني الذي يتألف من ٢٥ قانوناً ، ولكنها تتميز كثيراً عن نص الاب مكاريوس كما في صفحات ٨٩ — ٩٢ .

واما الفصل الـ ٥١ من الهدى فيحتوي على ٥٩ قانوناً وضعت في مجمع اللاذقية (ص ٣٢٩ — ٣٤٠) ، دون ان يذكر القانون الستون ، المحفوظ في مجموعة الاب مكاريوس في صفحات ١٢١ — ١٢٤ ، وهو يتضمن فهرساً بالكتب المقدسة .

وفي الفصل الـ ٥٢ نقرأ « القوانين الاربعة الموضوعة في القسطنطينية (ص ٣٤٠ — ٣٤٤) . وهي منشورة ايضاً في كتاب الاب مكاريوس طي صفحاته الـ ١١٩ — ١٢٠ .

وفي الفصل الـ ٥٣ من الهدى نطالع « القوانين الـ ٢٧ التي وضعها الآباء القديسون في مدينة خلقيدونية (ص ٣٤٤ - ٣٥٣). وهي القوانين نفسها المطبوعة في كتاب الأب مكاريوس نقلاً عن المخطوط الواتيكاني رقم ١٥٠ مع بعض زيادات طفيفة في صفحات ١٣١ — ١٣٦ .

واخيراً نقرأ في الفصل الـ ٥٤ « احكام مجمع أفسس » (ص ٣٤٥). وهي خمسة سطور لا غير . ولكن بعدئذٍ في الفصل الـ ٥٥ نُقرأ هذا العنوان : « هذه قوانين السندس التي اجتمعت في نيقية وهي قوانين باسيليوس وغريغوريوس القديسين في صفحات الهدى الـ ٣٥٤ وما بعدها.

ان هذا الفصل الأخير ذكره العلامة اسطفان السمعاني في الفهرست الذي ألفه في المجلد الثالث (ص ٢٠٨) . وكذلك العلامة الالماني ريدل في كتابه المذكور سابقاً (ص ١٤٨) . على انهما لم يصيبا المرمى

غير القانونية ، والتي كان لها في كل نسخة من نسخها المطبوعة « انتشار واسع ومقام هام في دائرة الآداب القانونية المسيحية »[١] .

هذا من جهة النسخ واما من جهة الموضوع الذي يدور عليه البحث بخصوص هذه القوانين ، فكتاب الهدى يحتوي غالباً وبضبطٍ دقيق كل ما يحتويه الأصل اليوناني . وانه لمن المفيد جداً ان يقف العلماء على مختلف الفوارق الواردة في مجموعة القوانين للاب مكاريوس القبطي والتي نقلها عن المخطوط الواتيكاني رقم ١٤٩ في صفحات ١٨ — ٢٢ وفي كتاب الهدى ايضاً .

فلأول وهلةٍ يظهر للمطالع ان نسخة الهدى تلخيص مأخوذ عن نسخة الاب مكاريوس نظراً لما بينهما من مقابلات ، وفي نصوصهما من مشابهات . ولكن الحقيقة انما هي على عكس ذلك : فنسخة الهدى تتفق تماماً وكمالاً مع الاصل اليوناني ، ولذا فلها الأولية بعد النسخة اليونانية ، في حين ان النسخة الاخرى المعروفة بنسخة الاب مكاريوس فهي ثانوية وملخصة بتصرف عما قبلها . ومما يثبت ذلك الميزات الخاصة التي تراها في نسخة مكاريوس دون سواها كلباسها الخارجي مثلاً وتقسيمها الى فصول وابواب ، ومحتوياتها الكثيرة التي تتضمن اضافات عديدة ليست في الاصل اليوناني كالتي تمت مثلا بصلةٍ قريبة جداً الى موضوعات الكتاب الثامن من التأسيسات الرسولية فصل ٢٨ ، والتي تتعلق بحقوق البطاركة .

فضلا عن ان الاب مكاريوس يشرح باستفاضةٍ في باب الاعياد ، معنى العيد ، مضيفاً الى ذلك عيد الظهور الذي يسميه باليونانية (hupapente) اعني عيد دخول المسيح للهيكل ، وعيد التجلي على

---

(١) راجع بومسترك في كتابه المشار اليه (ص ١٢٧ — ١٣٧ ، حيث نشر في ص ١٣٤ كل الكتابات والمواضع التي تتشابه وتتقابل .

طور طابور كما هو مذكور في كتاب « التأسيسات الرسولية » (فصل ٢٨ عدد ٣٣) . وهذه الاضافات المذكورة وما اليها لم ينفرد الاقباط باستعمالها في مصر بل الملكيون ايضاً في معرض مباحثاتهم الكنسية . وهذا ظاهر من استعمالهم اسماء بعض اعياد يونانية كعيد الظهور (hupapente) وعيد التاوفانيا (teofania) او عيد النور (festa lucis) [١] .

ومما لا ريب فيه ان مؤلف النسخة الملكية قد استخدم النسخة المطبوعة في الهدى كأساسٍ له ، استقى منها مصادره كما يبدو ظاهراً من وفرة المشابهات والمطابقات المأخوذة بحرفيتها عن نص الهدى وقد ذكرناها اعلاه . فضلاً عن ان مجموعة الاب مكاريوس القانونية (وهي مخطوط ١٤٩ من القسم العربي في المكتبة الواتيكانية) قد وجدت في مجموعةٍ اخرى مطابقة لها تمام المطابقة ، ويرجح ان يكون المخطوط الاخر رقم ١٤٥ من المكتبة الواتيكانية هو المخطوط الذي استند اليه ايضاً الاب مكاريوس في تأليفه هذه المجموعة القانونية في صفحاته الـ٣٥ والـ٣٦ دون الصفحات الـ٣٧ والـ٣٩ لانها ناقصة فيه . وهذه النسخ جميعها قد اشار اليها العلامة بومسترك في مؤلفه المذكور ص ٢٣٠ .

بعد « قوانين التلاميذ » التي ذكرها كتاب الهدى في الموضع المشار اليه يشرح مؤلفه في الفصل السادس والاربعين « قوانين الاباء القديسين الذين اجتمعوا في نيقية وعددهم ٣١٨ اسقفاً ضد اريوس

---

(١) راجع ريدل في الموضع نفسه ص ١٥٨ وفي كتابه « علم الاباء الشرقيين » ج ٨ ص ٥٥٩ . وانظر جورج جراف في كتابه « فهرست المخطوطات العربية المسيحية المحفوظة في القاهرة » المطبوع في مدينة الواتيكان عام ١٩٣٤ ، ص ٢٠٨ عدد ٥٥٣ وص ٢١٥ عدد ٥٧٨ .

عن العربية بل كان مكتوباً فيها بالاصل ، واستدل على ذلك من اللغة ومن جملة امور تعين الوقت الذي ازدهر فيه الاسلام . »

اما نحن فنقول ان لغة هذا الفصل القانونية ، ولباسه العربي الصحيح ، وترتيبه الجميل ، كل ذلك يميزه كثيراً ويفرقه عن باقي الاجزاء المشروحة في الهدى . وهذا برهان ساطع على صواب رأينا وصحته . فضلاً عن ان كل من درس هذا الفصل بكامله ظهر له جلياً انه لم يكتب اولاً بالعربية وان اصله ليس عربياً البتة ، بل اصله يوناني وترجم بعدئذ الى سائر اللغات . ومما يثبت ذلك وجود كلمات موضوعة بحالة المضاف مثلاً « روميس » (روما) ص ٢٤٩ ، واسم « الاحد الجديد » (وهو الاحد الذي بعد قيامة السيد المسيح بثمانية ايام) ص ٢٥٥ ، واسم « عيد الورود » ص ٢٥٦ .

والفصل السادس والثلاثون يتضمن « قوانين التلاميذ المباركين الواحد والثمانين » (٢٦١ – ٢٧٦) . وهذه القوانين تطابق بموضوعاتها مجموعة القوانين الواحد والثمانين التي وضعها الرسل (canones ton ag.on apostolon) وقد طبعها العالم بولس لاغارد (Lagarde) في المانيا عام ١٨٦٥ تحت هذا العنوان : « ذخائر الحق القانوني الكنسي المتقادم العهد » (ص ٢٠– ٣٥) مع اختلاف بالمقدمة فقط[١] . على انه يتوسط النصين العربي واليوناني[٢] نص ثالث سرياني مكتوب بتصرف قد ذكره على الارجح

(١) انظر : J. Harduin, Acta conciliorum, t. I. col. 9 — 32 avec introduction du 84 canons ; et J. B. Pitra, Juris ecclesiastici grecorum historia et monumenta, Roma, 1864, p. 13 — 36 avec 85 canons.

(٢) والكلمات الانية حفظت أصلها اليوناني وهي : التوماطي (to tumation) قانون ٣ . السنودس (sunodos) ق ٣٧ – البنطيقسطي (pentecosté) ق ٣٧ – أراطيقي (aireticos) قانون ٧١ ، وهو في النص السرياني ايضاً .

العالم بيطرا في كتابه « قوانين الرسل الواحد والثمانون » بعنوان « recentio vetus siriaca »

وهناك ايضاً فضلاً عن نص كتاب الهدى نصوص أخرى منقولة عن الترجمة العربية ، معروفة تارةً باسم تيطلسات « titloi » من اليونانية وطوراً باسم ابسطلوستات (ويمكن ان يكون هذا هو الاصل) من اليونانية ايضاً . منها نصوص المجموعة المؤلفة من ٨٢ قانوناً المنشورة في المجموعة الكبرى للاب مكاريوس القبطي الذي نقلها عن مخطوط الواتيكان العربي رقم ١٤٩ في صفحات ١١ — ١٧ ، ومخطوط عربي آخر رقم ١٥٤ في صفحات ١٩ — ٢١ وصفحات ٢٨ — ٣٤ ، وذلك بتصرف . ومنها ايضاً المجموعة الثانية المؤلفة من ٨٥ قانوناً التي نشرناها بالطبع عام ١٨٩٤ في نسخة كيرينير (Kairiner) [1] .

ان العلامة بومسترك في معرض كلامه عن الآداب الكنسية الشرقية نشر مقالاً ممتعاً عن القوانين التي وضعها الرسل الاطهار عنوانه : « النصوص اليونانية المتشابهة بالنظر الى الكتاب الثامن من التأسيسات الرسولية » فيجدر الرجوع اليه لما فيه من الفوائد الجمة ، وذلك ممكن من الوقوف على الجزء الأول من مجلة « الشرق المسيحي » الصادرة عام ١٩٠١ في صفحات ١١٣ — ١١٦ [2] .

اما الفصول التسعة الباقية ابتداءً من عدد ٣٧ لغاية ٤٥ في صفحات ٢٧٦ - ٢٩١ من كتاب الهدى ، فهي « نظام الكنيسة الذي وضعه سمعان الصفاء من اجل قوانين الكنيسة » وما اليها من الفرائض والانظمة المختصة بالبيعة المقدسة . وهي موجز الجزء الثاني من الكتاب الثامن للتأسيسات الرسولية التي كانت تعتبر كمصدرٍ خاص للاحكام الرسولية

---

(١) راجع الموضع نفسه ، ص ٦٧ .

(٢) انظر كتاب قوانين الرسل والمجامع المسكونية والمكانية ، ص ٢١٦ .

ان مقابلتنا لهذين الفصلين المار ذكرهما هنا تسوقنا الى نتيجة وافرة الاهمية : وهي ان النص المنشور في الهدى تلخيصٌ بتصرفٍ موجز او موسع فيه عن ترجمة الحاقلاني نفسه ، تلك الترجمة التي كانت قديماً قبل زمان الهدى وتأليفه وكانت لها قيمة قانونية في حقل القوانين الكنسية . على اني لم اجد ميزات لغوية خاصة تدلنا حقيقةً على النص الاصلي الذي كتب فيه هذا المصنَّف أفي اللغة اليونانية ام السريانية ؟ [١] .

والفصل الثالث والعشرون يتضمن ١٣ قانوناً (٧ — ٢٠) من اصل ٣٣ قانوناً « وضعها الآباء الاطهار في المجمع الثاني في القسطنطينية » .

والفصل الرابع والعشرون يحتوي على « قانون الاسقف قورللوس الاورشليمي لاجل المعمودية والزواج في الدين البهي » وهي قوانين مجهولة للآن .

وفي الفصل الخامس والعشرين يذكر المؤلف « قانون يوحنا الانجيلي » (٢٢٢) ، وهو يبحث اولاً عن حقوق مختلف الدرجات وواجباتها ابتداءً من الدرجات الكبيرة ، اي من البرديوط الى البطاركة ، مع ذكر الروابط التي بين كل درجة واختها ، والعلائق التي تربط كل درجة بالاخرى . ثم عن شروط الفرض القانوني ، وتقديس يوم الاحد ، والامتناع عن الزواج في ايام الآحاد والاعياد ، وعن الآداب والخطايا التي تضاد الطبيعة ، وعن التوبة المفروضة على كل من يرتكب هذه الخطايا المشار اليها . واخيراً يتكلم المؤلف في هذا الفصل عن مقام الملك والاجلال الواجب ان يقدم له حسب العادات البيزنطية ، قائلاً :

(١) تجدر الملاحظة هنا ان لفظة « يوضاص » اليونانية استعملت في ص ٢٠٠ من الهدى بهذه الصورة ، في حين ان هذا الاسم نفسه كتب في ص ٢٤٩ تحت لفظة اخرى هي « يهوذا » وهذا ما يثبت رأينا السابق .

« انه يجوز له ان يقف عن يمين البطريرك امام المذبح ، وان يخلع تاجه عن رأسه ويضعه على المذبح ، ولا يجوز له ان يتناول هو بذاته بل ان البطريرك يناوله ... ويجوز له الوقوف في جملة الكهنة في الكنيسة لاجل وقار ملكه ... » (ص ٢٢٤) .

ويتضمن الفصل السابع والعشرون ايضاً قانوناً آخر للقديس يوحنا الانجيلي عنوانه : « قانون لاجل العلل التي توجب للرجل طلاق زوجته ويجوز للمرأة طلاق زوجها » ، وهو كما يقال « وجد في كتاب لغة سريانية نقل الى العربية » . وقد كرر المؤلف هذه العبارة نفسها في آخر الفصل .

فهذان الفصلان المنسوبان للقديس يوحنا الانجيلي لم اتمكن من تحقيق موضوعهما . انما ارجح انهما الكتابات نفسها المنسوبة الى الرسول عينه المحفوظة في المجموعة الملكية لواضعها الخوري يوسف الاسكندري الذي سيم كاهناً عام ١٣٧٨ للميلاد والمنشورة في تاريخ الاثار المسيحية المطبوع عام ١٤٠٨ تحت هذا العنوان : « Bold. Arc. Crist. Nicoll N 36. » مع بعض المقاطع والعبارات التي تبدو كأنها المقاطع نفسها والعبارات المطبوعة في كتاب الهدى (انظر تاريخ العلامة ريدل في الموضوع نفسه ، ص ١٣٩) .

واما الفصول الستة التابعة من عدد ٣٠ الى ٣٥ فهي « قوانين البابا اقليموس بابا رومية التي كتبها عن بطرس التلميذ رأس الحواريين » (ص ٢٢٩ — ٢٦٠) . وهي مأخوذة بالحرف الواحد عن المجموعة القانونية المنسوبة للكاهن القبطي مكاريوس ، المحفوظة في مكتبة الواتيكان رقم ١٤٩ من المخطوطات العربية ، ص ٧٣ — ٧٥) . وقد نقلها الى اللغة الالمانية بدون تدقيق العالم ريدل المذكور في الكتاب نفسه ص ١٦٦ — ١٧٥ ، حيث يقول معتقداً « ان المخطوط لم يترجم

وفي الفصل الخامس عشر يشرح المؤلف القوانين التي توجب على المؤمنين المحافظة علـــى حقوق الله كافةً وهي : ص ١٦٧ — ١٦٨ (لغاية السطر السابع في الهدى) : (يقابلها في مجموعة منسي) : « تلخيص الفصل الاول » — وص ١٦٨ — ١٧١ : (يقابل ذلك في منسي) : تلخيص الفصول الثاني والثالث والرابع والخامس — وص ١٧١ — ١٧٢ (سطر ٨) : يقابل ذلك موجز الفصل الحادي عشر من منسي — وص ١٧٢ — ١٧٣ (سطر ٥) : يقابلها الفصل السادس من منسي — وص ١٧٣ (سطر ٥ — ١٢) : يقابلها مختصر الفصل السابع — وص ١٧٣ — ١٧٤ (سطر ٨) : يقابلها الفصل الثامن — وص ١٧٤ (تكملتها) : يقابلها ملخص الفصل التاسع — واخيراً ص ١٧٥ — ١٧٦ (سطر ٢) : يقابلها الفصل العاشر من منسي .

وفي الفصل السادس عشر (ص ١٧٦ من الهدى) نقرأ هـــذا العنوان : « القوانين الموضوعة من الله على جميع الرهبان والراهبات اصحاب ديوان [1] المسيح الذين اعتصموا بالاسكيم وتزينوا بالسواد وتسلحوا بالصليب » : يقابله في مجموعـــة منسي الفصلان الثاني عشر والثالث عشر .

وفي الفصل السابع عشر (ص ١٧٧ — ١٨٠) نقرأ في الهدى « واجبات الكهنة » : يقابل ذلـــك في مجموعة منسي ملخص الفصل الرابع عشر (راجع عمود ١٠٤١ — ١٠٤٣ ، سطر ٥٩) .

وفي الفصل الثامن عشر من الهدى ص ١٨١ — ١٨٥ : نقرأ في مجموعة منسي ما يقابله وهو آخر الفصل الرابع عشر ، مضافاً اليه الفصول الاتية : ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ .

---

(١) « ان اصحاب ديوان المسيح » هم اولئك الذين يتلكونه اي يستولون على انجيله ، وهذا معناه المنشورات الانجيلية .

وفي الفصل التاسع عشر من الهدى المتضمن « قوانـين النصارى المتعلقة بالصوم » ص ١٨٥ — ١٨٧ (سطر ٨) : نجد في مجموعة منسي الفصلين ١٩ و ٢٠ . ثم ان ص ١٨٧ — ١٨٨ من الهدى التي يشرح المؤلف فيها « فتوى عن الزواج : أيقدر المتزوج ان يطلق امرأته ام لا ومتى » : فلا يقابلها شيء من النص اللاتيني المنشور في مجموعـــة منسي لكونها ناقصة .

اما الفصل العشرون من الهدى (ص ١٨٩) وعنوانـه « مختلف واجبات النصارى » اي منع عقد الزواج مع اليهود والسامريـــين والهراطقة وغير المعمدين الخ ، وكذلك الجزء الاول من الفصل الحادي والعشرون من الهدى الذي يمنع على النصارى الاختلاط بالهراطقة في اقامة الصلوات ، وبالعكس يحثهم عـــلى الاستمساك بعرى الدين القويم كما في ص ١٩٠—١٩١ سطر ٣ : فلا يقابلهما شيء البتة من المجموعة اللاتينية لمنسي . واما الجزء الثاني من هذا الفصل الاخير فانه يتكلم عن « قوانين معلمي الكنيسة » (ص ١٩١ — ٢٠٠ في السطر الخامس) : ويقابله في المجموعة اللاتينية لمنسي الفصل الخامس والعشرون .

والفصل الثاني والعشرون من الهدى (ص ٢٠٠) المعنون « من القوانين ايضاً » مقسوم الى ثلاثة اجزاء : فالجزء الاول منها وبدؤه ص ٢٠٠ (سطر ٦ — ١٢) : يقابله في منسي الفصل الـ ٢٤ . والجزء الثاني (سطر ١٢ — ١٦) هو ناقص في اللاتيني . والجزء الاخير الذي يتكلم عن الحرم والقطع ص ٢٠٠ - ٢٠٥ من الهدى : يقابله الفصل السادس عشر (عمود ١٠٢٤ — ١٠٢٨) من مجموعةٍ أخرى ترجمها الى اللاتينية العالم ابراهيم الحاقلاني وعنوانها : « مراسيم كنسية متنوعة للآباء الثلاثمائة والثمانية عشر » وعددها ١٩ فصلًا تبتديء في العمود ١٠١٩ لغاية ١٠٣٠

شرحاً وافياً ، مستنداً الى الآيات والنصوص الكتابية . فخص الفصل الثاني عشر بالكلام عن « الزكاة على البهائم » ، والفصل الثالث عشر « بالزكاة على الاثمار » .

وهنا ينتهي الجزء الاول من كتاب الهدى ، وهو كما لاحظنا وحدة أدبية ، على الرغم من بعض تطويلات او نقص في الروابط ، او بعض مقدمات ونتائج يقصد منها الموعظة والارشاد .

ومما يجدر الانتباه اليه هنا ان القوانين التي وصفناها حتى الان لم تسند الى الآيات الكتابية القديمة حرفياً كما هي القاعدة والعادة عند اليهود ، بل ترتكز على وصايا الرسل والاباء القديسين . وهكذا يكون حكمنا ، الذي اصدرناه في الابتداء والقائل بان كتابنا يبحث عن تعاليم علمية واعتقادية وادبية ، مصيباً كل الاصابة

ويجدر الانتباه ايضاً الى ان القسم الآخر الذي يتبع الاول ، يمكن اعتباره كوحدةٍ مستقلة ومصادر للحق القانوني ، وان كانت هذه المصادر مستقاةً من ينابيع مختلفة . انما قد تسربت في ثنايا هذا الجزء الثاني ثلاثة مباحث لاهوتية ساذكرها في آخر مقالتي هذه بينما اني آخذ الان بذكر « الاحكام القانونية اللاهوتية » المتقادمة العهد والمشروحة في الهدى على اختلاف فئاتها :

فالفئة الأولى منها المشروحة في الفصل الرابع عشر الى الثاني والعشرين (ص ١٦٥ — ٢٠٦) عنوانها « نسخة الاحكام المشروحة من كتب الله المنزلة وما يجب ان يتأدب به المؤمنون وما يجب ان يعمله اهل النصرانية »[١] . فهذه المجموعة من القوانين نجد القسم الاكبر منها

---

(١) في النص المطبوع يثبت العنوان الاتي : « تسبحة الاحكام » وصوابه « نسخة الاحكام » .

مشروحاً في المجموعة المنسوبة غلطاً الى ابراهيم الحاقلاني ، والمنقولة عن العربية الى اللاتينية ، وهي محفوظة في مجموعة القوانين لمنسي (Manzi) في المجلد الثاني ، ومعروفة باسم « المجموعة الجديدة والمفصلة للمجامع المقدسة »[١] ما عدا الجزء الاخير منها فهو يحمل عنواناً آخر هذه ترجمته « احكام ومراسيم الاباء الثلاثمائة والثمانية عشر » (Eorumdem sanctorum Patruum 318 et decreta.) ، (راجع عمود ١٠٢٩ الذي يقابله في المجموعة الاخرى عمود ١٠٣٣ — ١٠٤٥) .

وقد ذكر المترجم الاصل العربي الذين استخدمه لترجمته هذه ولكن بصورة غامضة كل الغموض ، مشيراً تارةً الى المخطوط الواتيكاني (عمود ١٠٢٩) وطوراً الى المخطوط الواتيكاني للملكيين (عمود ١٠٧٩ في الحاشية) . وبناء عليه فاني ذاكر هنا اولاً القوانين المطبوعة في كتاب الهدى للاب فهد مشيراً الى الصفحة التي يحتويها . وبعدها أضع نقطتين ومعناهما « يقابل ذلك » . ثم اذكر القوانين المنشورة في مجموعة القوانين اللاتينية لمنسي التي اشرت اليها قبلاً ، ملاحظاً هنا حالاً ان النص العربي المنشور في الهدى يوافق غالب الاحيان النص اللاتيني المذكور ولكن موافقةً غير مصيبة ومغلوط فيها ، فاقول :

في الفصل الرابع عشر ، الذي ليس له عنوان ، يصف المؤلف وصفاً ضافي الذيل « قانون نيقية » ويضع له عنواناً يشتم منه « انه تعليم الـ٣١٨ اسقفاً » المجتمعين[٢] في نيقية كما في ص ١٦٥—١٦٧ من الهدى : (يقابله في مجموعة منسي العنوان الاتي) : « من المقدمات الى هذه الاحكام والمراسيم ، عمود ١٠٣٣ » .

---

(١) اني مضطر ان اذكر هنا الاعداد بحسب الطبعة الاولى القديمة لان الجديدة ليست بين يديّ ولا سبيل للوصول اليها حالياً .

(١) ان لفظة «عملوه» المثبتة في العنوان في الهدى يجب اصلاحها بلفظة «عاموه» .

الطفل عند موته ولا يقرأ عليه شيء من الحديدة (اي العهد الحديث) ولا من الابركسيس (اي كتاب النبؤات والرسائل) بل يقرأ عليه شيء من المزامير بالتهليل لا غير ويدفن ولا يعمل له ثالث ولا تاسع ولا ذكران » .

وبعد هذا الشرح يذكر مؤلف الهدى افعال التوبة الواجبة على على الوالدين ، وعلى الاطفال الذين ماتوا دون اقتبال سر العماد ، وعلى الكهنة والشمامسة الذين كانوا يعمدون اولادهم في اوقات الخطر . ثم يشير الى المراسيم اللازم اتخاذها بالنظر الى ضعفاء العقول والمولودين مشوهين ، واصفاً « تلك الرواية التي جرت في انطاكية وموجزها ان ولداً مولوداً وله فرجان ذكر وانثى » (١٠٨) . وبعد ذلك يستطرد الى الكلام عن سر المسحة وما يقتضي من واجبات .

وفي الفصل العاشر وهو المختص « بقانون الصوم » يذكر المؤلف (ص ١١٢) بعد الاستفاضة بشرح الاساس الذي يقوم عليه الصوم ، المناظرة الشديدة التي جرت بين الروم والارمن وباقي الطوائف . وقد وجّه كلمات قاسية وتوبيخات مرة الى الطائفتين المذكورتين لاهمالهما هذه الوصية وعدم مبالاتهما بها جدياً ، الى ان قال : « الصوم لا يمكن ان يُقطع الا بالمناولة فقط » .

فهذه العبارة تعطينا برهاناً ساطعاً كما قلنا اعلاه على ضرورة المواظبة على المناولة اليومية او المتواترة . والمؤلف يعير اهميةً كبرى مسألة « قربان الخميس الكبير » اعني به « تلك الاعراض التي يقدسها الكاهن يوم الخميس الكبير في حقة او علبة او ما اشبه ذلك جاعلاً اياها في خزانة الوازات اي التابوت[1] التي تكون في المذابح ، ويحتاط عليه كل

---

(١) جاء بخصوص التابوت اي حقة الاسرار المقدسة ما يلي : « ويكون التابوت

الاحتياط ليكون عـــدةً لمن يضطر اليه من المرضى . ولا يزال مخزوناً تحت الاحتياط الى يوم الخميس الآتي من السنة الاخرى فيقربه الكاهن للمحتاجين اليه ويجعل عوضه في تابوت الخزانة القربان الجديد » (ص ١٣١) .

ولكن من أفسد صومه بتلك الامور المحرمة ، فيمكنه ان يصنع توبة لمغفرة هذه المخالفة بواسطة القربان والتوبة . وايضاً « اذا كان انسان في سفر وطالت غيبته ولم يصادف في ذلك البعد قربان الخميس وأتى بلاده فليسمح له باكل القربان اذا كان قبلاً قد صنع توبة » . والبرهان لهذا التفسيح او الوضع انما هو ظاهر من الاشمئزاز الذي يشعر به الشعب لدى رؤيته تلك الاعراض قد تعطلت وانتنت وفسدت ولم تجرِ العادة برميها .

وفي ص ١٣٤ يأتي المؤلف على ذكر « الاب القديس » الذي وجه اليه رسالة ضافية عن « قربان الخميس » وعن عظمته وخطورة مقامه . الا انه بالحقيقة هو الاب القديس نفسه الذي وجهت اليـه الرسالتان المصدَّر بهما الكتاب الذي نحن بصددهِ . وفي هذه الرسالة يتكلم المؤلف عن استعمال القربان المختص بالخميس الكبير وبعض اوضاعٍ تضاد عادات الصوم عند الروم .

وفي الفصل الحادي عشر يستطرد الى وصف « قانون الزكاة » واثبات وجوبها كما اثبت من قبل ضرورة « فرض الايمان على العقل ، والصلاة على النفس ، والصوم على الجسد » مستفيضاً بشرح هذا الموضوع

موضوعاً في خزانةٍ تعمل في الجانب الايمن من المذبح وتسمى خزانة الرازات على شكل ما كان بنو اسرائيل يعملون . ويجب ان يكون في التابوت الميرون المقدس ، والدهن الذي يتخذ لتقديس الميرون المبارك ، والماء فيه الماء المقدس الذي يبارك ليلة الدنح » (ص ١٣٢) .

بالخطايا ثم بالشروط الباطنية التي تفسد الصوم وتمنع اخذ القربان ، واضعاً بين هذه الشروط « الاختلاط باليهود والصائبة والمجوس وعباد الاوثان » (ص ٨٤) ، مستشهداً بالرسالة الاولى التي وجهها بولس الرسول الى القرنثيين ٢٨/١١ . ثم يورد بعض قواعد عامة للتدليل على طريقة الاستعدادات اللازمة لقبول القربان : من ذلك « انه اذا اراد احدنا اخذ الجسد الطاهر فعليه ان يعتمد بنفسه وجسمه وعقله فيما ذكر من الصوم النقي ثم يأتي الى البيعة المقدسة في وقت تقديس الاسرار الطاهرة ... ويجعل باله كله الى استماع القداس من اوله الى اخره » (ص ٨٥) . وعليه ايضاً ان يسلك في اثناء توزيع الاسرار المسلك الحسن ، مجتهداً باجتناب كل الخطايا المعدودة طوال نهاره .

انما لا يظهر جلياً من صفحة ٨٦ هل كانت الطريقة المتبعة هنا في الهدى تمتّ بصلةٍ الى الخطايا المقترفة حديثاً في النهار الذي تمّ فيه التناول ام في النهار السابق له ، حيث قيل ص ٨٦ ما يلي : « من خالف ذلك واخذ القربان فقد فعل شيئاً مما وقع النهي عنه ، وان كان على وجه الغلط والنسيان فيجب ان يقرب عن نفسه قرباناً (لا يعرف هنا ما يقصد بالقربان أهو الخبز الخصوصي المقدَّم للتقديس ام غيره ؟) ، يقرّبه الكاهن عنه ويستغفر له على المذبح المقدس . وان كان على وجه التعمد والتهاون بهذه الوصايا فليعلم الخاطيء ان حظه ونصيبه انما هو مع العبد السوء العاجز الذي اخذ الوزنة من سيده وطمرها في بطن الارض . وهناك يكون البكاء وصرير الاسنان » .

وعلى كل حالٍ فالبحث بالاستعداد للتناول الروحي ناقص من حيث انه خالٍ من كل وصيةٍ توجب الاعتراف بالخطايا . ومما يستغرب التصريح بان الاعتراف امام الكاهن واجب في حين ان الاستغفار كما في الفتوى المذكورة يتعلق بالاغتسال الكامل حسب تقليد اليهود

وعادات الوثنيين ، وان ثقل الذنب وان كان يتطلب الاعتراف لحله فهو يتعلق صراحة بعادات اليهود والوثنيين .

« اما امر الاكثار من التناول فهو لدى المؤلف مسألة خطيرة : فانه بسط اولاً تعليم الطوائف الاخرى وعاداتهم التي تختص بهـذا الشأن ، مبتدئاً بذكر الروم القائلين بوجوب تقديم القربان يومياً وليس بوجوب التناول اليومي الذي يفضلون الامتناع عن اخذه في اكثر الاوقات (ص ٩١) . ثم بذكر الارمن الذين يوزعون الاسرار التناولية في الاعياد الكبيرة فقط وعند المهات . ثم بذكر السريان « وهم اهل مذهبنا » واكثر اليعاقبة والنساطرة الذين « رأيهم ان المواظبة على اخذه في جميع الاوقات اولى من تركه » (ص ٩٢) . اما الموارنة فيعتقدون « انه يجب ان لا يمر يوم واحد دون تناول جسد الرب يسوع . » وهذا الاعتقاد ناضل عنه المؤلف نضالاً جميلاً بتفصيل مسهب مع تفنيد باقي المذاهب ، واثبات ضروة الاستعدادات الادبية التي انما تقوم بعاطفة التوبة والندامة الكاملة (وهكذا لا يتكلم المؤلف هنا عن ضرورة الاعتراف بالخطايا) .

وفي الفصل التاسع يتكلم المؤلف عن « قانون العماد » . فيبحث اولاً عن السن الواجب ان يحصل عليها المرء ليتعمد قائلاً : « يجوز للانسان ان يتعمد في اي وقت اتفق من عمره ولو ان له يوماً واحداً ». ثم يبحث في واجبات الاشبين ، التي يلزمه التقيد بها ، وفي الصوم الذي يجب على طالب العماد ان يحفظه اذا كان كبيراً ، واما اذا كان رضيعاً فعلى والدته ان تكون صائمة (ص ١٠١) ، وفي المعمد ومؤهلاته ، وفي تعميد الاولاد في وقت الموت او خطره .

اما الاطفال غير المعمدين الذين يموتون وينقلون الى المدفن الأخير فيقول فيهم المؤلف ما حرفيته (ص١٠٥) : « يجب ان لا يصلى على

ومستنداً الى التقليد الرسولي فيما يتعلق بعادات رسم الصليب المكرم على الجبهة ، والتقديس على المذبح الواحد . والاتجاه نحو الشرق في اثناء الصلاة ، وتنظيم الصوم وصنع التاج وتبريكه وتكريس جرن العماد المقدس الخ [١] .

اما الروم والارمن والفرنج الذين ذكرهم الهدى فظاهر انهم لم يألفوا عادات الغسل ، وان كانوا قد حافظوا على استعمال امور عديدة من عادات الوثنيين التي كانوا يتمرغون قديماً فيها علـــى الرغم من تحريضات الرسل الاطهار وتحريماتهم المتواصلة .

وقد أفاض مؤلف الهدى بحثاً وتدقيقاً بتعيين الاوقات والمواعيد المعروفة الحرة التي كان العلمانيون والاكليروس والرهبان والنساك يقيمون فيها صلواتهم الضرورية ، وذلك في القانون المعروف « بقانون البابا أقليموس » ذاكراً « المطانيات » العديدة الواجب إقامتها في عيد العنصرة المشهور « بعيد الركوع والمطانيات » .

ان الفصول او العناوين الثلاثة المعروفة « بقانون تقديس القرابين » ثم « ومنه ايضاً » ثم « قانون اخـــذ الجسد » تبحث في ماهية سر الاوخرستيا بتفصيل واسهاب غنيين بالاستشهادات الكثيرة ، وفي تعيين مواعيد القداديس والاستعدادات الواجبة لتهيئة عوارض الخبز والخمر ، مع ذكر الانية المقدسة الواجب استعمالها لتقريب القرابين ، واغطية المذابح اللازمة ، والشروط الضرورية لتناول القربان الاقدس وتوزيع الاسرار ، وتذكر العادات الفارقة بين الطائفة المارونيـــة وباقي الطوائف الاخرى .

---

(١) راجع ما نشره بهذا الصدد جورج جراف عن عادات الاقباط الخاصة لدى ميشال الدمياطي وعنوانه « محاولة الاصلاح في الكنيسة القبطية في القرن الثاني عشر » لواضعه بادربون في سنة ١٩٢٣ ، ص ١٤٧ – ١٨٠ . –

فيجب مثلاً ان يقام القداس كل يوم في تمام الساعة الثالثة وفي الساعة السادسة . واما يوم الجمعة فيقدس القربان عند الساعة السادسة والتاسعة وكذا يوم الاربعاء » (ص ٥٦) . انما ليس من الواضح هنا أيجوز التقديس مرتين فقط في الساعتين المذكورتين ام يجوز ايضاً التقديس في الفترة المتراوحة بين الساعات الاخرى .

اما بخصوص عوارض الخبز فيجب ان يكون « من خبز الحنطة النقي من أفضل وأجل ما يمكن الحصول عليه وان يكون مختوماً بالصليب المكرم ، ويقرب على المائدة من خبز يومه على رأي النصارى كافةً ما خلا الروم ومن كان على رايهم من الملكية » (ص ٦٧ ايضاً) .

اما اولئك الذين يجب ان يمتنعوا عن التناول او ان يطردوا من التقرب الى القربان فهم المجربون من الارواح والمجانين [١] والغرباء غير المعروفين ، وغير المعمدين الذين يشكّون بالايمان ، والذي يكون قد اقترف في ذلك اليوم عدة خطايا .

فالشرط الاول لتناول القربان الاقدس انما هو الزهد ، اي « الصوم بالفم والجسم والعقل والنفس » (ص ٧٨) . وميعاد الصوم [٢] وطريقته المتبعة عند الرجال والنساء مشروحان بفتاوى . اما المخالفات لهذا الصوم فيمكن استغفارها بالقرابين . وبناء عليه يبقى البحث الذي اعتمده المؤلف غامضاً فيما يتعلق بالاستعداد الادبي الواجب اتباعه بسبب المخالفات الادبية ، لان المؤلف يضع باديء ذي بدءٍ لائحةً

---

(١) بدلاً من لفظة « مبتكبل أو مستحبل » التي في مخطوط باريس إقرأ صحيحاً كلمة « مبتخبل » (؟) .

(٢) يفسد صوم الحواس عند القدماء باستعمال المشروبات على اختلاف انواعها ، وباستنشاق الروائح العطرية بالانف . واما الاظافر فيجب ان تكون مقلمة والشعر مقطوعاً

الاسانيد ، ولا تحليلاتهم التي يخترعونها ولا سلسلة المؤرخين المشهورين في القرن السابع عشر الذين ذكرهم الاب فهد لتفنيد مزاعم الخصوم وكم افواههم بخصوصها .

فقد اشار مؤلف الهدى الى المباديء التي عليهـــا اسست الفرق المسيحية عصرئذٍ مذاهبها الخاصة المتعلقة بالاتحاد الاقنومي وتوابعه ، ذاكراً اياها لاتمام نظريته دون ان يلبسها حلة المناظرة والمناقشة العلمية . وهذه المباديء نفسها ذكرها « كتاب الاتحاد لابي الفرج » وكتاب الجثاليق [١] لعبدالله ابن الطيب المتوفي عام ١٠٤٣ للميلاد . على انه لم يعرف حتى الان كتاب لابن الطيب بهذا الاسم . فضلاً عن ان كتاب « التثليث والتوحيد » الذي ذكره الهدى والمحفوظ في المكتبة الواتيكانية تحت رقم ١٤٥ من القسم العربي وقد خط في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، لا اثر فيه البتة لما نحن بصدده في صفحاته ٤٨ — ٦٩ ، وهو يفتقر الى درس طويل وبحث عميق .

واما مذهب اليعاقبة والملكيين فلم يذكر عنهما مؤلف الهدى اي مناضلٍ او محام يشد ازرهما بل عدد فقط حججهم بهذا الشأن وبعدها عاد الى ذكر حجج الموارنة لاثبات معتقدهم الذي يفترقون بـه عن الملكيين قائلاً : ان حججهم مشروحة في الرسالة الجديدة الموجهة الى الاسقف ارسانيوس .

وفي الفصل الثالث يأتي المؤلف « بقانون الصلاة » ، الذي به يبتديء القسم التهذيبي المشروح في كتاب الهدى . وفي الفصل الرابع ينتقل الى الكلام عن « قانون الحيض » ، وفي الخامس عن الاغتسال الذي

---

(١) جاء في الهدى ص ٧٩ لفظة « كتب » فيجب اصلاحها بكلمة « كاتب » لا « كتاب » كما ظنها الناشر .

يعقب ذلك استعداداً للقيام بالصلاة . وفي السادس الى الثامن يشير المؤلف الى اساس هذه التطهيرات واوقاتها وازمنة الصلاة ومواعيدها . وفي التاسع يذكر « تقديس القوانين » ثم « العماد » الذي يعتبره فريضةً واجبة .

من المستغرب ان المؤلف استعمل في هذا القسم بعض فتاوى منشورة هنا وهناك في بعض كتب ومخطوطات قانونية — حقوقية فيها من الاطناب والغلو ما لا يمكن التسليم به مطلقاً ولاسيما ما يتعلق بالفتاوى المختصة بالحيض والتطهير الواجب قبل الصلاة والتناول الروحي وبعدها .

والقانون الاساسي الذي وضعه مؤلف الهدى في مبتدأ هذا الجزء الاول قائم على ضرورة الصلاة التي انما هي قوة الايمان وشدته . وبعده يشرح حالاً الواسطة الاكثر اهميةً للصلاة ، وهي في رأيه تقوم مباشرةً بالتطهير الجسمي (التوضؤ) الذي يجب ان يكون عند المسيحيين معتبراً اعتباراً جزئياً فقط كقول مؤلف الهدى فيه ص ٥١ : « افاض الماء على جسمه معتقداً انه يزيل بذلك الاغتسال نجس جسمه كما يفعل اليهود والحنفاء فانه قد تنجس ولا يجوز له صلاة الا بعد اعترافه للكاهن وقبول صلاة الاستغفار . »

وبنظري الخاص ، ان البرهان الحقيقي الذي يثبت طلب الاغتسال كعادةٍ طقسية معمول بها قديماً انما يعود الى إيلاف المسيحيين للعادات الاسلامية في الشرق والتقاليد المألوفة لديهم . على ان هذا الاغتسال لم يكن عندهم كاملاً وشاملاً كما هو عند المسلمين بل كان ممنوعاً الا كغسيل جزئي . وهذا عينه هو الفرق الحاصل والحد الفاصل بين المسلمين والمسيحيين . وقد اثبت المؤلف للهدى هذه التمرينات اي الغسل الكامل بنصوص كتابية ناضل عنها نضالاً جميلاً ، مفنداً الصعوبات

يبدأ الكتاب ، في الفصل الأول بقانون الايمان ، اي بتلك المباحث اللاهوتية عن ضرورة الايمان المعتبر بمثابة الاساس في خدمة الانسان المخلوق لربه الخلاق ، وعن المباديء الاساسية الجوهرية المتعلقة بخدمة الله ، التي منها تتفرع الشرائع : وهي الايمان والصلاة والصوم والصدقة . فالايمان يختص بالعقل ، والصلاة بالنفس ، والصوم بالحب ، والصدقة بالاملاك . فعلى هذا التمييز الرباعي شاد المؤلف الجزء الاول من الهدى الذي تقدم الكلام عنه .

وفي الفصل الثاني يأتي المؤلف بعنوانٍ آخر سمّاه « القانون الاول : ذكر الايمان » . وهو بالحقيقة مبحث ضافي الذيل عن الحقائق الجوهرية التي ترتكز عليها الديانة المسيحية ، التثليث وعلاقة الانسان بالله خالقه . فالمؤلف ، عند كلامه عن صفات الله المتعلقة « بالذات الالهية » اي انه جوهر ازلي حي ذو نطق (ص ٢٣ فصاعداً) ، يجهر بجلاء انه ممن يعلمون تعليم النساطرة (؟) ويعتقدون اعتقادهم (؟ !) كايليا النصيبي النسطوري الذي توفي عام ١٠٤٩ ، وانه بمباحثه مع الوزير الحسين ابي القسم بن علي المغربي المعروفة « بالجلسات السبع » يستعمل التعابير نفسها والمباديء التي يستعملونها هم انفسهم في كتاباتهم[١] حتى يمكن القول انه يستعير الكلمات نفسها التي كانوا يستخدمونها للتعبير عما كان يريد الكلام عنه كما في التعبير الوارد في ص ٢٨ من الهدى ، لانه ، كما يقول ، ليس في اللغة العربية لفظة تصلح لان يعبّر بها عن القائم بذاته غير اسم الجوهر[٢] .

واما في معرض كلامه عن « صفات المسيح » فيعترف صراحةً بتعليم

(١) راجع الاب لويس شيخو في كتابه المطبوع في بيروت سنة ١٩٢٣ ، ص ٣١ - ٦١ . وعنوانه : « ثلاثة مباحث قديمة عن المناظرات واللاهوت المسيحي » .

(٢) انظر ص ٣١ من كتاب ايليا النصيبي وص ٢١٥ من المجلة الالمانية المذكورة .

المونوتيليين (؟) القائلين بالمشيئة الواحدة في السيد المسيح ، فيقول :
« ونحن لا نعتقد فيه اثنين ولا مسيحين ولا شخصين ولا مشيئتين
ولا فعلين ، حاشاه ذلك بل هو واحد ، يسوع المسيح ابن الله الوحيد
الذي من اجلنا تأنس ... » وبعد ان يذكر المؤلف الفرق التي تعددت
بشأن عقيدة الاتحاد الاقنومي « وهي الاريوسية والنسطورية واليعقوبية
والملكية وهي المنسوبة الى الملك قسطنطين الثاني (٦٤١ — ٦٨٨)
ابن قسطنطين بن هرقل الملك ، ثم المارونية وهي المنسوبة الى مارون
يوحنا بطريرك انطاكية العظمى » يقول : « ان الفرقتين الملكية
والمارونية اللتين ذكرناهما انما هما فرقة واحدة ورأيهما في الاتحاد
وجوهر الاقنومية رأي واحد ، وانما اختلفتا بالمشيئة . فقالت الملكية
بمشيئتين وقالت المارونية بمشيئة واحدة واحتجت كل واحدة منهما
بحجج ، وارتكزت على اساس خاص بها .

على انه هناك عبارتين ذكرهما المؤلف قبل كلامه هذا عن المارونية
والملكية وبعده ايضاً ، يستنتج منهما ان المؤلف كان قبلاً قد كتب
الى الاب القديس ارسانيوس اسقف عين قرة[١] تاريخ الطائفتين المذكورتين
وشرح له الفوارق بينهما ، والاختلافات المتعلقة بمعتقدهما شرحاً وافياً .
وكان قد سمى هذا التاريخ باسم « رسالة العدل » اولاً ثم باسم
« قضية العدد » بدلاً من « العدل » . وهذا الخطأ يرجع اصله إما الى
القراءة او الى الكتابة من قبل الناسخ الاصلي او الى الطباعة .

اما ما ذكرت من اسانيد هامة عن حقيقة المونوتيلية التي سقط
فيها الموارنة القدماء (؟) في القرن الحادي عشر ، لا تقوى براهينهم
التي بها يدافعون عن معتقدهم الكاثوليكي على ان تخفف من قيمة هذه

---

(١) غير معروف اطلاقاً .

من اسقف ماروني اسمه داود ان ينقل اليه هذا الكتاب من السريانية الى العربية ، ويشرحه له عن الكتاب الذي وضعه الاب القديس . على انه لم يذكر هنا ايضاً الصفات والمميزات المختصة بهذا الاسقف ، بل يقول عنه عرضاً في الجواب الذي ارسله اليـــه الراهب يوسف المذكور ، انه قد سيم اسقفاً بقوة الروح القدس واقيم خليفةً للرسل الاطهار ، اي انه يحمل الشارات الحبريّة .

ويقول ان الكتاب الذي عربه الاسقف المشار اليه بناء على الحاح الراهب وطلبه الترجمة العربية ، انما يحمل اسم كتاب « الكمال » . وتكلم هذا المترجم بجلاء وتفضيل عن المصادر والشروحات التي اعتمدها ، وعن الكتّاب والمؤلفين الذين استند اليهم واستقى منهم معلوماته الممتعة ، مضيفاً الى ذلك قوله : « لقد نقلت هذا الكتاب من اللسان السرياني الى اللسان العربي لانتشار هذه اللغة العربية في عصرنا هذا ولاجـل ان يوجد هذا الكتاب في اللغتين . »

ثم ختم كلامه قائلاً : وقد وسمت هذا الكتاب باسم ܐܘܪܚܐ ܕܡܠܝܐ في السريانية «وبالمرشد» في اللغة العربية كما في صفحة ١٤ من الهدى .

هذا من جهة الترجمة اما من جهة التأليف فمعرفتنا اكثر ضآلةً : فالاخ فهد نسب التأليف الى « الاب القديس » الذي ورد اسمه مراراً في الرسالتين المصدر بهما الهدى . والاب القديس هذا في نظر ناشر الهدى هو احد اساقفة الطائفة او بطاركتها الاعلام . على ان هذا الرأي الاخير لا يمكن اثباته (؟) لان قيام بطريركية مارونيـــة قديماً بل في زمن تقادم عهده كثيراً لم يكن امراً معروفاً بل مـا يزال موضوع شك ووهم[1] .

---

(١) راجع تعليقنا على هذه الفقرة وسواها في النبذة المثبتة في آخر هذه الترجمة .

اما المطران اقليموس يوسف داود السرياني فيعتقد ان المؤلف هو أحد رؤساء اديار الطائفة المارونية . ولكن من المرجح ان المؤلف كان مطراناً ، لرغبته الزائدة في تنظيم كتاب الحق الكنسي . وهذا المطران لا يمكن ان يكون الا اسقف عين قرة المدعو ارسانيوس والذي جاء اسمه في الهدى نفسه وقد لقّب « بالاب القديس » .

على ان الامر الذي يستدعي اهتمامنا الخاص انما هو موضوع الكتاب . فعناوين الفصول التي يحتويها ، وان كانت لا توضح بالدقة والضبط المرغوب فيهما الموضوع الذي عليه يدور البحث ، أحاطنا علماً بها بصورةٍ اجمالية العلامة الشهير يوسف السمعاني[١] والكاتب الالماني المعروف غليلموس ريدل . فللاطلاع على موضوعات هذا الكتاب وميزاته الخاصة واحدةً واحدةً يقتضي درس دقيق وتحليل صحيح . وهذا ما نتوخاه فيما يتبع ، فنقول :

ان القاء نظرةٍ اجماليةٍ على الكتاب تسمح لنا بتقسيمه الى جزئين رئيسيين لا يظهران بوضوحٍ لكل قارىء له . فالجزء الاول يتضمن المواد الجوهرية التي يدور عليها موضوع الكتاب وهي العقائد الالهية ، والتعاليم الادبية ، والمباديء الدينية ، والانظمة التهذيبية التي تقوم عليها الحياة المسيحية الكاملة . واما الجزء الثاني فيحتوي على المراسيم الملوكية والقوانين والتقاليد الحقوقية القديمة العهد .

---

(١) ان أسطفان الدويهي يقسم الكتاب الى ٣ اجزاء مؤلفة من عشرين ومن ثلاثة عشر ومن واحد وعشرين عنواناً او باباً . واما يوسف السمعاني فيقسمه الى ٥٣ فصلاً ، في حين ان الاخ فهد يذكر في فهرست الهدى المطبوع باللغتين العربية والفرنسية ٥٧ عنواناً . وعناوين الفصول التي يدور عليها بحثنا وتتعلق بالقوانين المضافة الى كتاب الهدى ، ما خلا قوانين الملوك ومراسيمهم ، لا تفترق افتراقاً كبيراً في كتب الناشرين المشار اليهم . فحباً للتنظيم وتسهيلاً للاطلاع وحفظاً للترتيب عزمت ان اضع بين معكفين في مبحثي هذا الذي اخذت بدرسه الآن ، اعداد الفصول التي لم تذكر في النص المطبوع

الاجيال الوسطى » . وقد مهّد هذا الراهب النشيط لنشر هــذا الكتاب بمقدمتين مسهبتين : الواحدة في العربية كاشفاً فيها حقيقة المؤلف والمترجم والمخطوطات وزمان التأليف والترجمة الخ ، والاخرى باللغة الفرنسية وهي مختصرة عن العربية .

« اما المخطوطات الثلاثة الكاملة من هذا الكتاب فهي اولاً المخطوط الواتيكاني رقم ١٣٣ من القسم السرياني ، المكتوب في سنة ١٤٠٢ للميلاد والذي طبع اليوم على ما هو عليه باللغة العربية والحرف العربي ايضاً بدلاً من الحرف الكرشوني الذي كان مكتوباً به ، فاصبح في متناول جميع القراء ليطلعوا عليه فاستحق حضرة الناشر على ذلــك الشكر الجزيل الخالص .

ثم المخطوطان الآخران وكلاهما مكتوب بالحرف الكرشوني ايضاً . احدهما محفوظ في مكتبة باريس الأهلية رقم ٢٢٣ كما أوضح الناشر ، ويرجع عَهده الى القرن السادس عشر ، والاخر باقٍ في المكتبة الايطالية الحكومية المعروفة « بالانجيليكة » في روما ، يحمل رقم ٦٤ من القسم الكرشوني ، وهو من مخطوطات القرن السادس عشر ايضاً .

وكل الاختلافات والفروق بينهما وبين المخطوط الاول أحسن الناشر بوضعها في حواشي الكتاب الذي طبعه فسهّل الاطلاع عليها لكل طالب علم[1] .

---

(١) طبع حضرة الاخ بطرس فهد مخطوط الهدى بكل امانةٍ في النقل حتى ان عدة اغلاط في المخطوط الكرشوني تركها وشأنها الا قسما منها قد اصلحه واضعاً صوابه ضمن معكفين . ولذا نرى بعض النصوص من هذه الطبعة غامضةً مع ان اصلاحها كان ممكناً دون صعوبة كبرى . مثلَا في ص ٢٢٩ فبدلًا من كلمة « فورك » يجب ان توضع لفظة يدرك ، وفي ص ٢٥٠ بدلا من « وكرك » يلزم لفظة « وكدك » وفي ص ٢٥٦ بدلاً من من كلمتي « وحر » و « افترى » ان توضع « وحد ، وافتدى » ،

وهناك مخطوطات اخرى كالتي في المكتبة الواتيكانية رقم ٢٢٠ من القسم السرياني ، وكذلك رقم ٤٦ وهو قانون ابن العسال نفسه الذي اشرنا اليه سابقاً .

اما ما يتعلق بنشأة هذا الدستور الذي نتكلم عنه ، وما يرجع الى مصدره وينبوعه فنستطيع القول بالاستناد الى الرسالتين المصدّر بهما هذا الكتاب « ان راهباً متسماً بسمات الكهنوت يدعى يوسف ولم يذكر محل اقامته قد طلب في عام ١٣٧٠ يونانيه اي سنة ١٠٥٨/٥٩ مسيحية [١]

كما ان بعض اسماء علم كان يجب اصلاحها لسهولة فهمها كما في قوانين مجمع اللاذقية والقسطنطينية ص ٣٧٠ ، ٣٧٩ ، ٣٩٢ و ٤٠٤ ، هذا فيما لو قوبلت هذه القوانين مع نص القوانين نفسها التي طبعها الاستاذ ادوار ساشو (Sachau).

اما الايات الالهية الواردة في الكتاب نقلًا عن الكتاب المقدس فلم تذكر مواضعها ولا الاسفار المقدسة التي أُخذت منها .

وفي رأينا ان مخطوط الواتيكان الكرشوني تقدمته ترجمة عربية أيضاً أُخذ عنها ، يثبت ذلك ورود بعض كلمات أخذت عن نسخة عربية وأشكل معناها على الناسخ الاول فنقلها الى هذا المخطوط مشوهة ومغلوطاً فيها او محرفة . ففي ص ١٦٥ مثلًا من الهدى مطبوع تسبحة الاحكام مع ان الواجب ان تقرأ « نسخة الاحكام » وفي ص ٢٣٥ يجب أصلاح لفظة حمارى باسم جمادى ، وفي ص ٢٥٩ بدلًا من كلمة استجارية يجب وضع لفظة استخارية من اليوناني وهي (stoicarion)، وفي صفحة ٣٢٦ توضع لفظة « للاندال » بدلًا من « للابدال » وفي صفحة ٣٣٤ « هرفريط » تصلح بلفظة يونانية « اوبريت » (uperetes) ، وايضاً يودوسيس تصلح بكلمة تاودوسيوس ، وهذا كله يعني ان الاصل كان مكتوباً بالعربية والا فكيف نفسر هذه الاغلاط المذكورة ؟

وما يزال في حالة الريب امر الاغلاط التي لم تذكرها هل هي اغلاط مطبعية او تحريف من قبل الناسخ او تصحيف او اغلاط متروكة سهواً كما في ص ٢٥٠ مثلًا فبدلًا من لفظة « وديارك » يجب ان تقرأ ودبارك (بالباء) وفي صفحة ٢٩٥ بدلًا من لفظة مطربليط توضع كلمة « متروبوليت » .

(١) ان مخطوط باريس تداولته ايد كثيرة وقد حكّ فيه اسم داود المطران ووضع مكانه اسم توما اسقف كفرطاب . وزيدت على الهامش العبارة التالية التي خطها المثلث الرحمة البطريرك اسطفان الدويهي ، وهي «هذه نسخة الرسالة التي وجهت الى توما اسقف كفرطاب من اعمال حلب . »

وهذا هو نص مقال العلامة جورج غراف
معربا بمتنه وحواشيه، قال :

« ما تزال الدروس القانونية — التاريخية في الكنائس الشرقية ناقصة ،

وقد أثبت ذلك حديثاً حضرة العالمين الفاضلين الاخوين آصاف في كتابهما « الارث الماروني » المنشور في مطبعة الآباء الكريميين بجونيه عام ١٩٥٣ ، ص ٢٠١ ، فقالا ما حرفيته : « كتب « الاخ المبارك الخيّر مار يوسف الراهب القس الى داود المطران في سنة ١٣٧٠ للاسكندر اليوناني » رسالة يطلب اليه فيها ان ينقل له من السريانية الى العربية «الكتاب المنسوب الى الاب القديس» فلبّى داود المطران الطلب واوضح له فيه جوابه اليه ان « الكتب » المنسوبة الى الاب القديس تدعى « كتاب الكمال » . اما هو فقد دعاه بالسريانية « كتاب الهداية » وبالعربية « كتاب المرشد » . ثم قام ناسخ المجموعة التي نحن بصددها ودعاها « كتاب الناموس » . . . ورغم ذلك فقط أطلق على هذه المجموعة اسم « كتاب الهدى » فعرفت به . . . »

وقد زاد على هذه الاسماء لقباً آخر جديداً احد المحررين الادباء ، في مجلة المشرق (سنة ١٩٣٥) في عددها كانون الثاني — آذار ، ص ٦٣١ فقال :

« ان عنوان هذا الكتاب هو **ܗܕܝܘܬܐ** اي الهادي او المرشد وليس الهدى » .
ولكنّ الاسم الشائع الذي عُرف به هذا الكتاب انما هو الهدى كما اثبتنا وكما بيّنه قديماً البطريرك الدويهي في الفصل السادس من كتابه « الاحتجاج » ؛ والمطران دريان « في لباب البراهين » ص ٢٢١ ؛ والمطران الدبس في « تاريخ سوريا مج ٥ ص ٥٤٢ ؛ والمطران بطرس ديب في الجزء الثامن من مصادر الحق القانوني ص ٩٢ (Fnoti) ؛ والمونسنيور يوسف زياده في « القضاء الماروني » ص ٦؛ والاب السمراني في « المنارة » سنة ١٩٣٥ ص ٧٩٠ ؛ والاخوان آصاف في «الارث الماروني» في الموضع المذكور ؛ والخوري اسقف جرجس منش في كتابه « مصادر الحق القانوني عند الموارنة » ؛ والمنارة سنة ١٩٤٨ في عدديها ٦ — ٧ ص ٢٩١ في « كلمة ايضاح بخصوص كتاب الناموس » . وغير هؤلاء كثيرون .

تفتقر الى نشر المصادر الكثيرة ، على الرغم مما طبع من المباحث الممتعة الثمينة . على ان هذه الدراسات الجليلة القدر ضئيلة خاصةً في حقل الطباعة العربية حيث لا نرى منشوراً إلا « قوانين الرسل » والقانون القبطي لصافي بن العسّال ، وقد طبع مرتين في فترة وجيزة جداً .

« فمن دواعي الغبطة اذاً ان نعلن اليوم نشر كتاب « الهدى » المعروف بدستور الطائفة المارونية في الاجيال الوسطى ، والذي كتب عنه كثيراً وبحث عن مصدره ، واشتهرت محتوياته وذلــك من الفهارس واللوائح التي كشفت عما يتضمنه ويدور البحث عليه[1] .

« واما ماهيته فلم تزل غامضةً غير معروفة معرفةً جليةً واضحةً لصعوبة الوصول الى الوثائق الراهنة الحقيقية . لان موضوعات البحث المتضمنة في هذا الكتاب تختص مباشرةً بالموارنة في عهدٍ مـا يزال مبحثه الكنسي – التاريخي عرضةً للنقد والتأويل .

« فالى من يعود الفضل في طبع هذا الكتاب القانوني – التاريخي الذي نحن بصدده ؟ لا عجب اذا قلت ان هــذا الفضل يعود الى البادىء بنشرهِ ، الى راهب شاب يدعى الاخ بطرس فهد من الرهبان الحلبيين اللبنانيين الموارنة الذين يتلقون العلوم في مدارس روما العظمى ، نشطه على انجاز هذا العمل الخطير حضرة رئيسه الجليل الآباتي جرمانوس سيف ، فطبعه بعنوان « كتاب الهدى ، دستور الطائفة المارونية في

---

(١) انظر يوسف السمعاني الشهير في المكتبة الشرقية مج ١ ص ٦٢٦ وما يتبع . واسطفان السمعاني في فهرست المخطوطات للمكتبة الواتيكانية مج ٣ ص ٢٠٢–٢٠٨ . وليمس ريدل الالماني في تاريخ بطاركة الاسكندرية، ص ١٤٦ – ١٤٨ . بومسترك في تاريخ الآداب السريانية، ص ٣٤٢ وما بعدها . الخوري اقليموس يوسف داود السرياني في كتابه جامع الحجج الدامغة ضد الموارنـة ، ص ٢٢٤ – ٢٢٦ . وجرجس منش في كتابه « الحق القانوني عند الموارنة » ص ٩٠٧ .

اما الجزء الثاني فيتناول بحث المواضيع الهامة الآتية :

(٣) رسالة البابا زخيا الثالث : (ص ١٧٣ — ١٧٨) .

(٤) شرح الفقرة الواردة في الهدى بشأن معتقد الموارنة القديم حسب اعتقاد علمائنا الاعلام (ص ١٧٩—١٩١) .

١٠ — لم يبتدع الموارنة : (ص ١٩٢ — ٢١٠) ، وهذا الفصل يتناول شرح المستندات التاريخية التي تثبت صحة العقيدة المارونية على تمادي الاجيال .

١١ — لبنان والموارنة في العصور المتأخرة : (ص ٢١٠ — ٢٣٥) . ويعقب ذلك ذيلان : الذيل الاول (ص ٢٣٦ — ٢٥٩ — . والذيل الثاني وهو يتضمن الادلة القاطعة التي نشرها العلامة الخوري بولس قرألي بشأن اثبات المعتقد الماروني الصحيح (ص ٢٥٩ — ٢٧٠) . (١)

* * *

---

(١) ان لكتاب الهدى اسماء عديدة يُعرف بها ، أشهرها : « المرشد » ، او « الهداية » او « الناموس » او « الكمال » او « الكتاب المنسوب الى الاب القديس » ويدعى « الهدى » الذي نشرناه سنة ١٩٣٥ كما سبق القول . (راجع مقدمة الهدى وخاتمته ولاسيما الحاشية الاخيرة في ص ٤٠٦ حيث جاء ما نصه : « لقد تعددت اسماء هذا الكتاب حتى صار من الصعب معرفة الاسم الاصلي الخاص به الذي وضعه له مؤلفه الحقيقي . على انه ورد في مقدمته (اي في الرسالتين المصدّر بها الهدى) انه يُعرف بكتاب « الكمال » وقبل ختام المقدمة راح مترجمه المطران داود الماروني يطلق عليه اسم كتاب « المرشد »، ثم في خاتمة الكتاب دعاه « الناموس » ، وفوق ذلك فقد سماه البطريرك العلامة اسطفان الدويهي في الفصل الـ ٦ من كتاب « الاحتجاج » تارةً كتاب « القوانين » وطوراً كتاب « الهدى او الهدية » وحيناً آخر كتاب « الناموس »، غير ان الاسم الشائع الذي عُرف به هذا الاثر الحميد انما هو كتاب « الهدى » ولذلك نشرته تحت هذا الاسم » .

ومما يجدر التنبيه اليه ، في بدء كلامنا ، ان لكل هذه المباحث التي وضعها محررو المجلات الشهيرة المذكورة وزنها العلمي ، وقيمتها التاريخية ، كما ان لها خطورتها واعتبارها في عالم الطباعة والنشر ، فهي تستوجب المطالعة بامعانٍ وتدقيق ، رغبةً في الاستفادة وفي اداء الشكر لمستحقيه .

على ان الدراسة الاكثر نفعاً ، والاوسع تنقيباً ، والاعمق درساً في هذا الموضوع ، انما هي التي نشرها باللغة الالمانية في مجلة « الشرق المسيحي » حضرة المستشرق الالماني القدير المونسنيور جورج غراف ، حامل شهادة الدكتوره في الفلسفة واللاهوت ، وصاحب التصانيف الضافية في القضايا الشرقية عامةً وفي ما يتعلق بكنائس الشرق على اختلاف طوائفها ومذاهبها وتنوع فروقها خاصةً ، وقد امتازت بالدرس العلمي الحديث ، والاستنتاج الفلسفي ، وتفرّدت بميزات خاصة في حقلي القانون والتاريخ .

اليسوعيين في روما ايضاً ، وفي المجلتين الفرنسيتين اللتين تصدران في بلجيكا ، واسم احداهما « موزيون » (Le Muséon, Révue d'Etudes Orientales, 7 Mont S[t] Antoine, Louvain, N. 49 (1936), p. 318 — 320) والاخرى « التاريخ الكنسي » (Révue d'Histoire ecclésiastique, N. 1. Janvier (1937), p. 248 — 249.) وفي المجلة الكندية التي يديرها الآباء المتعبدون لقلب مريم : (Révue de l'Université d'Ottawa, Ont, Canada).

وقد خصّصت مجلاتنا الشرقية ، كما سنطلع عليها في آخر هذا الكتاب ، الابواب والمقالات الطوال عن هذه النبذة التاريخية – القانونية ، نظير « المشرق » المعروفة برصانتها وقيم دراساتها العلمية والتاريخية فضلاً عن باقي العلوم البشرية على اختلاف انواعها ، « والمنارة » لحضرات الآباء الكريميين الفضلاء ، « والشهباء » التي يصدرها حضرة الفاضل الخوري اسقف اغناطيوس سعد في حلب ، ما عدا ما نشر في الجرائد والمجلات الاخرى .

وقد عرفنا هذا المستشرق العلامة عام ١٩٣٥ في المدينة الخالدة ، روما ، يوم قدم ديرنا مار انطونيوس الكبير لزيارته ، وللاطلاع على الهدى لخطورته ، بغية وضع درس عليه ضافي الذيل ، كما صرّح لنا يومذاك ، وانجز وعده بعد شهور ، فآثرنا أن ننقل هذا الدرس الطويل المفيد الى لغتنا العربية ليطلع عليه كل ذي اهتمام بهذا الموضوع الهام ، ويستفيد منه المطالع الحصيف دون ما عناء ولا تضحيات .

وقد قسّمنا كتابنا هذا الى جزئين ، كما يتضح جلياً من عنوان الكتاب عينه : « كتاب الهدى وتاريخ الطائفة المارونية » ، ويتبعهما ذيلان مسهبان .

فالجزء الاول يحتوي على مقالة العلامة المونسنيور جورج غراف الالماني مع التعقيب عليها ، ما عدا كلمة المؤلف : (ص ٤—٧٤) .

والجزء الثاني يتناول بايجاز تاريخ الطائفة المارونية من مار مارون حتى يومنا هذا : (ص ٧٥ — ٢٣٦) .

واما الذيل الاول فيتضمّن أهم ما قيل في كتاب الهدى بعد نشره بالطبع ومعارضته بباقي مخطوطاته .

والذيل الثاني يحتوي على الادلة الثابتة التي جاء بها العلامة الخوري بولس قراعلي لاثبات العداء المستحكم بين الموارنة والمونوفيزيين .

على ان الجزء الأول يتفرّع الى ابواب واعداد كالآتي :

طبع بإذن الرؤساء

كلمة المؤلف

مضت سنوات على نشرنا بالطبع « كتاب الهدى : دستور الطائفة المارونية في الاجيال الوسطى »[١] كنا خلالها نرقب كل ما يقال عنه، وما ينشر حوله من دراسات ممتعة في مختلف اللغات، لعلمنا بان السواد الاعظم من المؤرخين الثقة والدارسين المدققين كانوا، لوقتٍ خلا، يتمنّون الوصول الى هذا الكتاب لاستطلاع مضمونه واشباهه درساً وتمحيصاً، وقد عزّ المنال، ومطلبهم مخطوط نادر محفوظ في مكاتب روما وباريس، يحول بُعد المكان، وكثرة النفقات، دون مطالعته وتعليق الدروس عليه[٢]. وقد اطلعنا على القسم الاكبر والأهم مما طبع من المباحث حول موضوع الهدى في المغرب وفي المشرق[٣].

---

(١) تحت هذا العنوان نشرنا بالطبع سنة ١٩٣٥ في المطبعة المارونية بحلب الشهباء، المخطوط السرياني رقم ١٣٣ المحفوظ في المكتبة الواتيكانية، بعد ان عارضناه بباقي المخطوطات وابنّا فروقها.

(٢) راجع مقدمة الهدى ص ا – ب.

(٣) طالعنا ما نشر خلال سنتي ١٩٣٥ – ١٩٣٦ في مجلة « الشرق المسيحي » (Oriens Christianus) التي تصدر في المانيا كما سنرى، وفي « المجلة الفلسفية » (Bollettino filosofico) الخاصة بمعهد القديس يوحنا لاتران البابوي في روما، وفي مجلة « الشؤون الشرقية » (Orientalia christiana Periodica (1951) V. I. N III — IV, Roma, p. 535 — 537) المختصة بمعهد العلوم الشرقية للآباء

الاب بطرس فهد

المدبر العام للرهبانية الحلبية اللبنانية المارونية

– دير اللويزة –

حول

كتاب الهدى

وتاريخ الطائفة المارونية

مطبعة المرسلين اللبنانيين – جونيه

١٩٥٤

الاب بطرس فهد

المدبر العام للرهبانية الحلبية اللبنانية المارونية

– دير اللويزة –

حول كتاب الهدى وتاريخ الطائفة المارونية

